المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا



الرواية التاريخية

عند

السير ولتر سكوت وجرجي زيدان

«دراسة مقارنة»

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب المقارن
من كلية اللغة العربية - جامعة أم القرى

إعداد
سميرة حسن محمد زيدان

إشراف
للأستاذ الدكتور / عبد الحليم حسان

١٤٠٩ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين • الرحمن الرحيم • مالك يوم الدين •

إياك نعبد وإياك نستعين • اهدنا الصراط المستقيم •

صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين •

صدق الله العظيم

إهداء

إلى زوجي

وابنيَّ منى وعماد

مقدمة البحث

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أكرم خلق الله ، محمد بن عبدالله - وعلى آله وصحبه أجمعين ..

أما بعد ،

فليس من شك في أن ميدان الأدب المقارن ، حقل واسع ، يستطيع فيه الدارس أن يتنقل بين مختلف أنواع النقد ، ويحتاج فيه إلى مهارات متنوعة . وهو يتطلب من الدارس دقة في الملاحظة ، وقدرة على تقصي الحقائق ومعرفة أصولها ، وفوق كل ذلك الإلمام بأكثر من لغة .

هذا الميدان الذي شمل النقد وأجناس الأدب عموما ، ميدان مستحدث ، دعت إليه الظروف ، وبعبارة أصح ، فرض نفسه على الساحة الأدبية لأسباب كثيرة أهمها : ما أحدثته الحضارة ، والثورات الصناعية من تغيير وتطور واندفاع نحو الأمام بسرعة مذهلة ، جعلت الشعوب في أمس الحاجة إلى فهم بعضها بعضا - بعد أن تم التعارف بينها - من أجل التأقلم السريع مع هذا الوضع الجديد .

فاختراع الطائرات ، وأجهزة الاذاعة المسموعة والمرئية ... وغيره من وسائل الاتصال كانت الخطوة الأولى لتعارف الشعوب بعضها ببعض ، هذا على المستوى العام . ومن هذا المنطلق كان لابد وأن تظهر وسيلة جديدة في الأدب ، تدرس بواسطتها صلات الشعوب بعضها ببعض ، وتبحث في عوامل هذه الصلات وكيفياتها ، وانطلاقا من الشعور ، بهذه الحاجة عكف المهتمون ، بالأدب والنقد ، وبذلوا جهدهم للتوصل إلى هذه الوسيلة ، ودراستها ، وظلوا يتابعون - دون كلل أو ملل - إمكانية إيجادها على الساحة الأدبية ، إلى أن اكتملت دعائم هذا المشروع الفعال وبرزت معالمه واضحة ، تم إنشاء ميدان الأدب المقارن . وكان ذلك مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وكان من أهم أسباب ظهور مثل هذه الوسيلة في الأدب هو : تعريف الشعوب بعضها ببعض ، وإخراجها من قماقمها لترى في آدابها مالم تكن تراه وتعرف في آداب غيرها مالم تكن تعرف .

ومن سمات الدراسة في هذا الميدان أنها تتطلب من الدارس - كما ذكرنا سابقا - بعض المواصفات لا تتوفر في جميع المثقفين والمهتمين بالأدب ٠ أهم هذه المواصفات هي : إتقان أكثر من لغة إلى جانب اللغة الأم ، أو على الأقل اتقان لغة غير اللغة الأم إتقانا يؤهل الدارس لقراءة النصوص الأدبية في لغاتها الأصلية دون أدنى صعوبة ٠ هذا المطلب جعل الدراسة في هذا الميدان وقفا على عدد قليل من الدارسين المتقنين لأكثر من لغة ٠

والحقيقة أن الدراسة في هذا الميدان عمل ممتع ومضنٍ في الوقت نفسه ، وهو يستمد عامل الامتاع مما يتكشف للباحث من حقائق وأمور لم تخطر له على بال ، وهو مضنٍ لأنه يحتاج إلى سعة اطلاع وكثرة قراءة ودقة ملاحظة ومتابعة ٠

وقد وفقني الله ، وحصلت في عام ١٤٠٦هـ على درجة الماجستير في هذا الميدان ، بدراسة قمت بها بعنوان : (**بيجماليون عند كل من برنارد شو وتوفيق الحكيم**) دراسة مقارنة ٠ ورغبة مني في الاستزادة من المعرفة ، والاطلاع على مافي آداب المجتمعات المختلفة من مواطن التقاء ، عزمت على استكمال الدراسة في هذا الميدان ٠ وسجلت رسالة الدكتوراة للبحث في مواطن التأثير والتأثر بين أدب سكوت الروائي وأدب زيدان تحت عنوان : "الرواية التاريخية عند السير ولتر سكوت وجرجي زيدان - دراسة مقارنة" ٠

شعرت في البداية بالرهبة والتهيب عندما وجدت أمامي ذلك الكم الهائل من الروايات الضخمة لسكوت ، والتي كانت تعم تاريخ انجلترا وتخص اسكتلندا ٠ وهي روايات ، يمل الانجليز المعاصرون أنفسهم قراءتها لضخامتها واهتمامها بالتاريخ ٠

ولكن سرعان مازالت تلك الرهبة عندما قرأت بعض روايات سكوت وكان منها رواية الطلسم ، التي كانت تتحدث عن فترة من فترات الحروب الصليبية "فترة الصراع بين ريتشارد قلب الأسد والسلطان صلاح الدين" ٠ إن استمتاعي بقراءة هذه الرواية أزال عني ذلك التهيب وسهل لي المهمة ٠ فارتأيت أن تشمل دراستي جميع روايات سكوت التي تتحدث عن الحروب الصليبية وكانت أربع روايات هي : الطلسم ، المخطوبة ، ايفانهو ، والكونت روبرت الباريسي[1] ٠ وذلك لأسباب أهمها :-

---

(١) *Count Robert of Paris.*

أنها تتحدث عن فترة من الفترات التاريخية التي كانت فيها الأحداث عاملا مشتركا بين الشرق والغرب . وهي فترة الحروب الصليبية ، التي احتك فيها الغرب بالشرق احتكاكا مباشرًا وقويا استمر لفترة طويلة . إضافة إلى ذلك ، فقد وجدت أن هذه الروايات التي تتحدث عن هذه الفترة التاريخية ، التي لها تأثير في الشرق والغرب ، والتي سجلت أحداثها في كتب التراث الغربي والعربي - تعتبر خير ميدان للدراسة بالنسبة إلي ، لأنها بنيت على أرض عربية غربية . وإنني ، بالتالي أستطيع أن أنظر إليها بمنظور عربي شرقي ، وبخلفية تاريخية سليمة وواضحة . ومن هنا كان المنطلق .

وقد اقتصرت الدراسة في النهاية على ثلاث من روايات سكوت وهي الطلسم ، والمخطوبة ، وايفانهو ، ذلك لما وجدته من آثار لهذه الروايات وبصماتها على روايات زيدان ، فاكتفيت بها .

كانت دراستي لروايات سكوت تلك ، وروايات زيدان ، دراسة نقدية تحليلية ، اعتمدت فيها ، أولا ، على تحليل النصوص ، والشخصيات الروائية ، وإبراز هيئة البناء الروائي لكل رواية على حدة .

ثم بعد ذلك ، قمت بمقارنة النصوص في الأعمال المختلفة للتوصل إلى مواطن الإلتقاء بين الأديبين . هذا بعد أن أثبت العلاقة التي قامت بين سكوت وزيدان ، والتي كانت عن طريق غير مباشر ، اعتمد فيها زيدان على قراءة روايات سكوت التاريخية وتأثر بها . بعد ذلك قمت بتأكيد تلك العلاقة بالاستشهاد بالنصوص الأدبية في الروايات .

لم تكن دراستي في هذا الميدان سهلة لأسباب كثيرة أهمها :

أولا : عدم توفر المصادر والمراجع التي كنت أحتاج إليها (سواء العربية أو الانجليزية) ، بما في ذلك روايات سكوت نفسها . الأمر الذي اضطرني إلى مزيد من البحث والمراسلات مع مكتبات انجلترا العامة ، ومكتبات مصر ، ولمزيد من الانتظار حتى وصول الكتب .

ثانيا : عدم وجود دراسات نقدية أدبية مفصلة لروايات زيدان ، مما ضاعف من مهمتي في البحث .

ثالثا : قلة المراجع التي اهتمت بتطور الرواية التاريخية العربية ودراستها دراسة نقدية مفصلة .

هذه الصعوبات ضاعفت من مجهودي ، وزادتني رغبة في المضي قدما للعثور على ضالتي وتحقيق الهدف من الدراسة .

وبالنسبة لمدلول (البناء الروائي) في البحث ، فقد تبنينا تعريف الناقد (جيرمي هاوثورن) ، حيث يقول :-

> إن بناء العمل الأدبي وحبكته شيئان مترابطان إلى حد بعيد ... ولكن كلمة (بناء) تعني شيئا مختلفا بالضرورة عن معنى الحبكة . فإذا اعتبرنا حبكة الرواية أنها الطريقة التي ترتب بها الحكاية فإن بناء الرواية يشمل عناصر أخرى غير الحكاية . إنها تشمل تنظيم العمل الأدبي في ثوبه العام[1] .

أما بالنسبة للنصوص المقتبسة من المصادر والمراجع الانجليزية فقد قمت في كثير من الأحيان بترجمتها بتصرف مع مراعاة الحفاظ على المعنى الأصلي للعبارة . وقليلا ما كنت ألجأ إلى الترجمة الحرفية للنص .

وقد اتخذت منهجا لدارستي النقدية في البحث لم أحد عنه أبدا وهو : تحليل الأعمال الروائية بعيدا عن تأثير حياة المؤلف الشخصية أو الاجتماعية وانصب اهتمامي على تحليل النصوص ودراسة الشخصيات المهمة ورسمها وغيره من عناصر الرواية الفنية ، تحليلا مفصلا للوقوف على هيئة البناء الروائي لكل رواية في موضوع البحث . ثم بعد ذلك للوقوف على مواضع الالتقاء بين أعمال الأديبين ، بالدراسة والمقارنة .

أما عن المنهج الذي اتبعته في كتابة الهوامش وإعداد قائمة المراجع ، فقد اعتمدت فيه على المعلومات الواردة في كتاب أحمد بدر "أصول البحث العلمي ومناهجه" ، حيث اخترت أحد المناهج التي تعرض لها وهو : الاكتفاء بالاشارة إلى اسم المؤلف والكتاب ، ورقم الجزء (إن وجد) ثم رقم الصفحة هذا عند ذكر الكتاب في الهامش لأول مرة . ثم استخدمت الطرق المختصرة المعروفة للإحالة إلى المرجع المذكور ، وذلك لوجود المعلومات الكافية اللازمة

---

(١) *Hawthorn, Jermy, Studying the Novel, An Introduction, England, Edward Arnold, 1985.*

عن كل كتاب في قائمة المراجع .

وبالنسبة للمصادر والمراجع التي كانت الاستفادة من نصوصها محدودة بأسطر قلائل ولمرة واحدة فقد اكتفيت بالاشارة إليها مستوفية جميع البيانات الخاصة بها ، في الهوامش دون تسجيلها في قائمة المراجع .

أما بخصوص النصوص المقتبسة فكنت ألجأ إلى علامات التنصيص للإشارة إلى النص المقتبس ، قليلا .. ولجأت إلى جانب الطريقة الأولى ، إلى طريقة تمييز النص المقتبس بوضعه في وسط الصفحة مع ترك مسافة تقدر بثلاث كلمات من بداية أسطر المتن ونهايتها ، دون وضع علامات التنصيص .

وكان من أهم أهداف الرسالة :-

أولا : المساهمة في دعم منهج الدراسات الأدبية المقارنة في عالمنا العربي ، وخاصة المنهج التطبيقي .

ثانيا : محاولة التوصل إلى نتيجة مدعمة بالدليل في أن الأدب المحلي لن يكتب له الازدهار والارتقاء إلا بالمحاكاة الرشيدة للآداب الأخرى في لغاتها الأصلية .

ثالثا : محاولة التوصل إلى نتيجة مدعمة بالدليل في أنه يمكن ابداع جنس أدبي جديد وإلحاقه بالموروث الأدبي المحلي ، عن طريق المحاكاة الرشيدة للآداب الأخرى خارج نطاق الأدب الاقليمي .

رابعا : الكشف عن مواطن الالتقاء بين أدب زيدان وأدب سكوت الروائي في مقارنات تطبيقية بين النصوص .

أما عن البحث فقد قمت بتقسيمه إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب كل باب يضم عددا من الفصول .

- مقدمة البحث .

- تمهيد : (الرواية التاريخية) / وتحدثت فيه عن الرواية التاريخية بشكل عام منذ ولادتها إلى وقتنا الحاضر ، للوقوف على تعريف خاص لمفهوم الرواية التاريخية .

- الباب الأول : (الرواية التاريخية عند السير ولتر سكوت)
ويضم أربعة فصول :

الفصل الأول : تحت عنوان (تطور الرواية التاريخية الانجليزية)

وتحدثت فيه عن تطور الرواية التاريخية الانجليزية على وجه الخصوص ابتداءً من (هوراس والبول) Horace Walpole في روايته The Castle of Otronto عام ١٧٦٤م ، ومرورًا بـ (ماريا أدجورث) Maria Edgeworth. ومدام (راديكليف) Mme. Radicliff. و (ماثيو جريجوري لويس) Mathew Gregory Lewis. وانتهاءً بالسير ولتر سكوت ومن بعده .

الفصل الثاني : بعنوان (ايفانهو) : قمت في هذا الفصل باجراء دراسة تحليلية نقدية مفصلة لرواية ايفانهو ١٨١٩ للسير ولتر سكوت .

الفصل الثالث : بعنوان (الطلسم) : قمت فيه باجراء دراسة نقدية مفصلة لرواية الطلسم ١٨٢٥م للسير ولتر سكوت .

الفصل الرابع : بعنوان (المخطوبة) : قمت فيه باجراء دراسة تحليلية نقدية مفصلة لرواية المخطوبة ١٨٢٥ للسير ولتر سكوت .

وقد قمت بترتيب هذه الروايات ترتيبا زمنيا ، وقد وافق هذا الترتيب الزمني ، الترتيب المبني على الأهمية أي أهمية هذه الروايات وقوتها في التأثير على روايات زيدان .

- الباب الثاني : (الرواية التاريخية عند جرجي زيدان)
وقد قسمته إلى فصلين :-

الفصل الأول : بعنوان (تطور الرواية التاريخية العربية) وقد استعرضت فيه - بشكل عام تطور الرواية التاريخية ابتداءً بسليم البستاني في رواية زنوبيا ومرورًا بجرجي زيدان وانتهاءً بنجيب محفوظ ومن تبعه في مصر والدول العربية .

الفصل الثاني : وعنوانه (مفهوم الرواية التاريخية عند زيدان) وقد درست فيه هدف زيدان من وراء كتابة

الرواية التاريخية ، وتأثير تراثه الديني على الرواية عنده ... ثم ألحقت هذه الدراسة بنماذج وضحت فيها فن زيدان الروائي وسمته العامة .

- الباب الثالث : (أثر روايات سكوت على روايات زيدان التاريخية) .

وقد قسمت هذا الباب الى سبعة فصول :-

الفصل الأول : بعنوان (علاقة جرجي زيدان بالسير ولتر سكوت) وتحدثت في هذا الفصل عن نوعية علاقة زيدان بسكوت وكيفيتها ، ومن ثم كيفية تأثر زيدان بسكوت .

الفصل الثاني : بعنوان (صلاح الدين ومكائد الحشاشين) قمت في هذا الفصل باجراء دراسة نقدية تحليلية مفصلة لرواية صلاح الدين ومكائد الحشاشين لزيدان . ثم ألحقتها بدراسة وتوضيح مواضع الالتقاء بين هذه الرواية وروايات سكوت التاريخية موضوع الدراسة . مستشهدة بالنصوص .

الفصل الثالث : بعنوان (شجرة الدر) وقمت في هذا الفصل بدراسة رواية شجرة الدر لزيدان ، دراسة نقدية تحليلية مفصلة ، ألحقتها بدراسة توضح مواضع الالتقاء بين هذه الرواية وروايات سكوت التاريخية موضوع الدراسة ، مستشهدة على ذلك بالنصوص .

الفصل الرابع : بعنوان (أحمد بن طولون) وقمت فيه بسرد حبكة رواية أحمد بن طولون لزيدان ، ثم بالتالي دراسة وتوضيح أثر سكوت على هذه الرواية ، مستشهدة على ذلك بالنصوص .

الفصل الخامس : بعنوان (فتح الاندلس) وقمت في هذا الفصل بسرد حبكة رواية فتح الأندلس أو طارق بن زياد لزيدان ، ثم دراسة وتوضيح أثر سكوت عليها . مستشهدة على ذلك بالنصوص .

الفصل السادس : بعنوان (أرمانوسة المصرية)
قمت في هذا الفصل بسرد حبكة رواية (أرمانوسة المصرية) لزيدان ، ثم دراسة وتوضيح أثر سكوت عليها ـ مستشهدة على ذلك بالنصوص .

الفصل السابع : بعنوان (روايات أخرى)
قمت فيه بالإشارة إلى مواطن الالتقاء العامة بين روايات سكوت وعدد من روايات زيدان مثل غادة كربلاء ، فتاة غسان ، العباسة ، أبو مسلم الخرساني مستشهدة على ذلك بالنصوص .

ـ الخاتمة : وفيها تم إجمال أهم ماتوصل إليه من نتائج للرسالة .

وبعد هذا العرض السريع لمحتوى البحث ، لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساهم في ابراز هذا البحث وإخراجه إلى النور بهذه الصورة . وأخص بالذكر : جامعة أم القرى التي أتاحت لي فرصة الدراسة والتخصص الدقيق في ميدان الأدب المقارن . وأشكر كلية اللغة العربية التي شرفتني بتعيين أستاذي الفاضل الدكتور عبدالحكيم حسان عمر للاشراف على رسالتي ، وأتقدم بالشكر كذلك لأستاذي الفاضل الدكتور عبدالحكيم حسان عمر الذي شرفني بقبوله الاشراف على بحثي والذي ماكل طوال فترة اشتغالي بالبحث يمدني بنصحه ولا مل يوجهني بإرشاداته ، ولن أنسى حلمه ومواقفه الأبوية تجاهي ، وإني لن أجد الكلمات التي تعبر عما أكنه له من تقدير وعظيم امتنان ـ فجزاه الله عني خير الجزاء .

وأتقدم بالشكر أيضا للدكتور /عدنان محمد وزان الذي أمدني بمجموعة كبيرة من المراجع التي تخص موضوع البحث . وكذلك أشكر الأستاذ عبدالعظيم ساندرز ، وابن شقيقتي الدكتور طارق الخطيب اللذين ساعداني في الحصول على المصادر والمراجع الانجليزية من انجلترا . وأشكر مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية لإمدادي ببعض المراجع المهمة ، كذلك أشكر شقيقي عبدالله وطلال زيدان اللذين ساعداني في الحصول على كثير من المصادر والمراجع العربية من القاهرة .

ثم أشكر الدكتورة / فاطمه نصر أستاذة الأدب الانجليزي في جامعة الملك سعود واهتمامها الدائم وحثها المستمر لهمتى .

وأخيرا أشكر زوجي المهندس مفتاح الادريسي الذي كان يدفعني ويحثني على المضي قدما لتحقيق هدفي . أما والدي فلهما في النفس تقدير وعرفان تعجز عن إدراكهما الكلمات ... جزاهما الله عني خير الجزاء .

وفي الختام أتوجه بالشكر الجزيل للسادة أعضاء لجنة المناقشة لتكرمهم بقبول مناقشة بحثي .

وجزى الله الجميع عني خير الجزاء ،،،

الباحثة

تمهيد

الرواية التاريخية

لقد قام النقاد بوضع مسميات عرفت بها أنواع الروايات • فهناك رواية الشطار[١] ، والرواية العاطفية[٢] ، والرواية الاقليمية[٣]، ورواية الرعب[٤] ، والرواية العلمية[٥]، وغيره • ومن بين تلك المسميات نجد مسمى الرواية التاريخية[٦]. فما المقصود بالرواية التاريخية - متى نشأت - ومن أهم أعلامها ؟

من المعروف بأن الرواية نوع أو جنس جديد في الأدب الانجليزي ظهر مؤخرا قبل مايقارب القرنين والنصف من الآن • ويعتبر جنس الرواية هذا من أحدث الأجناس الأدبية التي تطورت ونمت بسرعة مذهلة • ففي قرنين من الزمان استطاعت الرواية أن تصل إلى منافسة الشعر الذي ظل الجنس الأدبي الأول عدة قرون - ويعتبر القرن الثامن عشر هو العصر الذي ظهر فيه هذا الجنس الأدبي ميدانا يمكن اقتحامه ومتابعته •

كانت الرواية التاريخية وليدة الحركة الرومانتيكية في الأدب والتي ظهرت ثمارها مع نهاية القرن الثامن عشر • وهذه الحركة - كما هو معروف - كانت تنادي باستنفار الهمم والعقول والأقلام والأيدي وكل شيء من أجل التخلص من الكلاسيكية - بكل ماتعني هذه الكلمة - سواء على مستوى الحياة الأدبية أو الاجتماعية - فكانت (الرومانتيكية) ثورة أدبية حالمة ، تطمح إلى عالم (طبيعي) يسوده العدل وينال كل فرد حريته وتلغى فيه كل أنواع الرق (الاجتماعي والأدبي) وتنمحي فيه الحواجز بين البشر فيختلط السيد بالمسود ويتمتعان بالحياة الطبيعية السليمة •

وظهرت هذه الدعوة عقب اشتعال الثورة الصناعية مع نهاية القرن الثامن عشر • ولكن ماذا حصل بعد ذلك ؟ هل استعاد الانسان حريته ، هل تحققت أحلام أولئك الرومانتيكيين بتلك الثورة وذلك الانقلاب الذي قلب حياة فرنسا ثم إنجلترا رأسا على عقب ؟ •

الحقيقة إن الثورة الصناعية بالرغم من أنها ساعدت على إزالة الحواجز بين الدول المختلفة ، بتيسير سبل الاتصال بين الشعوب ، مما ساعد أفراد الطبقة المثقفة ، والذين كان لديهم ميول وتطلع إلى مستقبل زاهٍ تسود فيه العدالة

---

(١) *Picarisque.* (٢) *Sentimental Novel.*
(٣) *Regional Novel.* (٤) *Gothic Novel.*
(٥) *Scientific Novel.* (٦) *Historical Novel.*

التى فقدت في زمن الإقطاع ـ وكانوا هم نواة للحركة الرومانتيكية في أوربا (خاصة فرنسا وانجلترا) ، إلا إن هذه الثورة جلبت معها كثيرا من أنواع الأوبئة الاجتماعية . وعاد المجتمع سيرته الأولى في هيئة جديدة ، وانقسم الأفراد فيه ـ في شكل جديد ـ إلى سيد ومسود ، إلى مالك لرأس المال وعامل . وكثرت المخترعات على جميع المستويات ، وانتشرت المصانع وخرجت الأسرة الفقيرة ـ إلى العمل في تلك الميادين الجديدة ـ خرجت بجميع أفرادها (الرجل والمرأة والأطفال أيضا) خرج الجميع من أجل الحصول على مايقوتهم وانتشر الفساد الخلقي في البلاد ، كل ذلك بسبب الفقر الذي عم طبقة من أفراد المجتمع لحساب طبقة أخرى طاغية .

هذا الوضع الجديد في المجتمع ، والذي جد مع قيام الثورة ، أصاب الرومانتيكيين بخيبة أمل فلم يكن هدفهم من وراء تلك الشعارات التي كانوا ينادون بها من أجل التخلص من النظام الاقطاعي ، هذه الحياة أبدًا . ولم تكن الحياة بعد الثورة هي حلمهم .

إن وضع المجتمع قبل الثورة كان سيئًا في نظر الرومانتيكيين ثم ازداد سوءً بعد الثورة فماذا هم فاعلون وكيف يعبرون عن أنفسهم الحالمة هذه ؟ ماعليهم إلا الرجوع إلى الماضي .. إلى العصور الوسطى .. عصور الظلام حيث كان المجتمع يعيش حياة بسيطة خالية من التعقيد .

ومع هذا الاحساس الجديد ولدت الرواية التاريخية .

وكان Horace Walpole [١] (1717-1797) من أول من عاد بفكره الى العصور الوسطى لينتقي جوًا يناسب حلمه :

وفي منطقة Strawberry Hill بنى لنفسه منزلا قوطي الهيئة حيث يمكنه الاستمتاع بحلمه ويعود بنفسه إلى أيام الفروسة والرهبنة بدون أي ممارسات عملية في أي من المجالين .. ومن أحلام اليقظة هذه نتج عمله الفني الروائي الذي أطلق عليه اسم قلعة اوترنتو [٢]

---

(١) والبول ، هوراس (١٧١٧-١٧٩٧) : هو أصغر أبناء السير روبرت والبول . تعلم في ايتون (Eton) ، وفي كلية King's College. بجامعة كامبردج . نشر روايته المسماة (قلعة أوترنتو) عام ١٧٦٤ . له مؤلفات عديدة في الشعر والنثر .

(٢) The Castle of Othonto;

يروي فيه قصة حدثت في ايطاليا في العصور الوسطى[١] .

ثم بعد ذلك (بداية القرن التاسع عشر) وحين وصلت الرواية إلى درجة من الرقي لابأس بها ، أخذت تتوالى الكتابة الروائية حول موضوعات وأحداث مستلهمة من العصور الوسطى . وظهر في هذا المجال روائيون معروفون أمثال مدام راد يكليف (١٧٦٤ - ١٨٢٣) ، و ماثيو جريجوري لويس (١٧٧٥ - ١٨١٨م) وماريا ادجورث (١٧٦٧ - ١٨٤٩م) ، وليدي مورجان أو السيدة مورجان ... الخ[٢] - هؤلاء الكتاب الروائيون باختلاف مكانتهم الأدبية خاضوا تجربة الكتابة في نوع خاص من الروايات وهو الروايات التاريخية أو الاقليمية أي التاريخية التي يرتبط فيها التاريخ بمنطقة معينة ، ولم يكن مفهوم الرواية التاريخية قد تحدد بعد .

وكانت هذه الروايات هي بدايات لتأسيس الرواية التاريخية ، وظهورها بشكل

---

(١) Evans, IFor, A Short history of English Literature, P.226.

(٢) Wilson, John Burgess, English Literature, PP. 211-229.

- مدام راد يكليف (١٧٦٤-١٨٢٣) روائية انجليزية يكتنف آثارها الأدبية جوٌ من الغموض والرعب حابس الأنفاس .
- هو ماثيو جريجوري ، لويس . تعلم في ويستمنستر وفي Christ Church في اكسفورد ، اكتسب شهرته عن طريق رواية (The Monk) ١٧٩٦ . كتب عددا من المسرحيات وله عددٌ من القصائد . وكان ممن ترك أثراً كبيراً على بدايات سكوت في الشعر .
- هي ماريا ادجورث (١٧٦٧-١٨٤٩) ابنة ريتشارد لوفل ادجورث ، أيرلندي ورجل تعليم . كانت ماريا روائية ناجحة . وكانت صديقة للسير ولتر سكوت الذي أعجب برواياتها . أهم رواياتها (Castle Rockrent) ١٨٠٠ ، (Belinda) ١٨٠١ ، (The Absentee) ١٨١٢ ، ورواية (Ormond) ١٨١٧ ... وغيرها .
- الليدي مورجان (١٧٨٣ - ١٨٥٩) : هي زوجة السير توماس تشارلز مورجان اكتسبت شهرتها عن طريق روايتها ١٨٠٠ (The Wild Irish Girl) التي صورت الحياه الأيرلندية . أحسن أعمالها ١٨١٤ (O'Donnell) و (The O'Briens and O'Flaherlys) ١٨٢٧ .

مستقل فقد :

> كان روائيو القرن الثامن عشر خارج لندن وباث (London & Bath.) نادرًا مايملكون الحس المكاني . إن خلفية أعمالهم الأدبية معراةً من المشاهد تماما كما كان الوضع في المسرحية الإليزابثيه . وعندما جلبت السيدة راد يكليف فكرة صورة المناظر الطبيعية من أجل الغرض نفسه ، أي كانت تعرض تلك الصور لا كمناظر تمثل بيئةً معينة ولكن لأنها شيء رومانتيكي . وقد فعلت ماريا أدجورث أكثر من ذلك عندما أدركت العلاقة بين المسكن المحلي والمقيمين فيه . وبهذا قد ابتدعت شكلا جديدا للرواية وهو (الرواية الاقليميه) التي تتميز فيها طبيعة الشخصيات ، وتستلهم نزعاتها وتعبيراتها من واقع إقامتهم في منطقة ريفية معينة تختلف بما تتميز به من وضع معين في الحياة ـ عن بقية المناطق الريفية .
>
> إن المنطقة التي اكتشفتها كانت أيرلنده ومع أيرلنده الفلاح الأيرلندي ....[1]

هذه السيدة الروائية كان لها تأثير عظيم على السير ولتر سكوت

ولكن السؤال : ماذا تعلم السير ولتر سكوت من ماريا أدجورث ؟ ان السيدة (ماريا أدجورث) كانت خطوة أولى في خلق مايسمى بالرواية الاقليمية . لقد إتخذت من أيرلنده (موطنها الأصلى) بيئة خصتها في رواياتها . فكتبت عن الفلاح الأيرلندي وعن الطبيعة الأيرلندية والحياة الأيرلندية بكل صورها .. وفي هذا الحس بالذات . الحس المكاني . الحس بالانتماء . في هذه الأحاسيس وجد السير ولتر سكوت في السيدة ماريا ادجورث معلما :

> فهو وطني ، وهو فخور بتطور شعبه ، وهذا أمر حيوي لخلق رواية تاريخية حقيقية ، أي رواية تقرب الماضي إلينا وتسمح

---

(1) *Allen, Walter, The English Novel, P.103.*

لنا بأن نعيش وجوده الفعلي والحقيقي وبدون علاقة بالحاضر محسوسة فإن تصوير التاريخ مستحيل [١] .

فالسير ولتر سكوت استلهم من ماريا ادجورث في رواياتها عنصرًا أعطى البيئة قدرًا كبيرًا من الأهمية . والحقيقة إن السير ولتر سكوت استطاع بمواهب كثيرة وفذة ، إضافة إلى ما استفاده من قراءات لروايات من سبقه أمثال مدام راذ يكليف ، وماريا ادجورث وكتب التراث الشعبي والتاريخي ، استطاع أن يصل إلى مستوى رفيع من الخلق والابداع في مجال الرواية التاريخية جعل النقاد يضعونه على رأس قائمة من كتب في الروايات التاريخية وأبدع فيها :

فالمتأثرون به في الرواية التاريخية لا حصر لهم - نذكر منهم بلوير ليتون (Bulwer Lytton) وديكنز ، وشاكري و ريد و جورج اليوت . ولم يكن تأثيره في كتاب انجلترا فحسب بل تعداه إلى فرنسا وروسيا وعبر الأطلنطي إلى أمريكا . فكان محط إعجاب الجميع [٢] .

ونتساءل : كيف حصل ذلك ؟ وما الفرق بين سكوت وغيره من كتاب الرواية التاريخية ؟ وما مفهوم الرواية التاريخية ؟ .

إن أهم ناقد استطاع أن يتوغل في مفهوم الرواية التاريخية ويخرج لنا بإجابات مقنعة للاستفسارات السابقة هو جورج لوكاش في كتابه : الرواية التاريخية . استطاع هذا الكاتب أن يصل إلى سر نجاح السير ولتر سكوت وتوفيقه البعيد في كتابة الرواية التاريخية . فكثير من النقاد وقفوا حائرين أمام هذا اللغز : الرواية التاريخية . بعضهم يقول إن كل رواية تعبر عن عصر بعينه وتصوره ، رواية تاريخية - وهم ينظرون إلى روايات جين اوستن على أنها روايات تاريخية لأنها تصور المجتمع الانجليزي في القرن الثامن عشر ونحن كقراء لهذه الرواية في القرن العشرين نستطيع أن نتصور الوضع في انجلترا في القرن الثامن عشر . وروايات ديكنز - من هذا المنظور - روايات تاريخية لأنها تصور وضع لندن بالذات عقب الثورة الصناعية ، أو بالأحرى هي تصور حالة البؤس التي عاشتها الطبقات الفقيرة في انجلترا وخاصة لندن . وروايات ريتشارد سون أيضا روايات تاريخية لأنها تصور وضع المجتمع والبيئة

---

(١) جورج لوكاش ، الرواية التاريخية ، ترجمة د. صالح جواد الكاظم ص ٦٢ - ٦٣ انظر ترجمة المؤلف ص ٣٣ .

(٢) Evans Ifor, Op. Cit, P.236.

والأسرة وعلاقات الناس في بداية القرن الثامن عشر .. وهكذا ..ومن خلال هذا المنظور نستطيع أن نجعل جميع الروايات روايات تاريخية لأنه بتعاقب الزمن وتغير الظروف ومرور السنين تصبح كل رواية جزءاً من التراث ، من التاريخ ، وبالتالي تصبح هذه الروايات تاريخية :

و (جين اوستن) كانت تكتب من وحي ملاحظاتها وتجاربها فأصبحت رواياتها قيمة باعتبارها تسجيلا لحياة أناس عرفتهم ، وعلى هذا يمكن أن نقول : إن الروايات هي تواريخ(١)

هذا كلام لا غبار عليه ، ولكنه لا يحدد مفهوم الرواية التاريخية ولا يكشف سر لمعان نجم السير ولتر سكوت في عالم الرواية التاريخية . غير أننا نجد الناقد ولتر ألن يضع يده على هذا السر فيقول :

إن سكوت كان قد هضم ــ كما لم يفعل أي كاتب رواية انجليزية ــ العلاقة العضوية بين الانسان والآخر ، والانسان والمكان ، والانسان والمجتمع ، والانسان وماضيه ، الماضي المجرد للتاريخ . وقد نجح في هذا أولا لأنه يكتب عن الماضي وكان يتعامل إلى حدٍ ما مع حياة كشيءٍ منتهٍ وعملية متكاملة ، وهذا العنصر ــ بلا جدال ــ كان مصدرا كبيرا لقوته ...(٢)

فكان العنصر الأساسي في هذا العمل هو : أن سكوت كتب عن الماضي فهو :

"نادرا مايتحدث عن الحاضر . وهو لا يثير مسائل انجلترا المعاصرة الاجتماعية في رواياته(٣)".

فكان لجوء السير ولتر سكوت إلى الماضي أمراً مهما في حد ذاته لتكوين الرواية التاريخية بمفهومها الحاضر . ولكن كانت هناك عوامل أخرى كثيرة ومهمة ساندت هذه الخطوة . فالسير ولتر سكوت يحاول :

"أن يصوّر صراعات التاريخ وعداءاته عن طريق شخوص يمثلون دائما ، في نفسياتهم ومصائرهم ، الاتجاهات الاجتماعية والقوى التاريخية(٤)".

---

(١) Milligan, Ian, The Novel in English, P.100.

(٢) Allen, Walter, Op.Cit, P.120.

(٣) جورج لوكاش ، مرجع سابق ، ص ٣٣ ــ ٣٤

(٤) المرجع نفسه ، ص ٣٤

وبين أيدينا عدد كبير من هذه الروايات تتجسد فيها هذه الصراعات وتتحرك فيها هذه الشخصيات بحرية وباستقلال ، مصورة في مواقف حية تلك العصور في شكلها التاريخي التراثي الشعبي . فا (ايفانهو) و (الملك ريتشارد) و (الأمير جون) و (فرسان المعبد النورماند) و (سيدريك السكسوني) و (روبن هود) و (اسحاق اليهودي) و (ربيكا) ..... هذه الشخصيات تمثل مايمكن الوصول إليه في تصوير ذلك المجتمع من نواحيه الاجتماعية والسياسية والعسكرية .

ولم يقتصر الأمر على روايات دون الأخرى إنما هذه الميزة ، صفة عرف بها السير ولتر سكوت في تأليف رواياته التاريخية :

> وتكمن عظمة سكوت في قدرته على إعطاء الأنماط التاريخية الاجتماعية تجسيدا انسانيا حيًا . ولم تكن الظروف الانسانية المألوفة ، التي تصبح فيها الاتجاهات التاريخية العظيمة ملموسة ، قد صورت من قبل بمثل هذه الدرجة الفائقة من الروعة والصراحة والإبداع (1) .

وهناك ميزات كثيرة تميز بها السير ولتر سكوت في كتاباته ، فهو حين يرسم شخصياته الرئيسة لا ينتقيهم من الملوك والأمراء والقواد العظام الذين قد وفّاهم التاريخ حقهم من التمجيد والتكريم . إنما يختار بطلا ، هو في الأصل إنسان عادي ، من متوسطي الحال . أما القواد والعظام والملوك الأمراء الذين شهد لهم التاريخ بعظمتهم فهؤلاء انتهج لهم السير ولتر سكوت منهجا يفسره لوكاش نقلا عن بلزاك حين يقول :

> إن روايات سكوت تسير نحو الأبطال والكبار بنفس الطريقة التي قام بها التاريخ عندما استلزم ظهورهم . وعليه يعيش القاريء تجربة التكون التاريخي ، للشخصيات التاريخية المهمة وإنها لمهمة الكاتب ، من ذلك الوقت فصاعدا ، أن يترك أفعالهم تجعلهم يظهرون بمظهر الممثلين الفعليين لهذه الأزمان التاريخية (2).

ورواية <u>ايفانهو</u> و <u>الطلسم</u> خير دليل . فالملك (ريتشارد) في الأولى شخصية من ضمن شخصيات الرواية وليس البطل . ولكنه يظل

---

(1) المرجع نفسه ، ص ٣٥

(2) المرجع نفسه ، ص ٤١

محتفظا بجميع صفاته التاريخية الأصيلة . وصلاح الدين الأيوبي في الثانية ليس بطلا للرواية وإنما هو شخصية من ضمن شخصيات الرواية ، احتفظ له الكاتب بخصاله وصفاته التاريخية التي سجلتها كتب التراث والتاريخ . وحين يظهر هؤلاء (الأبطال التاريخيون) يظهرون بمظهر القوة والعظمة ولكن القارئ يتعرف إليهم في ثوبهم الإنساني القريب ، بعيدا عن الزخرف والهالات التاريخية ، فالذي :

> ... يهم في الرواية التاريخية ليس إعادة سرد الأحداث التاريخية الكبيرة . بل الإيقاظ الشعري للناس الذين برزوا في تلك الأحداث ، ومايهم هو أن نعيش مرة أخرى الدوافع الاجتماعية والإنسانية التي أدت بهم إلى أن يفكروا ويشعروا ويتصرفوا كما فعلوا ذلك تماما في الواقع التاريخي(١).

وهذا ماكان يفعله السير ولتر سكوت بالضبط . لقد درس التاريخ والتراث الشعبي القومي في العصور الوسطى دراسة مستوفية وهضم مادرسه وقرأه ، فاحتفظ بقيمة ذلك التراث وأراد أن يخلق من هذا التراث عالما جديدا يعيش فيه القارئُ العصورَ الوسطى من خلال منظور جديد . فكيف يبني السير ولتر سكوت هذا المنظور؟ لقد اختار أبطالا لرواياته (تمثل تلك العصور والمواقف والأحداث) ليسوا هم الأبطال التاريخيين المشهورين . ومن خلال هؤلاء الأبطال الجدد استطعنا التقرب إلى الأبطال التاريخيين ومعرفتهم عن كثب بشرا يصيبون ويخطئون ويحبون ويكرهون ويتزوجون وينهزمون ... هذه الصور (الجديدة) هي التي أعطت روايات السير ولتر سكوت حيويتها وقوتها :

> وسكوت لا يحاول أن يؤسلب هذه الشخصيات (أي الشخصيات التاريخية) ، ولا أن ينصبها على قاعدة تمثال رومانتيكية . إنه يصورها بوصفها كائنات بشرية لها فضائلها وجوانب ضعفها وصفاتها الحسنة والسيئة . ومع ذلك فهي لا تخلق أبدا انطباعا تافها ، فهي بالرغم من كل جوانب ضعفها ، تظهر مهيبة من الناحية التاريخية . والسبب الرئيسي في ذلك هو طبعا ، فهم سكوت العميق لخصوصية الفترات التاريخية المختلفة (٢).

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٤٦

(٢) المرجع نفسه ، ص ٥٠

فالملك رتشارد قلب الأسد سواء في رواية الطلسم أو رواية ايفانهو وصلاح الدين الأيوبي في رواية الطلسم كائنان بشريان لهما صفاتهما ومقوماتهما العادية التي يتصف بها البشر •

ويشير جورج لوكاش في كتابه الرواية التاريخية نقطة مهمة تستحق الذكر وهي فكرة الصدق التاريخي • فإلى أي مدى يجب أن يلتزم الروائي في الرواية التاريخية بصدق المعلومات وصحتها؟ هل الرواية التاريخية التزام بصدق المعلومات وإذا كانت كذلك فماهو الفرق بينها وبين الكتب التاريخية؟ •

من الطبيعي أن يكون هناك فرق بين الرواية التاريخية وكتب التاريخ فإذا كان عيبا في المؤرخ للتراث ، أن يخطيء في تدوين حدث ما بتاريخه الصحيح وبظروفه الصحيحة ، أو أن يخالف الحقائق والمعلومات الثابتة فإنه ليس كذلك عند تأليف الرواية التاريخية • فمما لاشك فيه أن كاتب الرواية التاريخية ليس مطالبا بتقديم سرد مفصل عن تاريخ حقبة ما من الزمن ، بصورته الصحيحة الثابتة • إنه مطالب وقبل كل شيء بتقديم ماهو مقنع في ثوب فني جميل ومتكامل • فكثير من كتاب الرواية التاريخية التزموا الصدق المطلق في رواياتهم حتى أصبحت رواياتهم شديدة الشبه بكتب التراث والتاريخ ، أما السير ولتر سكوت فلم ينتهج هذا المنهج أبدا بل نراه يقدم لنا عملا فنيا رائعا من خلال صياغة أحداث تاريخية بشكل جديد مع التزامه القوي بالصدق التاريخي العام فالانتصار والهزيمة ، والشجاعة والقوة ،والضعف والخيانة ••• هذه الصفات العامة التي كانت سببا في تغيير مجرى التاريخ لايمسها أبدا وإنما هو يجتهد في خلق مواقف تبين سبب وجود هذه الأزمات وظهورها في التاريخ من خلال منظوره الخاص :

> فليس مايهم أن تكون التفاصيل الفردية ، الحقائق الفردية صحيحة أو غير ذلك من الناحية التاريخية • وطبعا فإن سكوت قوي وموثوق به في هذه التفاصيل أيضا على نحو خاص ، ولكن ليس إطلاقا بالمعنى الآثاري أو الدخيل لدى الكتاب اللاحقين • والتفصيل بالنسبة لسكوت ليس إلا وسيلة لتحقيق الصدق التاريخي الموصوف هنا ، لجعل الضرورة التاريخية لوضع ملموس واضحة وضوحا حيا أو ملموسا • والصدق التاريخي عند سكوت هو صدق أو أصالة النفسية التاريخية لشخوصه • الحضور الأصيل (المكاني والزماني) لدوافعهم الداخلية وسلوكهم (١)

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٧٢ – ٧٣

نعم فمفهوم الصدق التاريخي عند سكوت يغاير معناه عند بعض الكتاب الألمان حيث نجد :

> أن الرومانتيكيين الألمان ، بصورة خاصة ، يشددون بإفراط على الصدق التاريخي في كل تفصيل من التفاصيل . إنهم يكتشفون سحر العصور الوسطى الزاهي ويصورونه بدقة وكل شيء من الكاثيوليكية القروسطية إلى الأثاث العتيق ، يصور بدقة الصانع أو الفنان الماهر التي غالبا ماتصبح حذلقة تذويقية (١) .

وهذا فرق بالطبع كبير ، إذ أنه لا سبيل الى المقارنة بين هؤلاء وبين سكوت . وإضافة إلى كل ذلك نجد السير ولتر سكوت عندما يتخذ من التاريخ مصدرا لكتابة رواياته التاريخية ، فإنه يظل يستمد منه مقوماته جميعا من صور وعناصر تراثية ومواقف ولغة وخيال وفكر .. فشخصياته تعيش في العصور الوسطى وتفكر بطريقة العصور الوسطى وتتكلم بلغتها وتتفاعل بمفاهيمها الخاصة . ومن خلال مواقف وأحداث بعضها تاريخي وبعضها من وحي خيال الكاتب يستطيع أن يحدد هدفه . أما مذهب التحديث الذي انتهجه بعض كتاب الرواية التاريخية حيث يجعلون تلك "الكائنات البشرية التي تتحرك في هذا العالم الزاهي (عالم العصور الوسطى) تملك نفسية رومانتيكي معذب"(٢) فهذا مالم يفعله السير ولتر سكوت أبدا .

وبهذه الخطوط العريضة نستطيع أن نحدد بالضبط مفهوم الرواية التاريخية؛ فالرواية التاريخية إبداع فني قبل أن يكون أي شيء آخر . إنها صياغة روح التاريخ والتراث في قالب فني مقنع ومتكامل . وهي تتعامل مع التاريخ كوحدة متكاملة في شكل ثابت منته . وروايات السير و لتر سكوت خير مايمثل هذا النوع من الروايات .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٧٤

(٢) المرجع نفسه ، ص ٧٤

الباب الأول

الرّواية التاريخية عند السّير ولتر سكوت

الفصـــــــل الأول

تطـــور الروايـــة التاريخـــية الانجلـــــيزية

إن فجر الرواية التاريخية بالمفهوم الذي توصلنا إليه في التمهيد لم يبزغ إلا في القرن الثامن عشر عقب ظهور الرواية جنسا أدبيا مستقلا ، بفترة وجيزة . وسطع نوره في النصف الأول من القرن التاسع عشر على يد السير ولتر سكوت وكانت رواياته التاريخية الخالدة هي القاعدة التي أقيمت لنشوء هذا النوع من الروايات وتطورها .

والسؤال الآن : كيف تطورت هذه الرواية وكيف وصلت إلى ماوصلت إليه على يد السير ولتر سكوت . وما أسباب ذلك ؟ .

للإجابة على هذا السؤال لابد من الوقوف على موضوع مهم وأساسي في هذا المجال وهو تطور الحس التاريخي عند الأوربيين والانجليز بالذات . إذا عدنا إلى الوراء ، إلى القرن السادس عشر وبداية السابع عشر :

> نجد أن الزمن بالنسبة للإليزابثيين هو العنصر الذي تتحرك فيه الأجيال المتعاقبة . إنه ليس الشيء الذي يغير الإنسان ويجعل جيلا يختلف عن جيل آخر.(١)

إذن يختلف مفهوم التاريخ عند الإليزابثيين ، أو بالأحرى هو غير موجود في مفاهيمهم كما هو حاصل بالنسبة لنا :

> فلا يبدو أنهم يفكرون بأن الماضي شيء يختلف عن الحاضر . مثل هذه الفكرة والتي هي روح الإحساس بالزمن كانت غير معروفة لديهم.(٢)

ولكن ماذا عن مسرحيات شكسبير التي استلهمت من أحداث في تاريخ الأمم . وماذا عن الحس التاريخي فيها؟ وهل يمكن اعتبارها مسرحيات تاريخية من خلال منظور الرواية التاريخية والتي سبق أن بحثنا مفهومها في التمهيد؟ الحقيقة ، يجيب على هذه التساؤلات ولتر ألن في كتابه فيقول :

> إن مسرحية الملك لير مثلا تتحدث عن مواقف حصلت في بريطانيا ماقبل السكسون ، ومسرحية هنري الرابع تتحدث

---

1) *Allen, Walter, Op.Cit,* P.23.

2) *Ibid.* P.23.

عن انجلترا في القرن الرابع عشر ، ومسرحية (هاملت) تتحدث عن دنمارك القرن الثامن الميلادي . ولكن هذه المسرحيات ليست مسرحيات تاريخية في مفهومها الخاص (للروايات التاريخية) . إنها ليست مسرحيات تتحدث عن انجلترا القديمة أو دنمارك العصور المظلمة أو انجلترا العصور الوسطى . لقد وجدت ومثلت خارجا.[1] وكأن أحداثها تعود إلى نفس الفترة التي تمثل فيها . وهذه الفترة خارج إطار التاريخ كما هو في مفهومنا[2].

واستمر هذا الوضع تجاه الإحساس بالتاريخ فترة من الزمن ليست قصيرة ، إلى أن بدأ الإحساس بها فكان :

هذا الاحساس بالتاريخ ، وبالمجتمع كبناء يتغير بشكل مستمر شيئا ليس له وجود حتى مابعد الحرب الأهلية فكان درايدن ، مثلا ، أول من أعلن هذه الملاحظة الحديثة إذا ما قورن بالاليزابثيين [3] .

فكيف نشأ هذا الاحساس . ومتى؟ وماهي الظروف التى أدت إلى نشوئه ؟ .

لقد أشار ولتر الن إلى نقطة مهمة تستحق الذكر وهي قصص ألف ليلة وليلة والتي ترجمت إلى الإنجليزية مع بداية القرن الثامن عشر :

"فأظهرت مجتمعا وقيما ونماذج للتفكير والمشاعر كانت ساحرة لأنها مختلفة تماما عن نظائرها في العالم الغربي"[4] .

إذن هو القرن الثامن عشر . هذا القرن هو بداية الانطلاقة للحس التاريخي عند الانجليز :

فحتى منتصف القرن السابع عشر كان الانسان لا يفرق بين الحاضر والماضي ثم مع بداية القرن الثامن عشر كان الماضي هو عصور الإغريق والرومان (فقط) التي تعد من أرفع ماتوصل إليه الإنسان . إن الوضع المعاصر قد يصل إلى وضع المساواة

---

(١) أي خارج اطار الزمن ، والمفهوم المعروف للتاريخ .

(٢) *Allen, Walter, Opcit.*, P.23.
(٣) *Ibid.* PP.23-24.
(٤) *Ibid.* P.90.

> (بذلك الماضي) ولكن لن يفوقه أبدا ، وقد نظر إلى هذا الماضي شيئا مختلفا - بالضرورة - عن الحاضر ونبذ مثل شيء بربري غير مهذب وغير حضاري [١]. هذا الرضا الذاتي الذي يعبر عن فقدان الثقة في الحضارة والعقل لم يستمر طويلا [٢].

فقامت الثورة الصناعية وقلبت أوضاع إنجلترا رأسا على عقب وحلت قوة العلم والمخترعات مكان قوة الكنيسة التى كانت مسيطرة على الوضع في إنجلترا في تلك الفترة ونفض الغبار عن العقول ودبت الحياة فيها فتحركت في كل اتجاه وأثبتت وجودها حتى وصلت إلى درجة التقديس :

> وعندما عادت الثقة (في العقل) كان اكتشاف الماضي والعصور الوسطى بشكل خاص ، وكان ذلك حدثا مهما في تاريخ تطور العقل الغربي لم يسبقه في الأهمية سوى اكتشاف الآثار الكلاسيكية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.[٣]

فكانت هذه التحولات السياسية والإجتماعية سببا رئيسا في تطور الحس التاريخي . وكانت ترجمة ألف ليلة وليلة سببا في تطور الحس التاريخي (بمقارنة مجتمعات الشعوب المختلفة واختلاف تراثها) وكانت الثورات الفكرية والسياسية والاجتماعية والأدبية سببا في تطور الحس التاريخي الذي يستمد روحه من الزمان .

وهكذا اكتمل نمو هذا الحس وبدأ التاريخ مثل كائن حي متحرك لابد من التعامل معه واستغلاله .

كانت بداية استغلال التاريخ والتراث مصدرا يستعين به الأديب في كتابة رواية ، على يد (هوراس والبول ١٧١٧ - ١٧٩٧) أواخر القرن الثامن عشر . حيث كتب رواية أسماها قلعة اوترنتو تروي قصة حدثت في ايطاليا العصور الوسطى وقد جمع المؤلف فيها بين الأحداث الطبيعية والخارقة للعادة . و قلعة آوترنتو رواية صغيرة غير ناضجة ولكنها تعد أول محاولة يستقي فيها

---

(١) بسبب الوضع الديني الاجتماعي في هذه الفترة من الزمن .

(٢) *Allen, Walter, Opcit., 91-92.*

(٣) *Ibid., P.92.*

روائي إنجليزي مصادره من التاريخ ومن العصور الوسطى بالذات .

ومع بداية القرن التاسع عشر عام ١٨٠٠ ظهرت رواية (قلعة روكرنت)[١] كتبتها الآنسة (ماريا ادجورث) ، خلال هذه الرواية :

> استطاعت (ماريا ادجورث) أن تساهم بإعطاء الرواية الصفة المحلية (الاقليمية) ومسماها ، بل إنها قدمت أكثر من ذلك : لقد أدركت العلاقة بين الوضع الاقليمي والناس الذين يقيمون فيه لقد ابتدعت ماسمي بالرواية الاقليمية التي تحددت فيها طبيعة شخصيات الكاتب الروائي ، ومنحت نزعتها الخاصة وطرق تعبيرها من حقيقة كونهم (هذه الشخصيات) يعيشون في مناطق ريفية استمدت تميزها عن باقي المناطق من طرقها التقليدية الخاصة في الحياة .[٢]

ولكن ما الدور الذي لعبته (ماريا ادجورث) في تطور الرواية التاريخية ؟.

إن (ماريا ادجورث) استطاعت أن تدرك العلاقة بين البيئة والتراث الخاص بها واختلافها عن بيئة أخرى لاختلاف التراث الشعبي والتاريخي :

> "فالمنطقة التي اكتشفتها (ماريا ادجورث) كانت ايرلنده ومع أيرلنده الفلاح الأيرلندي".[٣]

أما عن دورها في تطور الرواية التاريخية فهو دور مهم وقوي :

> فسكوت لم يتردد في الافصاح عن أنه مدين لها ، فكان هدفه من وراء رواياته ـ كما ذكر في مقدمة (ويفرلي) كان الى درجة ما محاولة مضاهاة الصور الأيرلندية الجميلة التى رسمتها الآنسة ادجورث .[٤]

وعندما نقرأ هذا الاعتراف الذي صرح به السير ولتر سكوت ندرك إلى أي مدى وصل تأثير الآنسة (ماريا ادجورث) لما للسير ولتر سكوت من تأثير قوي على الرواية في جميع أنحاء أوروبا :

---

(١) *The Castle Rockrent.*

(٢) *Allen, Walter, Opcit., P.103.*

(٣) *Ibid, P.103.*

(٤) *Ibid, P.104.*

ولكن تأثيرها (الآنسة ماريا) ذهب أبعد من سكوت . فقد قيل أن تورغنيف [١] أعلن بأنه كان وبدون أن يشعر تابعا للآنسة (ادجورث) عندما بدأ رحلة الكتابة الأدبية .[٢]

ومع بداية القرن التاسع عشر ظهرت السيدة (راد يكليف ١٧٦٤ – ١٨٢٣) :

إن أحسن أعمال السيدة راد يكليف هي ألغاز أدلفو التي أصبحت النموذج الأصلي لما يسمى (Gothic Novel.) أو رواية الرعب.[٣]

والسؤال الآن : إذا كانت السيدة (راد يكليف) قد وضعت حجر الأساس لما يسمى بال (Gothic Novel.) فما هي علاقتها بالرواية التاريخية وكيف ساهمت في تطورها ؟

للإجابة على هذا السؤال نقول نقلا عن ماكتبه ولتر آلن أيضا في كتابه السابق الذكر :

"لقد تعلم منها سكوت حتى قيل أن الرجل الذي حاول أن يكون اللورد بايرون ماهو إلا اختراع مدام راد يكليف".[٤]

ولكن ماذا تعلم منها سكوت إذا كان المؤلف الناقد يقول إننا :

سنصاب بخيبة أمل لو أننا رجعنا إلى رواية الغاز أدلفو على أنها رواية تاريخية بالرغم من أنه من الجملة الأولى في الكتاب يظهر أن الأحداث قد بدأت في (جازكوني)[٥] عام ١٥٤٨م.[٦]

إن خيبة الأمل هذه ناتجة عن الخلط بين الماضي والحاضر لأن الأحداث جاءت من الماضي والشخصيات من وحي الحاضر ، فهذا الخلط جعل الأحداث تبدو غير مقنعة وبعيدة عن الاحتمال . ولكنها على أي حال أدركت العلاقة (الزمكانية)

---

(١) (Ivan Turgenev.) ايفان تورغنيف ١٨١٨ – ١٨٨٧م ، روائي وكاتب مسرحي روسي ، عرف بنزعته التحررية .

(٢) Allen, Walter., Opcit., P.104.

(٣) Ibid, P.97.

(٤) Ibid, P.99.

(٥) Gascony.

(٦) Allen, Walter, Opcit., P.99.

التاريخية . وهذه خطوة تدفع بالرواية التاريخية إلى الأمام . بالرغم من أن السيدة (راد يكليف) قد اعتمدت على عنصر الإثارة والرعب والأحداث الخارقة للطبيعة الموروثة عن التراث الشعبي الأيرلندي . وبتركيزها على التراث الأيرلندي :

> أصبحت من ضمن من ترك آثرا في السير ولتر سكوت فكانت قصصها المثيرة للرعب المأخوذة من التراث الشعبي الأيرلندي من أهم الروايات التي أثارت في نفس السير ولتر سكوت الرغبة للكتابة عن اسكتلندا وتراثها.(١)

وفي هذه الفترة (مع نهاية القرن الثامن عشر) تظهر رواية (ماثيو جريجوري لويس (٢) ١٧٧٥ - ١٨١٨) المسماة ***The Monk.*** ١٧٩٥ وفيها تظهر بجلاء قوة تأثير السيدة (راد يكليف) . حيث ركز على أحداث الرعب ومناظر الأشباح وكل ماهو خارق للعادة وكان هدفه من وراء ذلك هو إثارة الرعب فقط :(٣)

> فكان ماثيو جريجوري لويس قد قرأ روايات القوطيين والجرمان فوظف كل كلمة قرأها في روايته المسماة (*The Monk.*) . لقد استخدم متغيرات موضوع فاوست لخلق إثارة أساءت إلى الفكر المعاصر ، وبالرغم من كل ذلك فقد انتشر الكتاب وذاع صيته . وجلب له الشهرة في كل أنحاء أوروبا وجلب له أيضا صداقة سكوت وبايرون ..(٤)

إلى هذه الفترة من الزمن لم تظهر الرواية التاريخية بمفهومنا الحديث ، وإنما استطاع السير ولتر سكوت بذكائه أن يستمد أصول هذا النوع (الجديد) من الرواية عن طريق من سبقه في الكتابة عن الماضي سواء في الروايات الإقليمية أو في روايات الرعب الـ (*Gothic.*) . لقد استفاد كثيرا من قراءاته لهذه الروايات فاستغل مايمكن استغلاله منها وأهمل ماليس فيه فائدة وخرج لنا عام ١٨١٤ برواية <u>ويفرلي</u> . أتبعها بسلسلة طويلة من الروايات التاريخية .

ومعروف أن للسير ولتر سكوت باعا طويلا في مجال الشعر الرومانسي ، وكان

---

(١) *Evans, IFor, Op.Cit, P.228.*

(٢) *Mathew Gregory Lewis.*

(٣) *Allen, Walter, Op.Cit, P.99.*

(٤) *Evans, IFor, Op.Cit, P.228.*

أحد عظماء شعراء الرومانسية في انجلترا[1] ولم يستطع أحد التفوق عليه في هذا المجال سوى اللورد بايرون[2]. فبعد أن سطع نجم اللورد بايرون في ميدان الشعر واستطاع أن يثبت تفوقه على جميع الشعراء الرومانسيين بمن فيهم سكوت أحب الأخير أن يثبت وجوده وتفوقه في مجال آخر، فتوجه بكل ثقة إلى ميدان الرواية حيث وجد في نفسه فيضا من المواهب ومعرفة بالتاريخ، وتاريخ اسكتلندا والعصور الوسطى بالذات، جربها في الشعر ففاضت عن وعائه فأدرك أن الرواية خير وعاء لهذا البحر من المعرفة والقراءة والحس، وجرّب قلمه فيها :

> فكان قراره ذاك قد جلب له الحظ والشهرة، وألف رواية ويفرلي ١٨١٤م وأتبعها في العشر سنوات التي تلتها بعشرين أخرى بما فيها Guy Mannering 1815, Rob Roy 1817, Heart of Middlothian 1818, Ivanhoe 1819, Kenilworth 1821, Durward 1823. ومازال اهتمامه هذا بماضي اسكتلندا الحديث يحظى بالتقدير لأسباب كثيرة منها تآلف الشخصية واندماجها، والتراث الشعبي، وجو الأحداث، وعنصر الفكاهة، جاءت هذه العناصر مجتمعة في الوقت الذي وصل فيه سكوت إلى حد إبداع الأدب التاريخي بشكل فعلي فتأسست الرواية التاريخية بشكل لامجال إلى الشك فيه – جنسا أدبيا له أهميته. وبالرغم من أن هذه الأعمال الروائية كانت تكتب باسم مستعار إلا أن القراء كان يغالبهم اليقين في أن يكون سكوت هو المؤلف[3].

والسؤال الآن : مالذي جعل قراء سكوت يغالبهم اليقين في أن يكون سكوت هو مؤلف روايات (ويفرلي) التي كانت تكتب تحت اسم مستعار؟!.

---

(١) Leguis, Emile, A Short History of English Literature, translated by V.F. Boyson and J.Coulson, Oxford, The Clarendon Press 1978, PP.284-285.

(٢) هو George Gordon Byron أو اللورد بايرون (١٧٨٨–١٨٢٤) أحد أعظم شعراء الجيل الثاني من شعراء الرومانتيكية وهم (بايرون، وشيلي، وكيتس أضف اليهم ثوماس مور ولي هانت، ولاندور، وثوماس هود. وقد ارتبط الثلاثة الأول بموتهم المبكر. فقد توفي بايرون ولم يتجاوز عمره الـ ٣٦ عاما وتوفى شيلي وعمره ٢٩ عاما أما كيتس فقد توفى وعمره ٢٦ عاما فقط بعد أن تركوا أعمالا تشهد لهم بالتفوق.

(٣) Perkins, David, English Romantic Writers, PP.375-376.

والإجابة على هذا السؤال واضحة لمن اطلع على دواوين السير ولتر سكوت الشعرية وخاصة قصائده الملحمية الطوال[١] التي قدم فيها التاريخ في صور معبرة :

> فكانت أهم صفة رومانتيكية يتميز بها سكوت (عن غيره من الشعراء) هي حنينه إلى الماضي ، إلى العصور الوسطى ، إلى أيام الفروسة ... لقد كرس جل همه لاسكتلندا ، وكانت معرفته العظيمة ببلده قد مكنته من مزج عنصر الحقيقة بأساطير مليئة بالصور الرومانتيكية[٢].

واذا نظرنا إلى رواياته (سلسلة ويفرلي) وجدنا أنها :-

> تكشف عن الأصل الذي نبضت به قصائده نفسه ، وتكشف عن الاستمتاع الخيالي الذي يعيد به خلق الماضي نفسه أيضا[٣].

وهكذا نجد أن سكوت كان يعيش حياته بنبض الماضي ، وكان يستقي حاضره من الماضي ، وكانت أعماله تتنفس برئة الماضي وماضي إسكتلندا بالذات . فقد وجد سكوت في نفسه دوافع كثيرة تجعله يختار التاريخ صفة مميزة لرواياته :

> فهو وطني – وهو فخور بتطور شعبه . وهذا أمر حيوي لخلق رواية تاريخية حقيقية ، أي ، رواية تقرب الماضي إلينا وتسمح لنا بأن نعيش وجوده الفعلي والحقيقي ، وبدون علاقة بالحاضر محسوسة فإن تصوير التاريخ مستحيل[٤].

وبتلك الروح النابضة بحب اسكتلندا استطاع السير ولتر سكوت أن يحيا في أعماله الروائية الخالدة التي طغت شهرتها على شعره لما حفلت به من صور وأشكال ونماذج للتاريخ جعلت السير ولتر سكوت الأب الحقيقي[٥] للرواية"

---

(١) *The Lay of the Last Minstrel 1805- Marmion 1808.*
The Lady of the Lake 1810- Rokeby 1813.

(٢) *Perkins, Opcit., PP-285-286.*

(٣) *Ibid. P.299.*

(٤) جورج لوكاش ، مرجع سابق ، ص ٦٣

(٥) انظر كتاب لوكاش – الرواية التاريخية

التاريخية في العالم بأسره بدون مبالغة •

وفي تقديرنا : " أن سكوت وصل بالرواية التاريخية إلى قمة الهرم ، فكان معلما باعتراف جوته وبلزاك وبوشكين "•[1]

وظل سكوت أكثر كتاب عصره شعبية • وأقبل القراء على رواياته بشغف حيث كانوا في أمس الحاجة إلى مثل هذه الأعمال • وتأثر به كثير من كتاب الرواية أمثال ديكنز وثاكري وهاردي وغيرهم • ولكن الرواية التاريخية بالرغم من هذه الولادة المشعة التى ولدت بها سرعان ما أخذ شعاعها في الانطفاء •

فالمجتمع الانجليزي الذي صعقته كهرباء الثورة بمصانعها ومخترعاتها ومكتشفاتها سرعان ما أفاق من تلك الصدمة فوجد نفسه أسيرا لتلك المخترعات • ووجد نفسه مرة أخرى يعاني من مشكلة الطبقية ، ومشكلة العامل ورأس المال ، ومشكلة الفقر والتدهور العام (في صحة المجتمع النفسية والخلقية والجسمية) هذه المشاكل مجتمعة جعلت الفرد الانجليزي يعيش حياة لم يألفها من قبل فهو عامل يعيد بناء مجتمع من جديد • هذه الفترة فترة الإستيقاظ على واقع مرير جعلت الكتاب أمثال ديكنز يكتبون روايات يؤرخون فيها نتائج الثورة الصناعية على بريطانيا • وكتب (ديكنز) روايات عديدة وصف فيها (لندن) ومجتمع لندن الذي دمرته الثورة :

"وكانت أعماله تترجم في صورة الشخصيات والأحداث عموميات عن كيفية العيش في مدن انجلترا التي يعرفها ديكنز جيدا "•[2]

فكان مفهوم التاريخ عند ديكنز (تأريخ اللحظه) وتثبيت أحداث وقعت حقيقة في زمن معين ، وتسجيلها في مواقف درامية خيالية مستمده من واقع معاش • ففي حين كان سكوت يتعامل مع التاريخ كشيء مكتمل النمو منته ، نجد (ديكنز)

---

(١) جورج لوكاش ، مرجع سابق ، ص ٣٧

- جوته : هو جوهان فولفجانج فون(١٧٤٩-١٨٣٢) (*Johan Wolfgangvon Goethe*) شاعر ألماني يعتبر من أعظم الشعراء الألمان في جميع العصور •
- بلزاك : (١٧٩٩-١٨٥٠م) هو : *Honoré De Balzac.* كاتب روائي فرنسي وهو مؤلف (الكوميديا الإلهية) حاول فيها أن يصور بدقة مجتمع فرنسا الباريسي والقروي ، وكان من أعظم الروائيين الذين تركوا أثرا فيمن بعدهم •
- بوشكين : هو الاسكندر سيرجيفش ١٧٩٩-١٨٣٧ • شاعر روسيا الشعبي ، وبعد عام ١٨٣٠ تحول بوشكين إلى كتابة النثر ، وقد ترجمت معظم رواياته إلى الانجليزية •

(٢) *Milligan, Ian, Op.Cit. P.101.*

يتعامل معه حقيقة معاشة ، وتجربة ذاتية . ومن هنا بدأ مسار الرواية التاريخية في الانحدار نحو النهاية . فهناك فرق كبير وملموس حين نتعامل مع التاريخ كشيء منته وصورة مكتملة المعالم وأن نتعامل مع التاريخ كحقيقة معاشة مازالت في طور نموها .

وبمواكبة الفرد الإنجليزي للتطور الذي حصل في مجتمعه نتيجة للثورة الصناعية ومحاولة التأقلم مع هذا الوضع الجديد ، ومواجهة المشاكل والأوضاع المستجدة على جميع المستويات (الإجتماعية والإقتصادية والسياسية) أصبح هناك اهتمامات أخرى والتزامات حتمتها الظروف على الأديب وهي ضرورة بحث مشاكل هذا المجتمع في ضمير وقلب وعقل الفرد الانجليزي ، يقول أيان مليجان في كتابه :

> بعد ديكنز لم يعد كاتب الرواية في حاجة الى أن يؤرخ للخارج من الأمور لأنه أصبح يميل إلى الغوص في داخل عوالم التجارب الإنسانية ورؤيا الأفراد الذاتية.[1]

ولكن هل يعني هذا أن الرواية التاريخية قد اندثرت تماما؟ وأن مهمة السير ولتر سكوت قد انتهت وأودعت رواياته الرفوف ليعتليها الغبار؟ .

الحقيقة وإن ظلت روايات السير ولتر سكوت لفترة طويلة مخبأة على الرفوف إلا أنه سرعان ماتذكره النقاد فنبشوا وأزالوا الغبار عن رواياته وأعادوا قراءتها بروح جديدة وفكر جديد مستنير وكانت نتيجة هذه الدراسات كتاب (جورج لوكاش)[2] الرواية التاريخية الذي ألفه عام ١٩٣٧م وترجم إلى الانجليزية عام ١٩٦٢م ليكون صرخة مدوية تدعو جميع المهتمين إلى العناية بروايات السير ولتر سكوت . ثم تلى كتاب لوكاش مقالات للناقد المعروف ديفيد ديشز David Daiches (اتقان سكوت الروائي) عام ١٩٥١م .

---

(١) *Milligan. Op.Cit, P.105.*

(٢) هو جورج لوكاش - ولد عام ١٨٨٥م في مدينة بودابست - ونال شهادة الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩٠٩م ، ثم قام برحلات زار خلالها ألمانيا وإيطاليا . وخلال الفترة الممتدة من ١٩٣٣م - ١٩٤٤م اشتغل لوكاش في أكاديمية العلوم بموسكو ، ونال كرسي الأستاذية في علم الجمال وفلسفة الحضارة من جامعة بودابست وقد توفى لوكاش عام ١٩٧١ بعد أن ترك مجموعة من المؤلفات السياسية والاجتماعية والفلسفة الأدبية يهمنا منها كتاب (الرواية التاريخية) وكتاب (دراسات في الواقعية الأوربية) وقد ترجم هذان الكتابان إلى العربية .

لقد أحدثت هذه المقالات والكتب النقدية التي كتبها الناقدان السابقا الذكر انتفاضة كبيرة في مجتمع المثقفين ، فأعيدت طباعة رواياته[١] جميعا .

ومضى تأثير سكوت وغيره من كتاب الرواية التاريخية العالميين أمثال بلزاك وهوجو وبوشكين وتولستوي وغيرهم واضحا في روايات الكتاب المحدثين وقصصهم القصيرة ، حيث نجد كثيرا منها يعتمد على مصادر تاريخية تراثية زمانية ومكانية .

ومنذ عام ١٨١٤ استطاع السير ولتر سكوت[٢] ، أن يكتب روايات تاريخية بشكل متواصل . وظل مجهولا بالنسبة للقراء ، يكتب رواياته تحت اسم مستعار[٣] ، لم يكشف عن اسمه الحقيقي إلا في عام ١٨٢٧م .

---

(١) روايات السير ولتر سكوت .

(٢) السير ولتر سكوت (١٧٧١ - ١٨٣٢)

ولد في منطقة College Wynd بالقرب من أدنبره . تعلم في مدارس أدنبره العليا ، وكلياتها . تولد لديه حب الماضي بسبب اطلاعه الدائم على الشعر الايطالي والفرنسي القديم ، وبفضل دراسة شعراء ألمانيا المعاصرين له .

في عام ١٧٩٧ تزوج من مارجريت كاربنتر (Margaret Carpenter) . بدأ ينشر انتاجه الشعري تحت اسم مستعار سنة ١٧٩٦ . وفي عام ١٨٠٥ نشر قصيدته المسماه The Lay of the Last Minstrel. أول انتاج شعري أصيل وضعه على رأس قائمة الشعراء في ذلك الوقت . وبعد ذلك توالت اصداراته الشعرية .

وفي عام ١٨١١م انتقل إلى منطقة (أبوتسفورد) حيث بنى لنفسه بيتا هناك.

وفي عام ١٨١٣ نشر آخر قصيدة طويلة له . بعدها ظهر بايرون فخبا نور سكوت في فن الشعر ، لذا انتقل إلى الكتابة في جنس الرواية تحت اسم مستعار . صدر أول عمل روائي له عام ١٨١٤ تحت عنوان Waverley (ويفرلي) . ثم توالت إصداراته التاريخية نتيجة لما لاقاه من تشجيع وما وجدته رواياته من قبول لدى القراء . بلغ عدد الروايات التي أصدرها سبعا وعشرين رواية تاريخية حتى عام ١٨٣١م .

وقد كانت له تجارب في كتابة المسرحية ولكنها لم تلق نجاحا ، منها (Holidon Hill) ١٨٢٢م و (Macduff's Cross) ١٨٣٢م .

إضافة إلى ذلك ، فقد أصدر عديدا من الكتب التاريخية والسير ومؤلفات أخرى .

وقد توفي في ٢١ سبتمبر عام ١٨٣٢؛ في أبوتسفورد ودفن في (Dryburgh Abbey.) .

(٣) وهو شعار (I shall be safe when closed-up.)

كتب سكوت سبعًا وعشرين رواية ، اهتمت بالتاريخ ، وتاريخ اسكتلندا وانجلترا بشكل خاص ، في مختلف العصور :

وقد غرقت جميع رواياته في عالم الماضي ، وبعضها في الماضي السحيق . أما التي تهتم بالماضي القريب نوعًا ما فهي رواية The antiquary ورواية St. Ronan's Well. اللتان صورتا المجتمع الانجليزي والاسكتلندي في بداية القرن التاسع عشر ١٨٠٠م .

من ذلك التاريخ – مع بعض الفواصل – اجتاز سكوت تاريخ انجلترا واسكتلندا إلى عصر الحروب الصليبية . وكان أكبر عدد من الروايات – حوالى إحدى عشرة رواية – قد ركزت على الحياة الاسكتلندية خلال القرن الثامن عشر . وست روايات اهتمت بالحياة الاسكتلندية خلال عهد مبكر . وسبع روايات اهتمت بتاريخ انجلترا قبل القرن الثامن عشر ، وثلاث إهتمت ببلدان خارج إنجلترا واسكتلندا.(١)

وعلى هذا ، فمن الطبيعي ، أن نهتم بالروايات التي تعرضت للحروب الصليبية . ووجدنا بعد الدراسة أن جرجي زيدان وغيره من المهتمين بالأدب الغربي ، قد أعطوا روايات سكوت التاريخية التي اهتمت بالعصور الوسطى،كل الأهتمام، وذلك لأنها تعرضت لأحداث وظروف كانت عاملا مشتركا بين الشرق والغرب . فالعصور الوسطى التي اشتعلت فيها نار الحروب الصليبية كانت فترة زمنية شهدت كثيرا من صور الاحتكاك القوي المباشر بين الشرق والغرب . فكانت هذه الفترة الزمنية تحمل معالم واضحة من الناحية التاريخية ، للطرفين في الشرق وفي الغرب .

وفي تصنيف روايات سكوت ، نجد أن هناك روايتين فقط من رواياته ، موضوعتين تحت عنوان (Tales of the Crusaders.) وهما رواية الطلسم ورواية المخطوبة ١٨٢٥م . وبالدراسة وجدنا أن هناك روايتين أخريين دارت أحداثهما في العصور الوسطى ، وتتحدث عن وضع انجلترا ، وأوروبا بشكل عام في هذه الفترة من الزمن ، وهما رواية (ايفانهو) ١٨١٩ ، ورواية Count Robert of Paris 1831 المصنفتان تحت عنوان

---

(١) Noyes, Russell, English Romantic Poetry and Prose. P. 517.

(Tales of my landlords.) .

ويؤكد كلامنا هذا الناقد جيمس آندرسون[1] ، الذي أورد هذا التصنيف الذي اقتبسناه .

ولكن بعد الدراسه والاطلاع ، استبعدنا الرواية الأخيرة وهي Count Robert of Paris من دراستنا في هذا البحث لعدم وجود علاقة تأثير وتأثر بينها وبين روايات زيدان . وركزنا في دراستنا ، على الثلاث الأول لأنها ذات علاقة بروايات زيدان التاريخية التي سندرسها .

وسنتعرض – في الصفحات القادمة – لهذه الروايات الثلاث بالتحليل والدراسة المفصلة ، نظرا لما وجدناه فيها من جوانب تميزها عن غيرها ، وتلتقي عندها ، إضافة إلى مالمسناه من أهميتها وتأثيرها في روايات زيدان .

---

(1) Anderson, James, Sir Walter Scott as Historical Novolist, P.90.

الفصـــل الثانـــي

ايفانهـــــو

I V A N H O E -1819.

البنـــاء الروائـي[1]:

(١) العـمل الروائـــي[2]:

تدور أحـداث روايـة ايفـانهـو في انجـلترا ، في العصور الوســــطى وبالتحـــديد في الفترة الأخـيرة من عهـد ريتشـــارد قلب الأسـد . وهـي تصـــور أنواعـــا من الصـراع بين العـرقين النورمـــاندي والســـكسوني الذي امتـــــد لفترات طـــويلة من الزمن . وكذلك تشـــير إلى التعســـف النصــــراني ضـــــد اليهـودية ومعـــتنقيها في تلك الحـقبة من الزمـــن .

(٢) الحـــــــــــبكة :

تدور حـبكة روايـة أيفـانهـو حـول الصـراع الذي دار بين النورمـانديـيـــن والســـكسونيين لفترة طـويلة وكذلك تحـامل النصـارى ضد اليهـود كما بينا فـي العـمل الروائـــي . وعلـى هـذا الأسـاس وزعـت شخصـيات الروايـة . ولكــــــن الموضـوعين كانـا متداخـلين إلى حـد ٍ بعـيد لايمكن فك تشـابكهما بسهولة لأنهـما يكونـان عـملا روائيـا واحـدا وإن كان من الممكن التمـييز في الحــــديث عـــن هـذا العنصـــر وذاك .

فنحـن ندلف إلى أحـداث الروايـة عن طـريق الموضـوع الأول وهـو الصـراع العـرقي بين النورمـاند الغـــاصبين والســكسون ســكان المنطـقة الأصـليين . نلتقــــــــي بـ (Gurth) جـورث و (Wamba) وامبـــا ، اثنـــان من خـدم أحـد النبلاء السكســـون (Cedric) ســيدريك وعن طـريق هاتين الشخصـيتين نتعرف على أصـل المشكلة وعلـــى العـــداء القائـم بين العـــرق النورمانـــدي والعـــرق السكســــوني ، وإلى أي مــــدى يكـره الســكسون النورمـانديين . في هـذه الأثنـاء يقبـل فـارسـان من النورمـانـديين معـهـما أربعـة آخـرون ويســألون عن قلعـة (ســيدريك) ، سيد (جورث) و (وامبا) وصـاحب قلعـة Rotherwood. (روذر وود) ، طلبـا للضـيافة ، وخوفا من ريـــح

---

(١) The Structure.

(٢) وهو خـلاصة ماتدور حـوله أحداث الروايـة

ستهب قريبا . ولكن (وامبا) ، أضلهما الطريق . وفي طريقهما وجدا حاجا فقيرا سألاه الطريق ، فأرشدهما ، وكان خبيرا بالممرات والطرق المؤدية إلى القلعة ، كمن يعرفها جيدا ، مما أثار تعجبهما . وعندما وصلا إلى القلعة لم يمانع (سيدريك) ، النبيل السكسوني في استضافتهما مع معيتهما والحاج أيضا .

وفي الليلة نفسها تقود الظروف نفسها ، اسحاق اليهودي والمرابي إلى التعريج على قلعة (سيدريك) السكسوني طلبا للجوء والاحتماء من بطش العاصفة . وفي هذا الخليط العجيب من المتنافرات (النورماندي والسكسوني وفرسان المعبد واليهودي) ، تظهر لنا الصورة بجلاء ، أعراق متباغضة ، وأديان متنافرة ، حيث نجد أن الفارسين النورمانديين هما من فرسان المعبد ومعهما عبدان مسلمان ، من ضمن أفراد المعية . ثم بعد قليل يدخل إسحاق اليهودي ، حاملا معه عرقا ودينا بغيضين كل البغض إلى النفس النصرانية ، وعرقا" بغيضا" الى النفس المسلمة .

كان فرسان المعبد (بريان ، ودوبراسي ، وأيمير) ومعهما العبدان المسلمان ، في طريقهما إلى منطقة (آشبي) *Ashby* لحضور حلقة (آشبي) للمبارزة ، ورمي السهام . أما اسحاق اليهودي فكان قادما من يورك لحضور حلقة (آشبي) أيضا . ولكن حقد فارسي المعبد كان شديدا على اليهودي حيث نجدهما يأمران عبديهما بتتبع اليهودي عندما يخرج من القلعة ويدخل أرض *Front de Boeuf* (فرون دو بو) ليوثقوه ويدفعوا به إلى صاحب القلعة : النورماندي المشهور بحقده ، على كل يهودي ومن بينهم إسحاق هذا . ولكن المسكين لم يكن يعرف ما دار بين (بريان) قائد فرسان المعبد ، وبين عبديه المسلمين ، حيث تكلم معهما بالعربية . أما (الحاج) فقد عرف نيّة فرسان المعبد تجاه اليهودي لمعرفته باللغة العربية . وفي تلك الليلة يذهب متسللا إلى حجرة اليهودي ، ويخبره بما سمع ويطلب منه الرحيل فورا حتى لا ينزل به حكم هؤلاء الأشرار ، ثم يرافقه إلى أن يخرج من أرض النورماندي الشرير ، وذلك بعد أن أيقظ (جورث) خادم (سيدريك) وأمره بفتح باب القلعة لخروجهما . وهنا يحدث أمر يثير جوا من الغموض حول هذه الشخصية ، فهو <u>أولا</u> : يظهر في ثوب حاج فقير ، راجع لتوه ، بعد طول غيبة ، من الأرض المقدسة ، ولكنه يعرف تمام المعرفة الطرق المؤدية إلى قلعة (روزر وود)[1] <u>ثانيا</u> : تجده يهمس في أذن (جورث)

---

(١) *Scott, Sir Walter,* <u>*Ivanhoe*</u> *, P.29.*

خادم سيدريك ، بكلمات تجعل الآخير يقفز متأهبا لطاعته والإذعان لأوامره[1] !! وثالثا : نجده يتحدى فرسان المعبد وخاصة قائدهم (بريان) ببلاء جند الملك ريتشارد ، في ساحة القتال في فلسطين ، وجبن فرسان المعبد ، ويتحدى قائد فرسان المعبد (بريان) بهزيمته أمام أقل جند الملك ذكرا وهو (ايفانهو)![2]

كل هذه الأمور مجتمعة ، تضفي على شخصية (الحاج) جوا من الغموض . وكان إسحاق اليهودي ، بعد نجاته من المأزق - الذي كاد يقع فيه - بفضل (الحاج) ، قد أراد أن يعبر للحاج عن شكره ، عارضا قدرته على مساعدته بمنحه فرسا أصيلة ، ودروعا قوية ، وذلك عندما شعر أن الحاج ماهو إلا فارس نبيل شجاع ، عرف ذلك مَن سلسلة كان يلبسها الحاج تحت عباءته ، تدل على كرم أصله . وقبل الحاج ماعرضه عليه لحاجته إليه .

تعيش في قلعة (سيدريك) النبيل السكسوني ، راوينا (Rawena) سليلة أحد ملوك انجلترا السكسون . وكان (سيدريك) يشرف على تربيتها ويخصها بعناية وكرم فائقين . وكان يجهد نفسه من أجل التقريب بينها وبين (اثيلستين) (Athelstane.) ، وهو أيضا سليل أحد ملوك انجلترا من السكسون . وكان (سيدريك) يسعى من وراء هذا التقريب التوفيق بين (إثيلستين) وربيبته (راونيا) ليجمعهما بالزواج من أجل استرداد ملك آبائهم من السكسون . وعندما أحس سيدريك بميل ابنه Wilfred. المسمى (ايفانهو) نحو (راوبينا) خشي على خطته من الفشل ، فطرده من قلعته . وعندما أمر (سيدريك) ابنه بعدم الانخراط تحت لواء ريتشارد قلب الأسد النورماندي الذاهب إلى الأرض المقدسة ، لم يستمع إليه ولده فكان هذا سببا آخر في حرمانه من الميراث . وهكذا وجدنا أن بغض (سيدريك) النبيل السكسوني الشديد ، للنورمانديين جعله يحقد على أقرب الناس إليه ، وهو ابنه .

هكذا تعرفنا على أصل الموضوع . فكانت الفصول الستة الأولى في الرواية تمهيدا كافيا لأحداث الرواية القادمة .

وقبل أن نصل إلى حلقة (آشبي) حيث يتصارع الفرسان ويتبارى رماة السهام . يقوم المؤلف بتوضيح وضع انجلترا في تلك الفترة من الزمن . فالملك

---

(١) Ibid, P. 67.

(٢) Ibid, PP. 54-55.

ريتشارد قلب الأسد ، أسير دوق النمسا . وهو سجين لا أحد يعرف له طريقا . أما أخوه (جون) فكان يساعد دوق النمسا وملك فرنسا ، على استمرار اعتقال أخيه ، وذلك لرغبته الشديدة في إرضاء طموحاته وأطماعه في انجلترا . فهو شاب مستهتر ماجن محب للهو والعبث تحيط به فئة من القساة الخائنين لملكهم أمثال فرسان المعبد وبعض الإقطاعيين النورماند . وقد كان سكان انجلترا يعانون أشد المعاناة من استهتار ولهو أميرهم (جون) .

ثم ندلف إلى حلقة (آشبي) والاستعدادات المقامة من أجل هذا الاحتفال . في حلقة (آشبي) يتبارى الفرسان ، ورماة السهام من كل الطبقات ويترأس الأمير (جون) هذا الاحتفال برفقة معيته من كبار رجالات الدولة ونبلائها . وفي هذا الاحتفال السنوي ينسى سكان انجلترا كل همومهم وآلامهم ويتوجهون رجالاً ونساءً وأطفالاً ، أغنياء وفقراء .. يتوجهون إلى (آشبي) حيث تقام هذه الاحتفالات وتستمر عدة أيام . ويسهب المؤلف في وصف هذا الاحتفال ومباراة الفرسان والرماة . وتعتبر حلقة (آشبي) مركز اتصال الأبطال ، أي أبطال الرواية وأهم شخصياتها .

وإلى حلقة (آشبي) يتوجه الأمير (جون) ومعيته ونبلاء الدولة وفرسانها ، ويتوجه كذلك (سيدريك) و (راوينا) ربيبته ، بعد أن ألح عليهما فرسان المعبد . ويتوجه معهما من الخدم (وامبا) و (جورث) . وكذلك نجد إسحاق اليهودي متوجها برفقة ابنته (ربيكا) الجميلة .. وفي هذا المكان تجتمع كل شخصيات الرواية ، وتدور أهم أحداثها . وقبل أن تبدأ المباراة ، في اليوم المحدد ، يشير رئيس الحفل الأمير (جون) إلى ضرورة اختيار (ملكة جمال حلقة آشبي) ، ويقع اختياره على (ربيكا) ابنة إسحاق اليهودي وذلك قصدا منه وإمعانا في الإساءة إلى (سيدريك) السكسوني وربيبته (راوينا) ، وتحقيرا لشأنهما . ولكن كان لـ (دوبراسي) ، أحد فرسان المعبد ، رأي في هذا الموضوع ، وهو : أن يجعل الفارس المنتصر يختار بنفسه في نهاية الحفل (ملكة جمال الحلقة) . ووافق الأمير (جون) على هذا الاقتراح .

وتبدأ المباراة . ويبرز الفرسان الشجعان . ويظهر كل فارس كل مايملك من قوة وبسالة . ويفوز (بريان) قائد فرسان المعبد . ويتكرر فوزه ، في جولات أربع ، حتى يمل المشاهدون من تكرار مشاهد انتصاره ولكن قبل نهاية اليوم ، ونهاية الجولات يبرز في الأفق فارس

مغـــــوار ، تقـدم إلى وسـط المـيدان وتحـدى الفـارس المنتصـر • وهنا يتجـدد نشـاط المشـاهدين • ويبـدأون في تشـجيع الفـارس الجديد ، الذي أطلق على نفسه لقب (الفـارس المحـروم من المـيراث) ، ورفض أن يكشف اللثـام عن وجهـه • وقـد أدهـش هـذا الفـارس جميع الحضور بشجـاعته وقوتـه في الميـدان ثم لانتصـاره على جميع الفرسـان بمن فيهـم (بريـان) قـائـد فرسـان المعـبد ، وطرحـه على الأرض • وبذلك اختـتم الحـفل ، بانتصـار الفـارس المحروم • وعندما طـلب منـه أن يختـار ملكة جـمال للحـفل ، وقـع اختـياره على (راونيـا) ربيبـة (سـيدريك) السكسوني الأمـر الذي أشعـل في نفس الأمـير (جـون) ومستشـاره الخـاص (*Waldemar*)والدمـير الغـضب • وبعـد انتصـار الفـارس المحروم في اليـوم الأول للحـفل ، كـان – لزامـا على جميع الفرسـان ، أن يسـلموا لـه خـيولهم ودروعهـم ، أو يعطـوا الفـارس المنتصـر فدية عنهـا • وقبل الفـارس المحروم (الفديـة) من الفرسـان الأربعـة ولم يقبلهـا من الفـارس الخـامس وهـو (بريـان) ، بل جعـل الصـراع بينـه وبـين الأخـير مسـتمرا إلى أن يقضـي أحدهـما على الآخـر • وهنا يتسـاءل القـارىء لمـاذا يتصـرف الفـارس المحروم هـذا التصـرف؟! ولمـاذا أطلق على نفسـه لقب الفـارس المحـروم؟ ولمـاذا رفض التصـريح باسـمه ؟ •

هـذه الأسئلة يجيب على شيء منهـا المؤلف حين يجمعنـا بالفـارس المحـروم وخـادمه (جـورث) راعي خنـازير (سـيدريك) السـكسوني • يطلب الفـارس المحروم من (جـورث) الذي تخفى هـو الآخـر في زي غـير زيـه المعـروف يطـلب منـه أن يأخـذ ثمانـين من القطع الذهـبية لإسحـاق اليهـودي ، ويدله على مسكنه في (آشبي) وذلك ثمنـا للخيل والدروع التى استعـارهـا من صاحـبه • هنـا نعرف أن الفـارس المحروم ماهـو إلا ذلك الحـاج الفقـير الذي التقينـا بـه في بدايـة الروايـة والذي سـاعد إسحـاق اليهـودي على الهـرب وأنقـذ حـياته من موت محـقق • وتأخذ الأحـداث صفة الصعـود نحـو القمـة ، فبعـد أن سلم (جـورث) النقـود لصاحبها ، وقبـل خـروجه ، تناديـه (ربيكـا) ابنـة اليهـودي إسحـاق ، وترد إليـه النقـود (الثمـانين قطعـة) ليعيدهـا إلى سـيده ، وذلك اعترافـا منهـا بجميل سيده نحوهـا ونحـو والدهـا العجـوز ، يوم أن سـاعده على الهـرب • وأثنـاء عـودة (جـورث) إلى سـيده تتعـرض له عصـابة يقودهـا زعـيم ، أطلق على نفسه اسـم (لوكسـلي[1]) وهـي عصـابة من السكسـون الثـائرين الخـارجين على القـانـون • وقـد أراد زعـيم العصـابة معـرفة سـر الفـارس المحـروم •

---

(١) عرفنـا بعد ذلك أن (لوكسـلي) هـذا هـو (روبن هـود)

وفي اليوم التالي ، حيث تعاد المباراة ، ليبرز صفوة المتبارين ، دخل أيضا الفارس المحروم ضد فرسان المعبد الخمسة الذين بارزهم في اليوم السابق وانضم إليهم (اثيليستين) خاطب (راوينا) الرسمي ، مدفوعا بعاطفة الغيرة ضد الفارس المحروم ، الذي سيأخذ منه خطيبته ، باختياره لها ملكة جمال الحلقة . وقد أظهر الفرسان الستة بسالة وقوة ، ولكن الفارس المحروم تفوق عليهم . وعندما لاح لهم انتصاره اتفق اثنان منهم على ضربه ضربة قاضية بينما هو مشغول بمبارزة ثالث ، وأثناء محاولتهم القضاء على الفارس المحروم ، ظهر في الميدان فارس لف نفسه في رداء أسود ، وانقض على الخائنين وهما (إيثليستين) و (فرون دوبو) وأنقذ بذلك الفارس المحروم ، الذي استمر في صراعه مع (بريان) قائد الفرقة حتى أطاح به من فوق فرسه ، وعند ذلك أشار الأمير (جون) بإنهاء المباراة . ونودي بالفارس الأسود فائزا في تلك المباراه ، ولكن الفارس الأسود كان قد توارى عن الأنظار ولم يدر أحد أين اختفى ، عندها لم يبق سوى الفارس المحروم ليعلن عنه أنه الفائز المنتصر في حلقة (آشبي) ، وطلب منه التقدم لاستلام جائزته الكبرى من ملكة جمال الحلقة . وعندما تقدم لتضع ملكة جمال الحلقة على رأسه تاج الانتصار ، صاح الجمهور : يجب أن يخلع خوذته ! يجب أن يخلع خوذته !! وعندها لم يجد الفارس المحروم بداً من الإذعان لطلب الجمهور ورفع خوزته ليظهر تحتها وجه (إيفانهو) أو (ويلفرد) ابن (سيدريك) النبيل السكسوني وعاشق (راوينا) . هنا وضعت (راوينا) تاج النصر على رأسه وهمهمت بكلمات ، فقبل الفارس يدها ، ثم شوهد وهو يترنح و سقط تحت أقدامها فاقد الوعي . وقد وجد بعد خلع درعه أنه مصاب بجرح بليغ .

ومع ظهور (إيفانهو) ظهر الرعب والقلق في أعين وقلوب الأمير (جون) وحاشيته . (فايفانهو) كان مرافقا للملك ريتشارد ، وظهوره يعني خطرا على كل خائن للملك ريتشارد . لذلك جعل الأمير (جون) يتخبط طالبا النصح والمشورة من أحلافه وحاشيته .

وقد حمل (ايفانهو) اثنان لا أحد يدري إلى أين ، ولا من حمله ، أما والده فقد منعه كبرياؤه من أداء واجبه نحو ابنه ، ونجده إضافة إلى ذلك يتوعد (جورث) ، الذي ترك خدمته ولحق بـ (إيفانهو) .

وقبل أن تنتهي المباراة ، يتقدم رجل إلى منصة الأمير (جون) ليسلمه ورقة كتب فيها : (لقد خرج الشيطان من قمقمه ، إنتبه لنفسك)

هذه الرسالة زادت من قلق الأمير (جون) • إذ ليس لها إلا تفسير واحد وهو خروج الملك ريتشارد من سجنه •

وكان من شدة سخط الأمير (جون) على السكسون ، خاصة بعد فوز (ايفانهو) الفارس السكسوني على الفرسان النورماند ، أن شجع أحد فرسان المعبد (دوبراسي) على الزواج من (راوينا) لامتلاك أراضيها واقطاعياتها ، لتكون أراضي واقطاعيات نورماندية • ولم يخيب (دوبراسي) ظن سيده فقد بادر من فوره في رسم خطة تجعله يفوز بالنبيلة (راوينا) •

وهكذا تتعقد الأحداث وتتشابك • ف (ايفانهو) هو حليف الملك ريتشارد وهو عدو قائد فرسان المعبد اللدود ، وهو الابن المحروم من الميراث والذي طرده والده من قلعته ، وتبرأ منه ، وهو عاشق (راوينا) • يعود مرة أخرى ليواجه الأمير (جون) الذي خان أخاه الملك ريتشارد ويواجه (فرون دوبو) الذي استولى على أراضيه وإقطاعياته ، بأمر من الأمير (جون) ويواجه (اثيلستين) الخاطب الرسمي للنبيلة السكسونية (راوينا) ، ويواجه أباه الذي تبرأ منه ولم يره منذ سنين •• وهكذا نجد مشاعر هؤلاء وأفكارهم منصبة على هذه الشخصية ، كل منهم يريد التخلص منه لسبب خاص • أما هو فيأخذه اليهودي إسحاق إلى منزله بعد أن تقنعه ابنته (ربيكا) ، بضرورة ذلك لمعالجته من الجرح العميق الذي أصابه • ويحمل (ايفانهو) إلى منزل اليهودي إسحاق في (آشبي) لإسعافه بسرعة ، ومن ثم يتوجهان ومعهما المريض إلى (يورك) • وقد استأجرا لهذه المهمة ، إثنين من المرتزقة لمرافقتهما في رحلة السفر وحمايتهما ، ولكن الرجلين تخليا عن مستأجريهما ، في منتصف الطريق بعد أن أخذا معهما الخيول ، وتركا العجوز وابنته والمريض في وسط الطريق • ولحسن الحظ يلتقي العجوز وابنته بركب النبيل (سيدريك) عائدا إلى (روذر رود) بعد حضور الحفل • وبعد كثير من التوسل من قبل اليهودي وابنته يقبل ركب (سيدريك) رفقة اليهودي وابنته ومريضهما دون أن يعرفوا المريض •

ولكن في طريق الركب وبعد لحظات من انضمام اليهودي وابنته والمريض ، تنقض جماعة على الركب ، وتقود جميع أفراده إلى قلعة (فرون دوبو) النورماندي • وهناك نعرف القصة • حيث نجدها خطة شريرة رتبها (دوبراسي) و (بريان) و (فرون دوبو) من أجل أن يحقق كل واحد منهم غرضه • ف (دوبراسي) ، يريد أن يحقق الحلم الذي طمعه فيه الأمير

(جون) وهو : الزواج من (راوينا) وامتلاك اقطاعياتها . و (بريان) قائد فرسان المعبد ، يود أن يستمتع ب (ربيكا) الجميلة . أما (فرون دوبو) فينتقم من اليهودي إسحاق شر انتقام ، وهي فرصة طالما حلم بها .

ويتم لهذه الفئة الشريرة ، تحقيق ما أرادوا . فقد انفرد كل واحد منهم بفريسته ينهش فيها . ولكن ما استطاع أحدهم تحقيق حلمه كما أراد . وذلك بتمكن (جورث) و (وامبا) من الإفلات من العصابة والالتقاء ب (لوكسلي) زعيم الخارجين على القانون للاستعانة به ضد أولئك الخائنين واتحد الجميع على مقاومة هؤلاء الخونة ، ومهاجمتهم وإنقاذ أفراد الركب .

أما الفارس الأسود الذي أنقذ الفارس المحروم في ميدان حلقة (آشبي) من غدر (اثيليستين) و (فرون دوبو) فقد مضى إلى سبيله عبر الغابات ، حيث وجد كوخا ، فيه أحد النساك ، واكتشف بعد ذلك أن هذا الناسك ، ما هو إلا أحد أعضاء عصابة (لوكسلي) . وعندما دعى (لوكسلي) الناسك وضيفه للمشاركة في إنقاذ ركب (سيدريك) ، لم يمانعا أبدا . وهكذا تتعقد الأحداث فأصبح يختبيء في قلعة (فرون دوبو) أولئك الفرسان الخائنون لمليكهم ولشعبهم ولدينهم وهم : (بريان) و (دوبراسي) و (فرون دوبو) يعتقلون أفراد ركب (سيدريك) المكون من : النبيل السكسوني (سيدريك) وربيبته (راوينا) وخطيبها الرسمي (اثيلستين) إضافة إلى إسحاق اليهودي وابنته (ربيكا) مع مريضها الذي وضعاه داخل هودج خاص .

وبالمقابل نجد (جورث) و (وامبا) اللذين أقسما على إنقاذ سيدهما (سيدريك) وانضم إليهما (لوكسلي) زعيم عصابة الخارجين على القانون ، وجميع أفراد عصابته إضافة إلى ناسك كومبان هورست وضيفه الفارس الأسود ، هؤلاء يقفون ويستعدون لإنقاذ الرهائن والأسرى ، في قلعة (فرون دوبو) النورماندي .

أما في منطقة (يورك) ، فيستعد الأمير (جون) ومستشاره الخاص (والدمير) للقاء الملك ريتشارد والقضاء عليه .

وبعد حصار (لوكسلي) وجماعته لقلعة (فرون دوبو) استطاع (وامبا) بحيلة ماكرة إنقاذ سيده (سيدريك) السكسوني من أيدي الخاطفين النورماند . وخرج (سيدريك) من القلعة دون أن يعرف أن المريض هو ابنه .

وفي القلعة يعرف (سيدريك) أن (الريكا) (Ulrica,)[1] ابنة صديقه الحميم والتي تزوجت من (فرون دوبو) قاتل أبيها وأخيها وأبيه أيضا ، أنها على قيد الحياة . فتعرض عليه مساعدتها للتخلص من (فرون دوبو) وأعوانه . وظل (فرون دوبو) وأعوانه محاصرين في القلعة في يأس شديد من المعونة ، عقب تمكن (سيدريك) من الخروج .

ويستمر الموقف في تعقده ، وتستمر الأحداث في تصاعدها نحو الذروة . حيث تكشف الأحداث عن حقيقة فرسان المعبد . فنرى (دوبراسي) و (بريان) وهما من أشهر فرسان المعبد يتحركان تدفعهما شهوتهما . ف (دوبراسي) يقوم بهذا العمل الشائن مدفوعا بحبه لملذات الحياة الدنيوية (المال والنساء) و (بريان) قائد فرسان المعبد يتحرك ضمن الاطار نفسه مدفوعا بذات الدوافع الدنيوية . فكأن الكاتب[2] ، قد قام بتعرية هؤلاء الفرسان بالكشف عن حقيقة مافي ضمائرهم وما تنتطوي عليه نفوسهم .

ولكن الفضائل دائما هي المنتصرة والثابتة أمام كل المغريات . فـ(راوينا) واليهودية (ربيكا) تمثلان غاية ماتنتطوي عليه معاني العفة والشرف والثبات على الفضائل . ففي كل المواقف،تبرز هاتان الشخصيتان ، لتثبتا خيانة هؤلاء الفرسان لملكهم وشعبهم ودينهم .

وفي النهاية يتمكن (لوكسلي) وجماعته من دخول القلعة واقتحامها بمساعدة (الريكا) تلك العجوز الشمطاء بعد أن أعطت الجماعة المهاجمة ، الإشارة للبدء في الهجوم . فأحرقت هي بنفسها (فرون دوبو) بعد أن جرح جروحا بالغة . وبالتالي أحرقت القلعة . وهرب (بريان) بعد أن حمل معه فريسته (ربيكا) المسكينة . أما (دوابراسي) فقد وقع في أسر الفارس الأسود الذي أثار تساؤلات القارىء بلباسه الأسود ، وإذعان (دوبراسي) له ، حين همس في أذنه بكلمات غير مسموعة !! إنه الآخر من ضمن الشخصيات الغامضة التي تتكشف لنا شيئا فشيئا . أما (راوينا) و (ايفانهو) و (إسحاق) و (الناسك) فقد أنقذوا جميعا . وبقيت

---

(١) كان (بريان) قائد فرسان المعبد يحب (الريكا) العجوز الشمطاء عندما كانت شابة . وقد خطبها للزواج بها . ثم ذهب إلى الأرض المقدسة . وعندما عاد وجدها قد تزوجت من عدو والدها وقاتله ، الأمر الذي جعله يكره جميع النساء ، فانضم إلى فرسان المعبد ليبعد عن ذهنه مجرد التفكير في الزواج .

(٢) *Scott.*, *Ivanhoe.* *Ch.* 21-24.

العجوز الشمطاء التي سقطت كتلة سوداء محترقة ٠

وهكذا خرج (لوكسلي) وجماعته بغنائم كثيرة قام هو بتوزيعها بنفسه على رجاله كلٌ حسب بلائه . أما الفارس الأسود فلم يطلب من الغنائم شيئا سوى : إعطائه الحق في إطلاق سراح (دوبراسي) ٠ وأطلق سراح (دوبراسي) ٠ أما (جورث) فقد منحه سيده الحرية جزاء بلائه لإنقاذه ٠ وبقي (وامبا) ، فقد رافق الفارس الأسود في طريقه للاطمئنان على (ايفانهو) الذي حمل إلى أحد الأديرة ليشرف على راحته ، أحد الكهان ٠٠٠٠ ولم يجد (لوكسلي) مايعبر به عن تقديره للفارس الأسود سوى بوق قدمه هدية ، ينفخ فيه الفارس الأسود ثلاث نفخات إذا وقع في مأزق فيجد (لوكسلي) وأفراد عصابته في مساعدته ٠ وهكذا مضى كل إلى سبيله ٠

أما (دوبراسي) فقد أسرع بالذهاب إلى (يورك) حيث قابل الأمير (جون) و (والدمير) وأخبرهما بأنه رأى الملك ريتشارد ٠ وهكذا عرفنا أن الفارس الأسود ماهو إلا الملك ريتشارد نفسه ، هذا الأمر زاد الأمير (جون) قلقا واضطرابا ، وتحمل (والدمير) التبعة ، وقرر التخلص من الملك بنفسه ارضاءًا لسيده ٠

وبعد أن اطمأن الفارس الأسود على صديقه (ايفانهو) طالبا منه أن يلزم فراشه للراحة ، ذهب برفقة (وامبا) للإعداد لمواجهة الخونة ٠ وفي الطريق قام (وامبا) بتسلية الفارس الأسود ، بحركاته الخرقاء وعندما تأكد (وامبا) من أن سيده يستنكف أن يستخدم البوق طلبا للمساعدة ، حتى لو وقع في مأزق ، طلب منه البوق ليراه ، ثم علقه في رقبته ، وبعد ذلك أطلق ثلاث نفخات مما أثار غيظ الفارس الأسود ٠ ولكن (وامبا) الأخرق قام بهذا العمل حين لمح من بعيد بين الأشجار ، أشباحا تراقبهما فأدرك أنه فخ ٠ وهذا ماحصل ٠ حيث كان (والدمير) مستشار الأمير (جون) وذراعه الأيمن قد أقام كمينا للتخلص من الملك ريتشارد بنفسه كما توعد ٠

ولكن الكاتب أظهر الملك ريتشارد كريما حليما لم يحمل على (والدمير) بل أطلق سراحة طالبا منه مغادرة الجزيرة في أقل من ثلاثة أيام٠

أما اليهودي وابنته (ربيكا) ــ التي وقعت أسيرة قائد فرسان المعبد (بريان) ، وانطلق بها إلى مكان مجهول ــ فبعد أن انتهت المعركة بين رجال (لوكسلي) ورجال (فرون دوبو) بانتصار الأول ٠ وهرب من هرب من

رجال الثاني وقتل من قتل من أعوانه، وقع (أيمير) Aymar. ، فارس المعبد مع (دوبراسي) أسيرين في أيدي (لوكسلي) وأطلق سراح (دوبراسي) بطلب من الفارس الأسود، أما (أيمير) فقد طلب منه فدية كما طلبت من اليهودي إسحاق . وعندما علم الجميع باختفاء (ربيكا) وهروب (بريان) بها، شعروا بالألم لحزن والدها . فاقترح (لوكسلي) أن يتوسط (أيمير) لإنقاذ (ربيكا)، مقابل تخفيف مبلغ الفدية . وبعد تردد وافق فارس المعبد أن يكتب لاسحاق رقعة يوصلها إلى (بريان) يطلب فيها الأول، إطلاق سراح (ربيكا) . ويأخذ اسحاق الرقعة، ليذهب بها إلى المعبد – وفي طريقه كان التعب قد أخذ منه كل مأخذ – عرج على بيت صديق له وبات عنده ليلته . ثم أخبره بوجهته . فنصحه بعدم الذهاب وذلك لحضور السيد العظيم[١] وهو المعروف بحقده على كل مسلم ويهودي، وعدم تورعه عن سفك دماء أي منهما لأتفه الأسباب . ولكن الأب كان ولها على ابنته، وحياتها . فلم يستمع إلى نصح صديقه . وتوجه إلى المعبد بعد أن أخذ قسطا يسيرا من الراحة ثم قابل السيد العظيم، وشرح له قصته . وأعطاه الرقعة التي كتبها فارس المعبد (أيمير) تحت طلبه . وقرأها فوجد بعض عبارات تتهم فيها (ربيكا) بالسحر . حيث كان معروفا في ذلك الوقت أن أي يهودي يجيد مهنة الطب يتهم بالسحر . وقد ثبتت على (ربيكا) هذه التهمة، عندما أراد أحد العامة أن يبرئها فذكر أنها قد طبته من مرض ألم به كاد يودي بحياته، وهو لهذا مدين لها بحياته[٢]. ولكن هذا الاعتراف بالجميل من قبل هذا الرجل، كان ضدها فزاد إحساس السيد العظيم بمزاولتها مهنة السحر، التي أوقعت قائد فرسان المعبد (بريان) في حبالها، وجعلته يعشقها، بالرغم من حقارة أصلها، ودينها – على زعمهم – وأكد ذلك اثنان من شهود الزور، استأجرهما أحد فرسان المعبد[٣] لإنقاذ (بريان) صديقه من الخزي والعار . لذلك وتحت هذه الأدلة المفتعلة، قرر السيد العظيم سفك دم (ربيكا) . ولكن أحد فرسان المعبد أشار إلى السيد العظيم، باللجوء إلى عقد جلسة محاكمة تحاكم فيها (ربيكا) على ما اقترفته . ووافق السيد العظيم على ذلك . وأخبر والد (ربيكا) بهذا الأمر . وطرده من المعبد شر طردة . فعاد إسحاق إلى صديقه وهو مهموم حزين يبكي . أما ابنته فقد عرف مكانها .

---

(١) *Grand Master: Lucas Beaumanoir.*

(٢) *Higg.* (٣) *Malvoisin.*

وكان (بريان) قد وضعها في إحدى غرف المعبد بالتآمر مع أحد أصدقائه من فرسان المعبد ٠

وعندما عقدت جلسة المحاكمة ، وكان (بريان) قد وقع فعلا في هوى (ربيكا) اليهودية ، وحاول معها بكل الطرق أن تشاطره هواه ، ولكنها كانت عفيفة رابطة الجأش ماخافت تهديده ولا وعيده ٠ إنما اكتفت بالتوسل إلى الله أن ينقذها منه ، وعندما طلب محاكمتها أدركت أن رحمة الله آتية وزاد ذلك (بريان) تعلقا بها ٠

وبعد المحاكمة وإدلاء شهود الزور بأقوالهم واعتراف ذلك الرجل الطيب بجميل (ربيكا) في مداواته ، وتعلق (بريان) الشديد بها إلى الدرجة التي نسي فيها مركزه الديني والإجتماعي ، وإثبات تلقيها علم الطب ، عن إحدى قريباتها (مريم) اليهودية ، وأن تلك المرأة كانت معروفة بمزاولتها السحر ـ كل هذه الأدلة كبلت (ربيكا) وأوقعتها في دائرة القصاص ٠ وطلب منها أن تنفي التهمة ، ولكنها طلبت حكم الله ٠ هو طلب لا ترفضه الكنيسة ٠ وطلبت فارسا من طرف (بريان) يقارع فارسا يدافع عنها ٠ ووافق الجميع على طلبها ٠ ووقع الاختيار على (بريان) نفسه ، ليدافع عن نفسه وقضيته ويثبت حكم الله ٠ وأرسلت (ربيكا) إلى (ايفانهو) ليدافع عنها ٠

وبينما كان (ايفانهو) برفقة الفارس الأسود ، في قلعة النبيل (اثيلستين) الذي اعتقد أنه قتل في المعركة بين رجال (لوكسلي) ورجال (فرون دوبو) ـ سابقا ـ وذلك لحضور الاحتفال المقام كمراسيم لجنازة القتيل ٠ وكان (سيدريك) قد وفى بوعده للفارس الأسود الذي طلب : إعترافه بابنه (ايفانهو) ، وقبول تزويجه من (روانيا) التي يحبها ابنه ٠ ولكن لدهشة الجميع يظهر (اثيلستين) الذي اعتقد بأنه قتل ٠ ووافق هو الآخر على تزويج (روانيا) لـ (ايفانهو) بعد أن أعلن للجميع تخليه عنها ٠ لأنه لا يصلح لها ، ولا يصلح للمهمة التى كان يحلم بها (سيدريك) من وراء تزويجه بها ٠٠ وفي هذه الأثناء يختفي (ايفانهو) ثم يختفي على اثره الفارس الأسود ، وقد علم الحضور أن يهوديا قدم إلى (ايفانهو) يحمل رسالة فقرأها الأخير ثم لم يلبث أن غادر المكان ، ولما عرف الفارس الأسود بذلك ، تبع اليهودي الذي أبطأ في المغادرة وأسرعا معا

في تتبع أثر (ايفانهو) . الذي اتجه إلى المكان المعد للمبارزة لاثبات حكم الله .

ودارت المبارزة بين الفارسين ، (ايفانهو) عن (ربيكا) و (بريان) عن نفسه ، وبعد جولة سريعة وقصيرة ، سقط (بريان) صريعا برمح (ايفانهو) . وثبت حكم الله على (بريان) الذي استحق الموت بسبب خيانته للملك وجنوده ، وخيانته لدينه برغبته في الارتباط باليهودية ، وخيانته لرسالته بتعذيبه إمرأة ومحاولة إجبارها على فعل ما تكرهه وتعف عنه . وهكذا يكون (ايفانهو) قد وفى بتحديه في مواجهة (بريان) وقتله . وكان (ايفانهو) بقتله لقائد فرسان المعبد ، قد فوّت على الملك ريتشارد (الفارس الأسود) فرصة الانتقام لنفسه من (بريان) الخائن .

وهكذا وصلت أحداث رواية ايفانهو إلى النهاية حيث نال كل واحد جزاءه . ف (ايفانهو) عاد إلى والده ونال رضاه ، وتزوج من (راوينا) التي يحبها . و (بريبان) نال عقاب خيانته لمليكة ووطنه ودينه فقتل ، و (دوبراسي) ، هرب بنفسه إلى فرنسا وانضم إلى فرسان الملك (فيليب) و (والدمير) نُفي خارج البلاد ، و (فرون دوبو) قُتل . والفارس الأسود (الملك رتشارد) تخلص من هؤلاء جميعا وسامح أخاه (جون) على مافعله وعاد إلى عرشه . أما (ربيكا) فقد جاءت صبيحة زواج (ايفانهو) إلى زوجته (راوينا) وهنأتها على الزواج ، وأخبرتها بمغادرتها هي ووالدها إلى غرناطة حيث يحكم المسلمون ، ويمنحون اليهود حريتهم الدينية والاجتماعية لقاء دفعهم الجزية المقررة ، وهو أمر أكرم لهم مائة مرة من العيش في ظل النصارى القساة . ثم قدمت للعروس هدية ثمينة وغادرت .

وهكذا نجد المؤلف قد وضع حلا للموضوع الأول : حيث نراه يجعل : (سيدريك) يدعو جميع النبلاء من النورمانديين والسكسونيين إلى حفل زواج ابنه ويجتمعون في سرور ومودة وهي إشارة إلى اختلاط العرق السكسوني والنورماندي ولسانيهما ليولدا الإنجليزية الحديثة التي تذوب فيها الألسن وتختفي الأعراق .

أما الموضوع الثاني : وهو موقف النصارى من اليهود ، فبقى

دون حل . حيث ارتضت (ربيكا) ووالدها ، الذهاب إلى غرناطه ليعيشا في كنف المسلمين ، باعتبار أن المسلمين يتقيدون بالعدل في معاملة الذميين .

وفي مغادرة ربيكا ووالدها أرض انجلترا إشارة إلى تأصل العداء القائم بين اليهودية والنصرانية وعدم اجتماعهما في ود وصفاء داخل انجلترا .

وهكذا وجدنا مقدمة أحداث الرواية تحتل الفصول الستة الأولى ليشغل الصراع ثلثي الرواية وتصل الأحداث ذروتها حين يقوم (دوبراسي) و (بريان) و (فرون دوبو) ، بإلقاء القبض على أفراد ركب (سيدريك) وسجنهم ، ويزداد التعقيد ، وتسير الأحداث في خط متعرج ، في ارتفاع وانخفاض . إلى أن نصل إلى ذروة أخرى للأحداث الرئيسه ، حيث يحكم على (ربيكا) بالموت ، ويأتي (ايفانهو) على فرسه في آخر لحظة فينقذها ، ويفي بتحديه لقائد فرسان المعبد ، ويقتله .

أما النهاية فهي النهاية التقليدية المعروفة ، حيث يكون الجزاء من جنس العمل . فالخير ينتصر ، ويكرم أهله ، والشر يهزم ويعاقب فاعلوه ، وهي نهايات عرفتها روايات السير ولتر سكوت بعامة .

(٣) **الشخصيات** :

إن الشخصيات في رواية ايفانهو من النوع الذي يطلق عليه النقاد (نماذج)[1] أي تمثل نوعاً معيناً من مجموعة صفات . وأمامنا في رواية (ايفانهو) نوعان من الشخصيات : النوع الأول : فرسان المعبد النورماند ، الذين يستمدون قوتهم من الكنيسة وهم في الوقت نفسه ، منخرطون في سلك الدفاع عن كل مايمس الدين النصراني . هؤلاء أجمل لهم المؤلف صفاتٍ تكاد تميزهم ، فهم مجموعة من الفرسان النورمانديين الذين لايطابق ظاهرهم باطنهم ، وهم لا يتورعون عن خيانة شعبهم ومليكهم ووطنهم ودينهم ، في سبيل تحقيق شهواتهم وطموحاتهم ، يعيثون في الأرض فساداً . وهم : (بريان) قائد فرسان المعبد ، و (دوبراسي) و (أيمير) و (والدمير) و (مالفوزان) إضافة الى نبلاء النومانديين مثل (فرون دوبو) .

ثاني أنواع الشخصيات : جنود الملك رتشارد وأنصاره من الرجال الفرسان الصامدين الشرفاء المدافعين - حقيقة - عن بيت المقدس ، والذين يمثلون النموذج الأمثل للفروسة في ذلك الوقت وهم (ايفانهو) و (لوكسلي) أو روبن هود . أما شخصية اليهودي وابنته فهي من الشخصيات التي أزكت نار الصراع في الرواية وأعطت للأحداث قوة وإثارة ، وساهمت في إدخال عنصر جديد مهم في الرواية ، لكي يتمكن المؤلف من تغطية تلك الفترة التاريخية ، من نواحيها الإجتماعية والسياسية والدينية أيضاً .

وهكذا نجد أن الشخصيات انقسمت إلى فرق وأحزاب . فكما انقسم الصراع بين عرق النورمانديين والسكسون ، انقسمت الشخصيات إلى أنواع لتقدم نماذج للفرسان في ذلك الوقت . ولم يكن هدف السير ولتر سكوت تقديم أنواع من الطبائع البشرية ، إنما انصب هدفه على أنواع معينة محددة من الفرسان . لذا كانت شخصياته تنتمي إلى مايسمى بـ (النماذج) .

وعلى هذا الأساس ، فإنا لن نجد صفاتٍ معينة تميز شخصية عن أخرى في النوع الواحد من الشخصيات . لأن جميع شخصيات النوع الواحد

---

(١) *Types.*

تجمعها صفات واحدة محدده ، تخالف بها شخصيات النوع الثاني ٠

وحيث كان الصراع في الرواية قائما أساسا بين النورمانديين الغاصبين والسكسون ، سكان البلد الأصليين ٠ انقسمت الشخصيات لتكون نوعين هما النورمانديون يمثلهم فرسان المعبد ونبلاؤهم ٠ والسكسون ويمثلهم (ايفانهو) و (سيدريك) و (جورث) و (وامبا و (لوكسلي) و (راوينا) إضافة إلى ناسك كومبان هورست ٠

أما الفارس الأسود أو الملك (ريتشارد) فبالرغم من أنه من النورمانديين إلا أنه ينتمي بصفاته إلى النوع الثاني من الشخصيات ٠ فبأخذه عنصرا من كل نوع ، جعله الكاتب الوسيلة لجمع النوعين والعرقين ٠

ونجد شخصية اسحاق اليهودي من نوع الـ (النماذج) أيضا ، حيث يعتبر نموذجا لكل اليهود في ذلك العصر ٠ يتميز ببخله الشديد ، وعدم تورعه عن إهلاك نفسه ، وتحقيرها من أجل الحفاظ على ذهبه وماله ٠ ولكنّ ابنته كانت مثالا للراقيات من النساء اليهود اللاتي يتعلمن مهنة الطب ، لاستخدامها في تطبيب كل من له حاجة إليها ، وهي عفيفة محافظة على دينها وشرفها ٠

وعن طريقة المؤلف في طرح الشخصيات ، فنجد أن من الشخصيات الرئيسة في العمل الأدبي (ايفانهو) و (الفارس الأسود) و (بريان) ، و(ربيكا) و (سيدريك) و (الأمير (جون) ، ٠٠٠ أما بقيه الشخصيات فتتساوى في الأهمية من جهة دفع الأحداث إلى الأمام ٠ ويعد (ايفانهو) بطلا لأحداث الرواية ومحور الصراع فيها ٠

وسنفصل القول في أربع من أهم شخصيات الرواية :
(ايفانهو) ، (بريان) ، (ربيكا) ، (قلب الأسد ،الملك ريتشارد)
بوصفهم أطرافا أساسية في المحاور المختلفة للصراع في الرواية :-

ايفانهو :

اختار المؤلف بالنسبة لهذه الشخصية طريقة تقليدية في الظهور ٠ فبعد أن أشار إشارات كثيرة ، عن ابن النبيل السكسوني (سيدريك) المسمى

---

(١) الملك ريتشارد

(ويلفرد) أو (ايفانهو) ، الغائب ، الذي غادر المنطقة قبل سنوات برفقة الملك رتشارد قلب الأسد ، إلى فلسطين والمحروم من الميراث ، لهذا السبب ، حيث عصى أمر والده الذي حاول منعه من مرافقة هذا الملك النورماندي . والمطرود من القلعة بسبب تعلقه بالنبيلة السكسونية سليلة أحد ملوك السكسون : (راوينا) ، والتي كان والده يبغي تزويجها من (اثيليستين) — سليل أحد ملوك السكسون — من أجل إعادة مجد السكسون . فعندما علم بتعلق ابنه ب (راوينا) طرده من القلعة حتى لايفوّت على نفسه الفرصة ولا يحرمها من حلم طالما منى نفسه بتحقيقه[1] .

وبعد تلك المقدمة ، نلتقي بالحاج الفقير ، العائد لتوه من أرض فلسطين . يلقي المؤلف عليه حجابا من الغموض . فهو عائد لتوه من فلسطين بعد غياب طويل ، وهو يعرف تمام المعرفة جميع الطرق المؤدية إلى قلعة (روذر وود) ثم هو يعرف الملك ريتشارد ورجاله ، ويتحدى فرسان المعبد ، وخاصة قائدهم ، أن يهزمه أقل رجال الملك ريتشارد معرفة بالفروسية واسمه (ايفانهو) ، بعد أن يثبت تخاذل فرسان المعبد في ساحة القتال . وأخيرا هو يتسلل إلى حجرة اليهودي اسحاق ويخبره بما أمر به ، (بريان) قائد فرسان المعبد ، عبديه باللغة العربية . وينصحه بمغادرة القلعة قبل طلوع النهار حتى لا يقع فريسة جبروت النورماندي (فرون دوبو) وأعوانه من فرسان المعبد! .. فمن يكون هذا الشخص؟ من يكون هذا الفارس خاصة بعد أن اكتشف اليهودي فروسيته وأصله النبيل من سلسلة تدلت من عنقه تحت العباءة؟! .

إذن نحن أمام شخصية يكتنفها الغموض . وأمام لغز يحتاج إلى حل . ومفتاح هذا اللغز هو : تحدي الحاج لقائد فرسان المعبد أمام الجميع ، أن ينازله فارس اسمه (ايفانهو) وينتصر عليه . أو يقتله إثباتا لشجاعة جنود الملك وتفوقهم في ساحة القتال[2] .

ثم بعد ذلك نلتقي بفارس شجاع يقهر (بريان) قائد فرسان المعبد ومعه أربعة من أعوانه في حلقة (آشبي) . لقد جاء هذا

---

(١) *Scott., Ivanhoe, Ch.1-2.*

(٢) *Ibid., Ch. 5.*

الفارس مسرعا على فرس أصيلة ، ويحصن نفسة بدروع قوية ، جاء هذا الفارس فى آخر لحظة قبل انتهاء مباراة اليوم الأول للمبارزة فقهر (بريان) ورجاله وكسر رماحهم • وسمى نفسه (الفارس المحروم) واعتذر عن إماطة اللثام عن وجهه والكشف عن اسمه • الأمر الذي أوقع الأمير (جون) و أعوانه والجمهور في حيرة وتعجب وتسآؤل وخوف أيضا !! •

ولكن القارئ كان قد سبق الأمير (جون) وأعوانه والجمهور في معرفة اسم وحقيقة الفارس المحروم[1]• أما الجمهور وشخصيات الرواية فلم تعرف حقيقة (الفارس المحروم) إلا بعد فوزه بنهاية مباراة المبارزة ، وانتصاره على أعدائه من الفريق الآخر • فعندما صعد السلم ليتسلم جائزته من ملكة جمال الحلقة ـ والتي اختارها بنفسه ليثير بذلك غيرة خطيبها الرسمي (اثيلستين) ويجعله ينضم إلى الفريق المعادي للنيل منه ـ طلب الجمهور منه أن يرفع خوذته ويكشف عن حقيقته فرفعها بعد تردد ليقف أمام الجميع : (ايفانهو) أو (ويلفرد) ابن النبيل السكسوني (سيدريك)[٢] •

وهكذا انكشف سر هذه الشخصية لجمهور الرواية • وكان انكشاف هذا السر سببا في إثارة أحداث أخرى ودفع أحداث الرواية إلى التصاعد والتعقيد • ف (ايفانهو) رفيق الملك ريتشارد إلى فلسطين ، وصديقه المقرب ، وظهوره يعني خطرا على كل خائن لمليكه ووطنه ودينه • هذا الأمر جعل الأمير (جون) يتأهب من فوره لجمع الرجال من أجل الاستعداد للقضاء على أخيه • خاصة وقد استلم رسالة تتضمن هروبه من سجن دوق النمسا •

وقد كان لتسمية (ايفانهو) نفسه مرة بالحاج ومرة بالفارس المحروم علاقة وثيقة بالمقدمة التي عرفناها عنه وعلاقته بوالده • قبل رحيله إلى فلسطين مع الملك ريتشارد •

وبعد أن أثبت (ايفانهو) قدرته الفائقة أمام قائد فرسان المعبد

---

(١) *Dramatic Irony.* (الموقف المسرحي الساخر)

(٢) *Scott., Ivanhoe, Ch.12.*

ظل متمسكا بتحديه له حتى يتخلص أحدهما من الآخر . وقطع على نفسه عهدا بتنفيذ هذا الأمر .

ويؤخذ (ايفانهو) – الذي وقع مغشيا عليه متأثرا بجراح بالغة عقب تسلمه جائزة النصر والإفصاح عن إسمه – يؤخذ إلى منزل في (آشبي) ، إنه منزل إسحاق اليهودي ، وذلك بإلحاح من (ربيكا) ابنته التي ما فتئت تذكر جميل (ايفانهو) الذي خلصها ووالدها من أنياب (فرون دويو) النورماندي وقسوته . وتضع نفسها في خدمة (ايفانهو) المريض ، تعالجه بوسائل طبية خاصة تعلمتها من إحدى قريباتها وتعجب بالفارس (ايفانهو) أيّما إعجاب ، وتفكر فيه . ولكنّ (ايفانهو) ما يفتأ يذكرها بالفرق بينهما ، فهي يهودية حقيرة وهو نصراني ، رفيع القدر ، وذلك من خلال سلوكه تجاهها وكلمات ينثرها في حديثه دون قصد .

ثم ماتلبث هذه الشخصية ((شخصية ايفانهو)) أن تذوب في الشخص المريض ، الذي نقله إسحاق وابنته بعناية خاصة لمعالجته في (يورك) والذي رافقهما حين ألقت عصابة (دوبراسي) القبض على أفراد ركب (سيدريك) الذي كان يضم إسحاق وابنته والمريض .

ويسجن الجميع في قلعة (فرون دويو) ويظل (ايفانهو) ذائبا في شخصية المريض لا أحد يعرف اسمه ولا أصله . حتى والده[1].

وبعد أن تقتحم القلعة من قبل (لوكسلي) روبن هود ورجاله . ويتوزع الرجال لإنقاذ الرهائن ، يعثر الفارس الأسود على (ايفانهو) مدثرا في ثوب مرضه فيرسله إلى أحد الأديرة حيث يشرف على راحته أحد الرهبان .

ويبقى شيء واحد ، يبقى أن يحقق (ايفانهو) تحديه بقتل (بريان) ولكن كيف ؟ ومتى؟

لقد حقق الكاتب حلم (ايفانهو) بالقضاء على (بريان) وذلك عندما أرسلت (ربيكا) رسالة إلى (ايفانهو) تخبره بأمر سجنها والحكم عليها وتطلب منه أن يتكفل بالدفاع عنها إما بنفسه أو بتكليف من

---

(1) *Ibid., Ch. 19-23.*

يراه مناسبا . ولن يفوت (ايفانهو) هذه الفرصة حتى وإن لم يتماثل للشفاء . بل نراه يسرع إلى مكان المبارزة ، ليجد أمامه (بريان) وقد استعد للمبارزة . وبعد جولة قصيره إستطاع (أيفانهو) القضاء على (بريان) . وبذلك تحقق تحديه ، وقتل ذلك الخائن الغادر ، وأنقذ (ربيكا) من موت محقق .

فماذا بعد ذلك؟ لم يبق شيء . إلا زواج (ايفانهو) من (راوينا) بعد أن اعترف به والده ، ووافق على زواجهما ، بعد أن تخلى (اثيلستين) عن خطيبته (راوينا) بحجة عدم استطاعته تحقيق حلم (سيدريك) .

وهكذا سارت شخصية (ايفانهو) في طريق تطورها بمسار هادئ استمر في تصاعده نحو القمة حيث مقتل (بريان) على يده ، منحدرة إلى النهاية حيث زواجه ب (راوينا) .

ويعد (ايفانهو) مثالا للفروسة الحقة التي عرفها ذلك العصر في رجاله . وهو النموذج الصادق الذي يقاس به الرجال في ذلك الوقت . فشجاعته ووفاؤه لمليكه وشعبه ووطنه ، وحبه العفيف ل (راوينا) وحفاظه على ذلك الحب بإثبات رجولته وشجاعته أمام أقوى الفرسان .... إضافة إلى صفات حميدة أخرى توفرت في شخصيته - ومنها عدله وميله إلى (الموضوعية) في حكمه على الناس بمختلف أجناسهم وهو مالمسناه في تعامله مع (ربيكا) ووالدها اليهوديان ... كل هذه الصفات جعلته نموذجا للفروسه في ذلك العصر ، وجعلته بالتالي بطلا للروايه التي أطلق عليها اسمه .

<u>بريان[1] (قائد فرسان المعبد).</u>

تكاد تكون شخصية (بريان) قائد فرسان المعبد النورماندي هي الشخصية التالية لشخصية البطل في الأهمية . إن محور الصراع في الرواية يدور بين ، بطل الرواية وهذا الفارس النورماندي . فهما يمثلان عنصري الرواية المتضادين . فهو نورماندي ، وغريمه سكسوني . وهو يدعي الفروسة ، وغريمه فارس أصيل . وهو خائن لمليكه ووطنه وشعبه ودينه ، تخاذل عن أداء واجبه تجاه مليكه فتركه في ساحة

---

(١) *Brian.*

المعركة وعاد إلى إنجلترا ليشبع شهواته وطموحاته ، وساعد الأمير (جون) الأخ الخائن للملك ريتشارد ـ ضد أخيه . وخان شعبه ودينه ، مستغلا مكانته في الكنيسة فعاث في البلاد فسادا ، وقسى على الشعب مع بقيه القساه أمثاله . لذلك ولتلك الصفات المتنافرة ، والقلوب المتباغضه كان لابد أن يكون الصراع رهيبا عنيفا في أشد قوته إلى الدرجة التي لا يتسع فيها المكان لكليهما . فأحدهما لابد أن يقتل على يد الآخر . هذا هو التحدي الذي قبله (بريان) قائد فرسان المعبد أمام (ايفانهو) الفارس السكسوني ورفيق الملك ريتشارد في فلسطين . وقد قدم أمام الجميع دليل قبوله التحدي سلسلة من الذهب الخالص[1]، بعد أن قدم (الحاج) أو (ايفانهو) دليل تحديه ، قطعة من الصليب الحقيقي ـ على حد زعمهم ـ وضعها في صندوق من العاج .

واستمر هذا التحدي ليكون القاعدة التي أقامها المؤلف لسلوك كلتا الشخصيتين تجاه كل منهما الأخرى ويكون بالتالي المحور الرئيس في علاقة كل منهما بالآخر في أحداث الرواية .

وكنا قد التقينا بقائد فرسان المعبد ، في الفصل الثاني من الرواية التقينا به فارسا نورمانديا ، متعجرفا ، قويا ، مفتخرا بنفسه وبشجاعته في ساحة القتال ، هو ورفاقه من فرسان المعبد مزهوا بأن جمع بين الحسنيين ، فهو فارس يدافع عن المقدسات ثم هو في الأصل أحد رجال الكنيسة . ومعروف أمر الكنيسة ورجال الاقطاع من السادة النبلاء النورمانديين ، فهما العنصران الغالبان والقويان في ذلك العصر وبهما يزهو فرسان المعبد[2]. ولكن هل هم فعلا كما يدعون؟! هل فرسان المعبد النورمانديون هم الفرسان الحقيقيون المدافعون عن المقدسات؟! هذا هو السؤال الذي أجاب عليه (الحاج) أو (ايفانهو) المتنكر في زي الحاج ، والعائد لتوه من أرض فلسطين . لقد كذب (الحاج) جميع أقوال (بريان) ورفاقه ، وفوق ذلك تحدى قائدهم أمام الجميع ((أمام (سيدريك) ورجاله من السكسون وأمام (راوينا) وأمام الخدم)) تحداه أن يثبت الشجاعة والاقدام الذي يدعيه أمام فارس من جنود الملك ريتشارد وأقلهم إلماما بفن المبارزة واسمه (ايفانهو)[3] . ومن هنا تنطلق

---

(١) *Scott, Ivanhoe, Ch.5.*   (٢) *Ibid., Ch.5, (P.55)*

(٣) *Ibid., Ch.5, (PP. 54-55).*

أحداث الرواية . أولا : للكشف عن حقيقة شخصية الحاج الذي تحدى قائد فرسان المعبد . ثانيا : لبلوغ ذلك الهدف وهو تحقيق تحدي (الحاج) بانتصار (ايفانهو) على قائد فرسان المعبد وقتله . ثالثا : للكشف عن حقيقة فرسان المعبد وغاياتهم وأهدافهم الأصلية .

وهكذا كانت هاتان الشخصيتان هما النموذج الذي وصفه المؤلف للفرسان فى ذلك الوقت . فأحدهما فارس حقيقي والآخر مزيف . وبالكشف عن زيف الثاني ظهر التقسيم الحقيقي لشخصيات الرواية . فالشخصيات إما فارس حقيقي وإما آخر مزيف . ومن خلال تشابك الأحداث ، وبروز المواقف وبعبورنا كقراء بتلك المواقف والأحداث يمكننا أن نضع كل شخص في مكانه تحت النموذج الذي اختاره المؤلف . وعلى هذا وضعنا (دوبراسي) و (والدمير) و (ايمير) و (فيليب مالفوزان) و (فرون دوبو) تحت نموذج (بريان) أو صنف فرسان المعبد النورمانديين - فكيف ذلك ؟؟ .

بتتبع أحداث الرواية وجدنا أولا : بعد أن كشف القناع عن حقيقة (الحاج) : أن (ايفانهو) استطاع التغلب على (بريان) الفارس النورماندي القوي في مبارزة حلقة (آشبي) ، وبذلك أثبت شجاعة فائقة لأقل جنود الملك معرفة بفن المبارزة . وبتغلبه على (بريان) قائد فرسان المعبد تحقق جزء من التحدي ، وبقي الآخر وهو : القضاء على قائد فرسان المعبد .

لقد خان (بريان) قائد فرسان المعبد مليكه فانضم إلى معية الأمير (جون) ، الأخ الأصغر والخائن للملك ريتشارد وشاركه إفساده وتعسفه في الأرض والناس . وخان شعبه ودينه بمشاركته (دوبراسي) مكيدة دنيئة دبرها الأخير من أجل تحقيق غرض دنيوي . فكونا مع رجالهما ورجال الشرير (فرون دوبو) النورماندي ، عصابة سطوا بها على ركب (سيدريك) والنساء اللاتي في الركب ، ومنهن (راوينا) و (ربيكا) وكانا بهذا السطو قد أساءا إلى دينهما الذي يأمرهما بالتفرغ للعبادة والدفاع عن المقدسات وترك الشهوات الدنيوية .

وفي الفصول التي أسهب فيها المؤلف وصف حالة المسجونين[1] من أفراد

---

(1) *Ibid.*, *Ch.* (19-26)

ركب (سيدريك) في قلعة (فرون دوبو) النورماندي إتضح لنا تماما أي نوع من الرجال ، قائد فرسان المعبد ومعيته • وقد حاول (بريان) قائد فرسان المعبد أن يجر (ربيكا) الفتاة اليهودية المحافظة العفيفة إلى هاوية الشر بإشراكها في جرمه بحق الدين والعرف والتقاليد ، ثم اختطفها بعد أن اقتحم رجال (سيدريك) القلعة - وهرب بها ليفعها حبيسة إحدى الغرف بمعبد تمبلستو[1] محاولا إجبارها أن تمضي معه في طريقه • واتهمت الفتاة بمزاولتها السحر بسببه • ولكن لأن الخير لابد أن ينتصر فقد تغلب عليه (ايفانهو) وقتله ، وثبت حكم الله فيه ، وانكشف ستره وافتضح أمره •

ربيكا[2] :

تعتبر (ربيكا) ابنة إسحاق اليهودي من الشخصيات المهمة في الرواية وهي عنصر قوي أزكى نار الصراع في الرواية وساعد على تعقيد الأحداث الرئيسة فيها • فعلاقتها ب (ايفانهو) التي تمثلت في دور شاكر الجميل جعلها ترد النقود التي قدمها (ايفانهو) لقاء الجواد الأصيل والدروع القوية التي ساعده إسحاق اليهودي في إقتنائها • ومن ثم نجدها تتحين الفرصة لتقديم المساعدة والعون له •

وكان اتصالها الكثير ب (ايفانهو) ولمسها لروح الفروسة فيه قد أيقظ في نفسها روح العاطفة تجاهه ، ناسية الهوة التي بينهما بسبب دينها اليهودي ، ولكنها بعد تفكير جاد في هذا الموضوع تعود إلى وعيها ، وتتذكر مكانتها : اليهودية في ذلك المجتمع •
وتستمر علاقتها بـ (ايفانهو) علاقة الطبيب بالمريض إلى أن اقتحم رجال (سيدريك) و (لوكسلي) قلعة (فرون دوبو) ويدخلونها فيأتي (بريان) قائد فرسان المعبد ، إلى فريسته التي اقتنصها من ركب (سيدريك) ويخطتفها ويحملها على فرسه هاربا بها خارج أسوار القلعة ، دون أن يستطيع (ايفانهو) عمل شيء لها ، نتيجة لمرضه •

وكان قائد فرسان المعبد (بريان) قد رآها في يوم الاحتفال في حلقة (آشبي) • يوم أن ظهرت (ربيكا) في ذلك الزي الشرقي المتميز

---

(١) *Templestowe.*
(٢) *Rebbica.*

الذي أضفى عليها جمالا على جمالها الأصلي - فشعر (بريان) برغبة في تحقيق غرض دنيوي عن طريقها .

وهكذا نجد أن (ربيكا) تجمع بين الخيطين الرئيسيين في الرواية . فهي أمام فارس أصيل نبيل شهم من السكسون تطلب مساعدته وهو (ايفانهو) ، وهي في أسر فارس مزيف خائن من النورمانديين تطلب الانتقام منه وهو (بريان) . والاثنان : الفارس السكسوني والنورماندي في حالة تباغض شديد عنيف . والأول سيأتي ملبيا نداء فروسته وكرم أصله ، لانقاذها ، والثاني (بريان) يستمر في طريقه محاولا اغراءها للهروب معه .

ولكن (ربيكا) ظلت كما عرفناها منذ بداية الرواية ، تلك الفتاة اليهودية التي يمكن وضعها في تصنيف خاص بجنسها . فهي مثال للراقيات من الفتيات اليهوديات اللاتى يجدن مهنة الطب ، فلا يبخلن بمعالجة إنسان محتاج إليهن بغض النظر عن دينه وعرقه . وهي فتاة عفيفة ذات خلق ودين لا تزعزعها قوة مهما بلغت ولا تؤثر الظروف مهما قست على مبادئها وتقاليدها وعاداتها . وهي مثال للإنسان الذي لا ينسى الجميل مهما بلغت ضالته . بشكل عام تعتبر (ربيكا) مثالا للإنسان السوي الذي يبحث عن حياة آمنة مطمئنة . وتستمد (ربيكا) قوتها في هذه الرواية من صفة الاتزان والتعقل والحكمة التي تميزت بها وفاقت بها (روايتنا) .

ريتشارد قلب الأسد :

تقلب ريتشارد قلب الأسد - كما ظهرت حقيقته في نهاية الرواية - فى هيئات مختلفة . فظهر أول ماظهر في هيئة فارس يرتدي رداءً أسود يغطي به كل جسمه ، حتى عرف بين الناس بالفارس الأسود . والتقينا به في بادئ الأمر فى حلقة (آشبي)[1] وفي نهاية مباراة اليوم الثاني للمبارزة بين الفرسان ، حين تدخل لصالح (ايفانهو) عندما أراد (ايثلستين) و (فرون دوبو) الانقضاض عليه بينما هو مشغول في مبارزة (بريان) قائد فرسان المعبد . وقد أرادا بحيلة مدبرة القضاء عليه

---

(١) *Scott., Ivanhoe,* PP.140-142.

ولكن في تلك اللحظة تدخل الفارس الأسود مدافعا عن (ايفانهو) ٠

وبعد انتهاء المباراة ٠ والكشف عن حقيقة (ايفانهو) ، ووصول رقعة تسلمها الأمير (جون) الأخ الخائن للملك رتشارد قلب الأسد تلك الرقعة التي كتب فيها : [لقد خرج الشيطان من قمقمه ، انتبه لنفسك] ٠ بعد هذه الظروف ، ظهر الملك ريتشارد أمام الأمير (جون) ومعيته في شكل هالة من الرعب والخوف[1] والقلق أحاطت بالجميع ولحقت بهم أينما ذهبوا ، مما أدى إلى رحيلهم الفوري إلى (يورك) من أجل الإعداد للتخلص من هذا الشيطان الذي يلاحقهم ٠ وأخيرا ... وبعد هزيمة (فرون دوبو) واقتحام قلعته ، كشف الفارس الأسود عن هويته ليكون الملك ريتشارد قلب الأسد ٠ وبدأ القارئ يتعامل مع الهيئة الحقيقية الجديدة للفارس الأسود ، في شخص الملك ريتشارد ٠

أما شخصية الملك ريتشارد فهي من الشخصيات التي أوجدت جوا من التوازن في الرواية ٠ وقد اكتسبت أهميتها في الرواية بجمعها بين المتنافرات ٠ فهو فارس نورماندي ولكنه ليس كبقية فرسان النورمانديين الذين وضعهم المؤلف تحت "صنف" (بريان) ، إنما هو يجمع بين العرق النورماندي والفروسة الأصيلة وكرم النفس ودماثة الخلق ٠ فهو أيضا مثال للانسان السوي ٠ فلا يبخل بما يملك على أي انسان محتاج إليه بغض النظر عن أي اعتبارات ٠ فنجده وهو الملك النورماندي يساعد الخارجين على القانون من السكسون من أجل إنقاذ أرواح أبرياء وقعوا تحت سيطرة جماعة من النورمانديين الخونة ٠ ونجده يبذل كل مايملك لإنقاذ صديقه ورفيقه السكسوني (ايفانهو) ٠ ونجده يحارب بسيفه من أجل تحرير بقية السجناء ٠

وفوق كل ذلك نجده لا يتأخر عن فعل واجب قومي أو ديني تجاه أهله وشعبه ٠ فهو يقف وحيدا في ساحة القتال بأرض فلسطين يرافقه فئة قليلة من الفرسان الشجعان الأوفياء ٠ ويتحدى خذلان أهله وملوك ودوقات وأمراء دول أوروبا الذين تركوه وحيدا يتحمل ، تبعة استرجاع بيت المقدس من أيدي المسلمين وانشغلوا بتدبير المؤامرات والفتن ضده ٠ ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعدى إلى أسره وسجنه بواسطة دوق النمسا ٠

---

(١) *Ibid., Ch.13- (PP. 145-146)*

ولكن هل أثر فيه هذا السجن؟! هل غير من سجايا طبعه؟! هل جعله يحقد على أولئك الخونة من المقربين والملوك والأمراء والفرسان؟! . لا .. إنا نجده هو هو .. بكل صفاته الكريمة بتواضعه وحلمة وسعة صدره . فها هو (دوبراسي) الخائن يقع أسيرا تحت يده ، ويتركه مطلقا سراحه ليذهب فارا بجلده خارج انجلترا . وذلك الخائن (والدمير) مستشار الأمير (جون) الذي تكفل بالقضاء عليه بنفسة بأسره الملك ريتشارد ثم يعرف سره وبالرغم من كل ذلك فهو لا يقتله ، بل يمنحه مهلة ثلاثة أيام لمغادرة انجلترا بأسرها[1] . وكذلك أخوه الأمير (جون) الذي خانه واتفق مع أعدائه عليه . ترى بماذا عاقبه؟! لم يعاقبه بل على العكس كان في أشد حالات حلمه وعفى عنه ـ وكأن شيئا لم يكن[2] .

وكان من حلمه ووفائه لرفيقه أن تدخل لصالحه ، وطلب من النبيل السكسوني (سيدريك) العفو عن ابنه (ايفانهو)[3] وتزويجه ممن يحب . أما بالنسبة للخارجين على القانون فقد وعد الملك ريتشارد بمنحهم مايريدون ويطلبون وما يريحهم . فكان بعمله هذا مثالا للشخص السوي الذي لا يضع أمام الطبيعة أية عراقيل أو حواجز . فنظر إلى كل شخص بعمله ولم ينظر إلى عرق أو نسب أو دين . وعامل كل فرد مدفوعا بحسن سجاياه واستعمل سيفه وشجاعته لنصرة الحق والعدل والقضاء على الشر والفساد . فاستحق بذلك لقب قلب الأسد .

وقد لاحظنا أن شخصية ريتشارد قلب الأسد ، ليست من الشخصيات الرئيسة وإنما هي عنصر مهم في الرواية ، فقلب الأسد مكانته التاريخية الأولى في تاريخ انجلترا ، وكتب تاريخ العصور الوسطى الأوربية والانجليزية بالذات تضعه في رأس قائمة المهمين في هذا التاريخ ، ولكن المؤلف هنا جعل منه شخصا من الأشخاص العاديين وقدم عليه في الأهمية من الناحية الفنية (ايفانهو) و (بريان) و (ربيكا) والسبب أن السير ولتر سكوت فنان وأديب وليس مؤرخا . والفنان له الحق في خلق شخصيات ، حتى ولوكانت

---

(١) *Ibid.*, Ch. 40 (P.464).

(٢) *Ibid.*, Ch. 44.

(٣) *Ibid.*, Ch. 42.

تاريخية ، ووضعها في قالب فني يراه جميلا ومقنعا . وريتشارد قلب الأسد شخصية مقنعة حتى وهو في هذا العمل . فالمؤلف سلب منه مكانته في قائمة المهمين في (التاريخ) ولكن ليضفي عليه صفات زادته رفعة وشأنا من خلال منظوره الفني . وهذه هي فلسفة السير ولتر سكوت في رواياته التاريخية .

هكذا وجدنا أن للشخصيات في رواية ايفانهو طابعا خاصا فقد اتخذ المؤلف،لتصنيفها موقفا خاصا وهو التوزيع على مراكز وفرق متضادة متنافرة بمعنى الكلمة . ثم إيجاد نوع ثالث من الشخصيات تشد الأطراف المتباغضة من أجل الوصول إلى حل يرضاه القارئ ، ويرضاه الوعي والعاطفة . فكان (ايفانهو) على رأس قائمة النوع الأول . وكان (بريان) على رأس قائمة النوع الثاني . وكانت (ربيكا) القوة الدافعة للأحداث فكانت تمسك بزمام النوعيين وتنطلق بهما إلى الأمام . ثم كانت شخصية الملك ريتشارد ليخلق جوا من الإستقرار والأمن بانتهاج الحكمة والعقل والحلم في معالجة تلك الأمور المتضاربة والجمع بين الأطراف المتنافرة وحل المشاكل .

الحقيقة التاريخية ومعالجتها :

كما لاحظنا من خلال عرضنا للحبكة فإن الرواية تعتمد على عنصرين أساسيين أولهما : الحقائق التاريخية (وهي واقع انجلترا ابان الحروب الصليبية متمثل في حرب الأعراق) إضافة إلى : واقع اليهود بين النصارى في تلك الفترة . ثم سجن ريتشارد قلب الأسد وأسره .
ثانيهما : الإبداع الفني الذي ربط به المؤلف الأحداث ، والمواقف ، والشخصيات .

والأحداث كلها خليط من الحقيقة يدفعها الخيال إلى عالم مجسّم مصور متحرك حي . فالشخصيات والأحداث ، الحقيقي منها هو الذي لا مندوحة من فكّه عن الحقيقة التاريخية ، والخيالي فيها مايدفع الحقيقة التاريخية إلى التجسد والإنبعاث من جديد في صورة جديدة حية . هذه هي الخطة التي انتهجها المؤلف في بنائه روايته (ايفانهو) ، وهي الخطة التي انتهجها في معظم رواياته .

سبق أن ذكرنا ، عند الحديث عن السير ولتر سكوت ، أنه روائي رومانتيكي . وروحه توّاقة إلى عالم جديد تسوده المحبة والسلام والعدل ، يتنقل فيه الأفراد بحرية مخترقين حواجز المجتمع والدين ، مستمتعين بالحياة في مختلف مجالاتها ، روحه التواقة هذه جعلته يبحث في سجلات التاريخ عن أيّ منفذ ينفذ من خلاله إلى محاولة رسم مثل ذلك الحلم . فلم يجد سوى العصور الوسطى ، جعلته يبحث عن شخصيات تتمثل فيها أحلامه ، فوجد ريتشارد قلب الأسد الفارس المغوار والملك المهاب . هذا الملك الذي دوى اسمه في أنحاء العالم لشجاعته وقوته وكرمه ، الذي بذل الغالي والثمين من أجل استرداد بيت المقدس ، يقع أسيرا وأسيرا لنصراني مثله . إنه دوق النمسا . فما السبب ؟ ولم يكون ذلك ؟ يجيب المؤلف على هذين السؤالين من خلال تعرضه لبناء الطبائع البشرية المفطورة على حب الذات والشهوات في روايته . إن الكاتب يعالج هذه القضية من خلال وجهة نظره الرومانتيكية التي تميل إلى الواقعية ، ويضع لها حلولا من خلال المنظور نفسه .

ثم ينتقل إلى قضية حرب الأعراق (السكسونيين والنورمانديين) ، لماذا تقع مثل هذه الحروب ؟! ولماذا تتباغض هذه النفوس وهم ينتمون إلى دين واحد . ويعيشون فوق أرض واحدة ؟!. إن المؤلف يعالج هذه القضية من خلال المنظور نفسه ، أيضا ، ثم يضع لها حلولا يرتضيها كأديب رومانتيكي يميل في نثره إلى الواقعية . وأخيرا يتجه بملاحظاته التاريخية إلى : التفرقة العنصرية الدينية القاسية التي يعانيها اليهود الذين يعيشون على أرض انجلترا . هؤلاء اليهود الأذلاء التعساء ، لماذا حكم عليهم بهذا الذل وهذا الهوان ؟! ولماذا يعاملهم النصارى معاملة حشرات الأرض الضارة ؟! . إنها حقيقة من حقائق التاريخ في العصور الوسطى لم يغفلها المؤلف ، كما هي عادته . وقد كانت النتيجة رواية تاريخية فذّة . حكت تاريخا بمفهوم جديد ، وصورت حقائق بمقاييس جديدة ، ومن وحي إبداع المؤلف .

إن رواية ايفانهو تعتبر من الروايات المتميزة المعروفة وسبب تميزها كما هو واضح : تماسك قوي في بناء الحبكة ، وتمازج رائع في الحقائق التاريخية ذاتها ، وبين الحقيقة التاريخية والخيال . وتوزيع مدروس ومحكم لأدوار الشخصيات وأنماطهم . ثم تصوير ووصف حيوي تكاد تراه العين لمختلف المواقف ومختلف المناظر . هذا ما امتاز به البناء الروائي لرواية (ايفانهو) بشكل عام ومختصر .

يقول اى . ان . ويلسون في تقديمه لرواية ايفانهو :

لقد كانت رواية ايفانهو من أكثر روايات سكوت شهرة إلى الآن . ذكر لوك هارت[١] إنها أُستقبلت من قبل جميع الانجليز ـ بحفاوة لم تحظ بها آية روايه من رواياته . وقد بيع منها في انجلترا فقط ١٢،٠٠٠ (اثنتا عشرة ألف نسخة) من الطبعة الممتازة . وبقيت من أشهر روايات السير ولتر سكوت . فى القرن التاسع عشر .... وقد اكتسبت ـ إضافة إلى تأثيرها الروحي كما تبين نيومان[٢] ـ تأثيرا أحدثته ليس في الأدب فحسب بل امتد ذلك إلى الرسم والتمثيل والاوبرا[٣] .

والسؤال الآن : لماذا كان ذلك ؟ وما الفرق بين هذه الرواية وغيرها من الروايات التاريخية ؟ .

إن هذه الرواية عالجت الكثير من الموضوعات التاريخية بطريقة موضوعية منصفة لم يستطع أحد من المؤلفين الوصول إليها . ومن أجل الوصول إلى الهدف كان لزاما على المؤلف أن لا يتقيد بالحدود الزمنية للتاريخ فكانت الرواية :

> خليطاً من عادات وتقاليد ثلاثة قرون . ف (سيدريك) و (ايثليستين) و (الريكا) يعودون إلى فترة زمنية مبكرة عام ١١٩٤م . وروبن هود[٤] يعود إلى قرن من الزمان يتلو ذلك التاريخ[٥] .

ولكن سكوت لم يكن متخوفا من هذا الاتهام ، وإنما اعترف بذلك الخلط قائلا :

> إن هذا التعدي على التاريخ في رواية ايفانهو ...... ليس مهما بالنسبة لما أحرزته الرواية بالكشف عن حقل جديد كلية في الرواية التاريخية[٦]

---

(١) Lockhart. صهر المؤلف ، وهو من أشهر من ألف في سيرته عقب وفاته .

(٢) Newman. هو أحد النقاد المشهورين .

(٣) Scott, Sir Walter, Ivanhoe, PP. XIX - XX

(٤) روبن هود هو الشخصية المتنكرة تحت اسم لوكسلي في الرواية .

(٥) French, Richard, Sir Walter Scott as Historian. P.163.

(٦) Ibid., P.164.

لقد استطاع السير ولتر سكوت أن يقدم عرضا تاريخيا حيا وموضوعيا عن الوضع (الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والديني) في العصور الوسطى . فتعرض لتقسيم المجتمع الطبقي ، الذي ينقسم فيه الأفراد إلى فرق وأعراق وأحزاب . النورمانديون المغتصبون . والسكسون أصحاب الأرض الأصليون ، ثم الأحزاب التي انقسمت لتشكل فئة النبلاء من فرسان المعبد النورمانديين وحزب الفرسان المرافقين للملك رتشارد في الحرب المقدسة . والأديان المكونة من الدين النصراني دين سكان المنطقة واليهودية المستضعفة، والاسلام وهم الأسرى والعبيد .

وقد استطاع سكوت أن يصوّر كيف كانت تلك الأحزاب والأعراق والأديان تتعايش مع بعضها البعض .

يقول جيمس أندرسون في مقاله[1] :

إن الاغراء الذي أحدثته روايتا ايفانهو والطلسم في نفوس المطلعين من الناس لهو دليل كاف بأن سكوت ، في أدبه ، منطلق من مفهوم وجهة نظر المؤرخ غير المحابي إزاء فترة الحروب الصليبية[2].

ويستمر جيمس أندرسون في مقاله في الصفحة نفسها :

ففي رواية الطلسم نجده[3] وبشكل متعمد أقل مرتبة من صلاح الدين عدوه المسلم .... وكذلك تفوّق (ربيكا) اليهودية ، العظيم ، يمكن إرجاعه للمصدر نفسه ، باعتبارها ممثلا - في انجلترا - للحضارة الاسلامية .

ونحن نتفق مع المؤلف في هذه النقطة فقد أنصف (ربيكا) وأنصف الحضارة الشرقية الاسلامية . والحقيقة أن المؤلف لم يكن ليستطيع غير ذلك لأنه يعالج قضية تاريخية لا مجال لانكارها .

ويشير الناقد إلى أن من ضمن المواقف التي وضح فيها المؤلف الوضع الاجتماعي في انجلترا : اضطهاد اليهود ، والتعسف الشديد في معاملتهم

---

(١) *Anderson, James, Op.Cit. P.154.*

(٢) اذا كنا قد اتفقنا مع الناقد في هذه النقطة فيما يخص (ايفانهو) ، فنحن لا نتفق معه فيما يخص رواية الطلسم للأسباب التي سنفصلها في الفصل الثالث من هذا الباب .

(٣) الملك ريتشارد

من قبل معتنقي النصرانية . فيقول مشيرا الى موقف (ربيكا) اليهودية التي لم تجد من ينصفها من رجال الدين النصارى بعد أن نجحت في علاج (هيج) ، وعلاج (ايفانهو) ، بل بالعكس كان جزاؤها : الحكم بالموت لثبوت تهمة الشعوذة والسحر عليها لتمكنها من معالجة (هيج) بدواء احتار الأطباء النصارى في ماهيته وتركيبه :

> وبعد أن استطاعت الخلاص من ذلك المأزق الضيق[1] عادت ربيكا ومن فورها إلى (مهد) الحضارة – أي أسبانيا المسلمة[2] حيث الحرية بكل معانيها[3] .

وإلى جانب تلك الصورة ، نجد المؤلف لا يتورع عن الكشف عن حقائق مزيفة يعيشها فرسان المعبد :

> فقد بقي الفاضل[4] ، وبقية ممثلي الفروسة في رواية ايفانهو ممقوتين – وهم فرسان المعبد المتعجرفون الفاسقون شديدو التعصب – وكذلك الوحش (فرون دوبو) – والثعبان الخائن الأمير (جون) . ومن المثير للسخرية أن الفارس الوحيد الذي أظهر شيئا من الشعور بالرجولة والشهامة وهو (دوبراسي) ماهو إلا مجرد قبطان من المرتزقة[5] .

تلك كانت صورة النبلاء من فرسان المعبد ، الذين كانوا يشعرون الناس حولهم بتفوقهم لجمعهم بين الحسنيين – فهم فرسان يدافعون عن بيت المقدس – وهم ممثلون للكنيسة . ولكن الحقيقة غير ذلك . إن الحقيقة هي التي أبرزها المؤلف في تلك المواقف الحية التي كشفت عن ضمائرهم ونفوسهم .

ونجد المؤلف – أيضا – يشير في مواقف حية متحركة إلى النساك ، ويحاول أن يعالج مواقفهم معالجة موضوعية ، ومن خلال شخصية (ايمير) وناسك (كومبان هورست) ومواقفه مع الفارس الأسود الذي نزل في ضيافته ،

---

(١) الموت حرقا باعتبارها في نظر النصارى ساحرة .

(٢) *Scott., Ivanhoe., P.154.*

(٣) *Ibid., Ch.44 P.447.*

(٤) بريان (*Brian.*)

(٥) *Anderson., Op.Cit., P.154.*

يحاول المؤلف أن يضعنا أمام صورة حقيقية لبعض رجال الدين في ذلك العصر . فمن أهم صفات النساك المتفرغين للعبادة هي : بعدهم عن كل المؤثرات الدنيوية ، وعفة أنفسهم ، وترويضهم لغرائزهم الفطرية التي تقود إلى الانغماس في الترف والبعد عن عبادة الله ، واكتفائهم بما يسد رمقهم من طعام ، وما يروي ظمأهم من ماء ، وما يحمى بدنهم من لباس ومأوى . أما ناسك (كومبان هورست) والقس (ايمير) فكان ظاهرهما ماذكرناه وباطنهما شيئا آخر تماما . فقد كان ظاهر ناسك (كومبان هورست) الرهبنة والانصراف للصلاة والعبادة ، والحقيقة أنه رجل دنيا ، يصيب منها أحسن مايصيب . فطعامه المحمر من لحم الخنازير ، وشرابه مالذ طعمه وغلا ثمنه من النبيذ ، ويحرسه اثنان من الكلاب الضارية(١). فكأن سكوت بتصويره لهذه المواقف :

> قد انطلق من افتراض أن الأوامر المقدسة تخلق متطلبات - عظيمة - من الإنسان ، تطلب أشياء فوق طاقة البشر(٢) والنتيجة كتابي غير ملائم لمركز رجل دين ، يكون عرضة للسخرية ، والتسامح العاطفي الذي يناله الإنسان العادي(٣) .

إن السير ولتر سكوت يروي روايته المسماة ايفانهو - كعادته - بمنطق الرومانتيكي الذي يميل إلى الواقعية . ترى ماهي وجهة نظره التي ينقلها حول الحروب الصليبية التي ذهب فيها الكثير من الضحايا ، وأهرق فيها الكثير من الدماء؟! .

لقد استطاع المؤلف بما أوتي من موهبة واستعداد فني ، أن يرسم في مواقف حية متحركة ، يتحرك معها عقل القارئ ، فينتقل إلى ذلك العصر ، ويعيش فيه بكل متناقضاته . ونجد المؤلف يصور لنا الموقف النفسي الذي أحدثته الحروب الصليبية في قلوب العامة ، يقول (وامبا) الأخرق :

> ..... ليت الملك ريتشارد قلب الأسد كان من الحكمة بقدر أن يأخذ مشورة البلهاء . لو فعل ، لكان قد بقي في مقره ، ينعم مع رجال انجلترا العتاه ، وترك أمر

---

(١) Scott., *Ivanhoe*, PP.177-178.

(٢) من منظور إنسان يدين بالنصرانية المحرَّفة .

(٣) Anderson, James., *Op.Cit.*, P.156.

استرداد بيت المقدس إلى نفس أولئك الفرسان الذين أضاعوه[1].

وسندرك مقدار عمق هذا الكلام ، عندما نعرف أن الملك رتشارد وقف أمام جميع ملوك وأمراء أوروبا ، الذين ملوا الاستمرار في لعبة الحروب الصليبية ، وقف أمامهم متحديا ، لبذل آخر قطرة من دمه من أجل تخليص بيت المقدس من يد المسلمين - كما زعم - وكانت النتيجة أن تآمر عليه ملوك أوروبا وأمراؤها وسجنه دوق النمسا .

وفي موقف آخر ، وعلى لسان ناسك (كومبات هورست) يقول المؤلف :

.. ما الذي اقتلع الفارس من منزله ؟ وماذا تراه يتوقع عند عودته ، غير أن محبوبته وقد خطبت لمنافسه[2] وأن أغانيه التي كان يرددها تحت نافذتها قد نسيت ...[3]

وسنجد أن رواية المخطوبة قد ركزت على هذا الموضوع وأعطته جزءً كبيرا من اهتمامها . ونجد المؤلف - وقد انفعل مع هذه الحكايات التي شاعت في ذلك العصر - لايفتأ يشير إليها من بعيد أو من قريب في كل مناسبة تستدعي ذلك في أي من رواياته .

ولكي يجعل القارئ يعيش ذلك العصر معايشة حية ، نجد ، السير ولتر سكوت لم يغفل فيها ماساد في ذلك العصر من أنواع الرياضة واللهو ، والألعاب . فنجد الرواية حافلة بهذه الصور التي تشغل فصولا بأكملها ، ومن ذلك ، ماتم في حلقة (آشبي) من مباريات في المبارزة بين الفرسان ، ومن مباريات تتم بين الرماة من فن رمي السهام . هذه الأنواع من الرياضة والألعاب التي سادت ذلك العصر والتي تتم لها الاستعدادات والاحتفالات السنوية ينقلها المؤلف حية معاشة .

(٥) اللغة :

وقد قام المؤلف برواية روايته من منظوره الشخصي ، أي أنه قام

---

(١) *Scott., Ivanhoe. CH.5, P.53.*

وقد وضع المؤلف هذا الكلام على لسان وامبا الأخرق اعتمادا على المثل القائل "خذوا الحكمة من أفواه المجانين" .

(٢) وهو ماحصل لفارس المعبد (بريان) الذي خطب (الريكا) الجميلة وعندما عاد من بيت المقدس ، وجدها تزوجت عدوه (فرون دوبو) المتوحش .

(٣) *Scott., Ivanhoe. Ch.17, P.186.*

برواية الأحداث ٠

وقد تركزت اللغة في روايته هذه ، كما هو الشأن بالنسبة للأحداث ، على عناصر التنافر ، بين الأعراق والديانات والأحزاب والمواقف ٠٠٠٠٠٠ فا (Templars) من فرسان المعبد الـ (Norman) ضد (Knights) من الفرسان المرافقين للملك ريتشارد قلب الأسد في حربه المقدسة من السكسون (Saxon)٠ وهؤلاء الـ (Templars) وغيرهم من النصاري يضطهدون العناصر الدينية الأخرى مثل الـ (Jews) اليهود ، ويسيئون إلى المسلمين (Moslemah) ٠ وهناك ألفاظ توحي بالوضع الديني السياسي الاجتماعي مثل كلمة (Palmer) أو (Pilgrims.) وهي تدل على فعل الحج إلى بيت المقدس ٠

ومعروف أن النصارى يدعون أنهم على حق وغيرهم على باطل ، واليهود كذلك ٠ لذلك نجد أن النصارى ينظرون إلى كل شخص لايدين بدينهم على أنه شخص وثني (Pagan) غير مؤمن (Unbeleiver) (كافر Infidel) ٠

وكانوا ينظرون إلى اليهود نظرة احتقار ٠ ويعتبرونهم من انجس خلق الله وأبغضهم إليه ٠

ونجد أن وصف (Palmer) جاء ليعبر عن حالة فارس من الفرسان الشجعان الذي خاضوا غمار المعارك ضد المسلمين في فلسطين ٠ جاء بعد طول معاناة وبعد أن زار بيت المقدس ، جاء حاملا معه سعف نخيل ، دليلا على حاله ، وعلى زيارته للضريح المقدس ٠

واللغة التي يجريها المؤلف على لسان شخصيات رواياته ـ كما ذكرنا سابقا ـ لغة معاصرة للتاريخ ، أي هي لغة التاريخ الذي يتحدث عنه المؤلف في مؤلفه ٠ وهذه اللغة تمتاز بمرونة ملحوظه ٠ فالمؤلف يجري على لسان اليهودي اللغة التي يفترض أن تكون وعلى لسان النصراني كذلك ٠

ونجد هذه الظاهرة واضحة في مؤلفاته موضوع الدراسة ، حين يقسم كل عرق وكل أصل بماهو غال عنده في دينه أو معتقده فنجد مثلا المسلم يقول :

أقسم بركن الكعبة(1)

---

(1) Scott., The Talisman., P.20.

أقسـم بعمامة الرسـول[1]
أقسـم بلحية والـدي[2]
أقسـم بمحمد نبي اللـه[3]

نتيجة لعدم احتكاك السير ولتر سكوت بالعرب المسلمين احتكاكا مباشرا ، فإنه افترض هذه الأنواع من القسم قد جرت على ألسنتهم . فهو – لاشك – يعرف مكانة الكعبة والركن اليماني فيها ، بالنسبة للمسلمين ، وهو يعرف – كذلك – أهمية (اللحية) و (العمامة) في مفهوم العربي و شرفه . ويعرف تماما أن المسلمين يؤمنون بالله ورسوله محمد خاتم الأنبياء والمرسلين من دون سائر الأمم . لذلك أجرى القسم على ألسنتهم ليشمل أغلى وأعز مايحبون . وواضح من خلال طريقة إجراء القسم أن ماقام به المؤلف هو اجتهاد في تطبيق معلومات جمعها عن المسلمين . لأن الأيمان التي أجراها لا تطابق واقع مايقسم به المسلمون . ومن ضمن الأيمان التي أجراها المؤلف على لسان المسلم مجتهدا في وضعها وهي لا تطابق واقع مايقسم به المسلمون ، ماجاء على لسان (شيركوف) في رواية الطلسم :

أقسم بعيسى ابن مريم[4]

وواضح أنه استنتج هذا القسم ، لعلمه بأن المسلمين يؤمنون بجميع الأنبياء والرسل دون تفريق .

ويجري على لسان اسحاق اليهودي في رواية <u>ايفانهو</u> أنواعا من الدعاء تلائم معتقدات اليهود :

أدعوك يا ابراهيم ويا يعقوب وياجميع آباء قومي .. أعينوني[5]

وفي مكان آخر يصيح اسحاق اليهودي مستنجدا :

يا ابراهيم المقدس[6]

أما النصراني فانه يقسم بالعذراء والرب ! ففي رواية <u>المخطوبة</u> ورد هذا القسم على لسان (دينيس) مساعد (بيرنجر) :

أستحلفك بالرب وبالقديسة العذراء[7]

---

(١) *Ibid.*, P. 21,
(٢) *Ibid.*, P.20.
(٣) *Ibid.*, P. 12,
(٤) *Ibid.*, P.71.
(٥) Scott., <u>Ivanhoe</u>, P.209
(٦) *Ibid.*, P.202.
(٧) Scott., <u>The Betrothed</u> P. 323.

ونلخص ماذكرناه من : أن للسير ولتر سكوت لغة خاصة اجتلبها من العصور الوسطى • من قاموس هذه العصور اختار نخبة من الألفاظ صبغت أعماله الروائية ، وجعلتها متميزة عن غيرها من الروايات التاريخية بعامة • وبناؤه الجيد القوي لهذه الروايات التاريخية جعله قبلة يتجه إليها مؤلفو الرواية فينشدون حسناته ، ويبتعدون عن سيئاته ، حتى خرج إلى العالم روائيون عظام أمثال : بلزاك ، وتولستوي ، وبوشكين ، وديكنز وغيرهم ممن ملأوا الدنيا بشهرتهم •

وهكذا نجد أن المؤلف استطاع باهتمامه بعناصر فنية مهمة في العمل الروائي ، متمثلة : في اللغة ، وبالتالي دقة في رسم شخصيات الرواية ، ثم الدقة في الاهتمام بالحدث وترابطه ، ومنطقيته ، وما حمله من مواقف سجلت بكل عفوية ، الحياة بجميع جوانبها (الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية) في العصور الوسطى ، استطاع بكل تلك الوسائل وبغيرها أن يصور معاناة الأفراد بسبب التقسيمات الدينية العرقية • واستمر طوال الرواية يعرض شريطا من تلك الصور الرائعة من صراع اليهود من أجل العيش في مجتمع انجلترا • ثم صراع السكسون مع طبقة النبلاء من النورمانديين المغتصبين ـ شريط لا ينقطع ليؤكد شيئا واحدا : أنه طالما تعطلت الحياة الطبيعية عن أداء وظيفتها ، فإن اختلالا واضحا سيصيب الحياة • والطبيعة ترفض أي تقسيم بين الأفراد قائم على أساس التمايز العرقي أو الديني ذلك أن لكل فرد دوره الأساسي في الحياة • وهي ترفض تقييد الحريات وتجاهلها • وعندما قسم المجتمع الانجليزي الأفراد أعراقا وأنسابا سيده ومسوده ، قويه ومستضعفه ، طاهرة ونجسة ، حلت الفوضى وكثر الصراع وتعددت اللغات وتنافرت النفوس والأديان • ولكن عندما اجتمعت تلك الأعراق على صعيد واحد ـ وتداخلت ـ انصهرت الألسن والأجناس لتؤلف لسانا واحدا هو الانجليزية ، وشعبا واحدا هو الشعب الانجليزي [1] • هذه الصورة المكتملة ، قدمت في بناء روائي غاية في الاحكام والفن •

وهكذا ، خرجنا بعد قراءة جادة للرواية ، برؤية جديدة للوضع في

---

(١) Scott., *Ivanhoe*, PP.484-485.

انجلترا في آخر عهد الملك ريتشارد ، روّية تاريخية (اجتماعية سياسية اقتصادية دينية) قدمها السير ولتر سكوت في عمل فني فذ وتصوير رائع لانملك معه إلا أن نقول : إن روايته هذه من أجمل وأروع ماكتب بحق .

الفصـــــل الثالـــــث

الطلســـــــــــم (١)

TALISMAN 1825.

البنـــاء الروائـــــي

(١) العـــمل الروائـــــي :

تحـكي قصــة الطلســم للســير ولـتر ســكوت جانبـا من أحـداث تاريخـــية حـدثت في الحـروب الصـليبية[٢] في الحـملة التي كـان يقـودها الملك ريتشـارد ضد السـلطان صـلاح الدين الأيـوبي مستهـدفا إعـادة بيت المقدس إلـى حـماية الصـــــليبيين .

(٢) الحـــــــــبكة :

تبـدأ القصـة بالتعرف على شخـصية الســـــير (كينيـــث الليوبـــاردي) Sir Kenneth of Leopard ، ثم نظـيره المجاهـد المسلم (شـــــيركوف) كما قـدم نفســه . يتصـاحب الاثـنـان عقب منـاورات فردية دارت بينهـــــما وكـانت سجـالا بين الطـرفين ، ويقسم كل منهـما أن يكون خـير رفيق للأخـر .

كـان السـير كينيث الليوبـاردي في تلك الأثنـاء ذاهـبا لأداء مهـمة كلـف بهـا : وهـي الذهـاب إلى معـبد (انجـادي) ومقابلة النـاسك (شيودريك)[٣] ومعـه رســـالة من الأمـراء الصـليبيين وفي الوقت نفســه نذر الحج من أجـــل الدعـاء للملك ريتشـارد قلب الأسـد بالشـفاء من الحـمى التي أصابته وانهـــكت قـــــواه .

---

(١) كتبـها السير ولـتر سكوت عام ١٨٢٥ مع رواية المخطوبة The Betrothed تحت عنـوان جمعهـما هـو : Tales of the Crusaders

(٢) الحملة الصليبية الثـالثة (١١٨٩-١١٩٢) أشهر قوادها فريدريك باربروسـا وقدمـات غريقـا ، وريتشارد قلب الأسـد ، ثم الملك فيليب الثاني ملك فرنسـا .

(٣) Theodorick of Engaddi.

يذهب الاثنان[١] إلى المعبد المذكور حيث يبيتان فيه ليلتهما . وهناك يؤدي السير كينيث مهمته بإرشاد ناسك (انجادي) . وفي تلك الأثناء كانت نساء العائلة المالكة الانجليزية يؤدين مهمة الحج إلى (انجادي) للسبب نفسه ، فتتاح الفرصة للسير (كينيث) الفارس الاسكتلندي أن يرى الأميرة (اديث بلانتاجينيت) إحدى قريبات الملك ريتشارد . ويتبادل الاثنان مشاعر الحب والود .

وعندما عرف (شيركوف) المجاهد المسلم بخبر مرض ملك انجلترا وخوف صديقه الفارس الاسكتلندي السير (كينيث) وجزعه على ما أصابه ، وعده أن يطلب من السلطان صلاح الدين الأيوبي إرسال طبيبه الخاص لتطبيب الملك ريتشارد وعلاجه من الحمى . ويفترق الاثنان على أمل وفاء (شيركوف) بوعده .

ويظهر (شيركوف) مرة أخرى ولكن بهيئة جديدة متنكرا في لباس (الحكيم ادونبك)[٢] الذي أرسله صلاح الدين برفقة فرقة من الجنود ، لتطبيب الملك من الحمى التى أصابته . ويختبر السير (كينيث) (الحكيم) الذي قام بعلاج صديق له ويتأكد من مهارته وحنكته في الطب فيذهب الى معسكر الملك ريتشارد ، ويقابله (دوفو) الذي كان يرعى الملك ويلازمه أثناء مرضه بتحفظ وغلظة ظاهرين ، ذلك أن السير كينيث كان اسكتلنديا ، واسكتلندا كانت على عداء مع الانجليز لذا كان دخوله على الملك أمرا صعبا . وبعد جدال مع السير (كينيث) ، واختبار مهارة الطبيب ، اقتنع (دوفو) بمهارة الطبيب وسمح له بتطبيب الملك رتشارد . وعندما أخذت صحة الملك تتدرج في التحسن انتقل المؤلف ليصور مشاعر بقية امراء الحملة الصليبية حيث وجد أنهم ليسوا على وفاق مع الملك ريتشارد الذي كثيرا ما يظهر غرورا وتفوقا على جميع الأمراء ويضع نفسه في منزلة هي فوق الجميع حتى مع من يساوونه الرتبة مثل ملك فرنسا (فيليب) ، إضافة الى ذلك فهم لا يرون خيرا من الاستمرار في موقفهم ضد صلاح الدين وجنوده ، وقد شعروا في قرارة أنفسهم أنهم غير قادرين على الصمود ،

---

(١) السير (كينيث) ورفيقه (شيركوف) .

(٢) *Adonbec El-Hakim.* وقد ورد لفظ (الحكيم) في ألف ليلة وليلة كثيرا ويقصد به الطبيب .

لذا كانوا يتذرعون بأتفه الأسباب لكي يتركوا الملك ريتشارد ويعودوا إلى ممالكهم التى كانت تجتاحها الثورات والحروب الأهلية .

وينتقل المؤلف إلى شخصيتين مهمتين في الرواية هما (كونراد)[1] (وقائد جنود الهيكل)[2] ، وصف الاثنان بالدهاء والخبث وإن أظهر الثاني التدين والعبادة والولاء . كلاهما يحمل طموحات شخصية ، تتصف بالأنانية المفرطة والرغبة في تحقيقها دون وضع اعتبار للهدف الأسمى الذي جاء الجميع من أجله - على حد قول المؤلف . كلاهما يرغب في فك عرى الوحدة الصليبية للحملة ، وتشتيت جمع أمرائها وملوكها ، وترك الملك ريتشارد وحده في الميدان يعب من كأس الهزيمة .

واتفق الاثنان على تدبير المؤامرات للوصول إلى مايريدان . ومعروف أن قائد الحملة كان ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد . وكانت جميع الجيوش والفرق تحت إمرته ولوائه . لذا نجد (الماركيز كونراد) يعمد الى الأمير النمساوي[3] - الذي عرف بغبائه وحبه للظهور ، وأخذ يمدح مكانته بين الأمراء والملوك ويطري أهميته وتفوقه على سائر قواد الحملة محرضا إياه على قائد الحملة الملك ريتشارد المغرور الذي أفرد رايته دون بقية الرايات ترفرف على قمة جبل سانت جورج ، وأن الراية النمساوية لا تقل شأنا عن الراية الانجليزية وكان الأولى أن تكون الراية النمساوية بدلا من الانجليزية على قمة سانت جورج .

اقتنع الأمير النمساوي بهذا الأمر - وانطلت عليه الحيلة ، وخرج في مساء حفلة عبّ فيها الجميع من الخمر ماشاءوا . وقصد مع بعض جنوده قمة سانت جورج ووضع الراية النمساوية بجانب الراية الانجليزية وكان (الماركيز كونراد) قد أسرع إلى الملك ريتشارد وحكى له صنع الأمير النمساوي لاحكام المؤامره ، الأمر الذي اعتبره ملك انجلترا وقائد الحملة الصليبية ، إهانة لا تغتفر . فصعد وهو يغلي من الغيظ إلى قمة سانت جورج - وهو لم يشف تماما من الحمى التي أصابته - وخلع الراية

---

(١) *Conarde Marquise of Montserrat,*

(٢) *The Grand Master of the Templars,*

(٣) *The Arckduke of Austria.*

النمساوية ورماها على الأرض وداس عليها بقدمه . أحدث عمل الملك ريتشارد هذا مزيدا من الفوضى والتزعزع في صفوف الصليبيين فانقسموا إلى قسمين : قسم مؤيد لعمل الملك والكثرة تقف ضده .

وفي الليلة نفسها ، وعقب ذلك الحدث ، يضع الملك ريتشارد الفارس الاسكتلندي - السير (كينيث) - حاميا للراية الانجليزية على قمة سانت جورج .

وهنا يحدث أمر ينقل الأحداث إلى أبعاد أخرى : فلسوء حظ هذا الفارس تنتقي الملكة (بيرنجاريا) زوجة الملك ريتشارد ، تلك الليلة ، لتنفذ مكيدة نسائية سخيفة ، تسخر بها من الأميرة (اديث بلانتاجينيت) وتلهي نفسها بها ، فترسل عبدها القزم (تكتابنس)(١) إلى الفارس الاسكتلندي أثناء تأديته عمله في حماية الراية - برسالة شفوية على لسان الأميرة (أديث) تأمره فيها بالحضور لمقابلتها . وتعطيه دليلا على صدق حامل الرسالة ، خاتم الأميرة ، الذي شاهده في اصبعها عندما رآها في معبد انجادي . ويجد في نفسه حيره كبيرة فيما يصنع . ويدور في نفسه صراع بين عاطفته وهو المحب للأميرة ، وبين واجبه وهو الفارس المقدام . وأخيرا تنتصر العاطفة ويذهب برفقة القزم الذي سهل له المهمة وأخبره بقصر المسافة إلى مخيم الأميرة . ولم يجد السير (كينيث) خيرا من أن يترك كلبه المخلص (روزول) في الحراسة ينبهه إذا حصل أي مكروه .

وكان (الماركيز كونراد) ينتظر مثل هذه الفرصة فيغتنم غياب الفارس الاسكتلندي ويسرق الراية الانجليزية بعد أن يكسر العمود الذي كان يحملها وبعد أن يضرب (روزول) كلب الفارس ويصيبه بجراح بليغه .

وبعد أن وصل الفارس الاسكتلندي إلى مخيم نساء الملك اكتشف اللعبة السخيفة التي دبرتها الملكة ولكن بعد فوات الأوان ، فعندما عاد إلى مكان عمله وجد كلبه المسكين تنزف جراحه ولم يجد الراية . فما كان منه وهو الفارس المقدام الذي لا يهاب الموت والذي تتحقق فيه صفات الفروسة الحقة ، ماكان منه إلا أن يذهب بنفسه إلى الملك ريتشارد ويخبره بماحدث . وحكم عليه بالقتل نتيجة إهماله .

وقد استدعي له ناسك انجادي للاعتراف . واجتمع الناسك بالفارس واعترف

---

(١) *Nectabanas.*

له الأخير • فعرف الناسك حقيقة أصله ونسبه[1] لذا ظل يطلب من الملك متوسلا أن يخفف عنه حكم الاعدام ولكن دون جدوى • وقد حاولت قبله (الملكة) ـ سبب المشكلة ـ بتحريض من الأميرة (اديث) أن تطلب له العفو وظل الملك على رأيه • وأخيرا يتدخل (الحكيم) الذي عالج الملك من مرضه ، لمصلحة الفارس الاسكتلندي ، وطلب العفو عنه ، وأن يمنحه إياه عبدا لقاء خدمته للملك • فوافق الملك متمنعا بأسباب بسطها (الحكيم)، وأخذ الحكيم الفارس بعد أن فقد الأخير رتبته ومنصبه • وأصبح عبدا لهذا الحكيم (الطبيب ، العربي ، المسلم) وظل سارق الراية مجهولا •

وتربط (الحكيم) بالفارس الاسكتلندي (العبد) علاقة ود ، فيذكر له في معرض حديث أن السلطان المسلم صلاح الدين الأيوبي يرغب في الاقتران بالأميرة (اديث بلانتاجنيت) بهدف عقد نوع من السلام الدائم بين الصليبيين والمسلمين • وتثور غيرة الفارس رغم أنه لا أمل عنده بالزواج من (اديث) بعد استرقاقه • ويصبح همه إثبات براءته ، ويوافقه (الحكيم) على ذلك ـ بل تجده يساعده لتحقيق هدفه • فيحوله ـ بطريقته الخاصة ـ إلى عبد نوبي أسود • ويقدمه هدية إلى الملك ريتشارد باسم صلاح الدين ويرسل معه رسالة خاصة من صلاح الدين إلى الأميرة (اديث) بخصوص طلب زواجه منها •

يذهب العبد النوبي إلى الملك ريتشارد برسالة من صلاح الدين توضح ، أنه هدية من السلطان ـ وهو أخرس لا يتكلم إضافة إلى ذلك هو نصراني وعلى ذلك سيكون ذا فائدة له •
اهتم الملك ريتشارد بهذا العبد ، الذي أنقذه من خنجر العجوز التركي الذي أرسل من قبل (الماركيز كونراد) و (قائد جنود الهيكل) للفتك بالملك • ويكون هذا الحدث خيطا جديدا يحملنا إلى أبعاد أخرى في الأحداث • فنجد العبد النوبي يتلقى ضربة العجوز التي كانت من خنجر مسموم ، فيصاب بجرح عميق في ذراعه ، ويحاول الملك أن يرد الجميل بإنقاذ عبده

---

(١) حيث نكتشف في نهاية الرواية أن الفارس الاسكتلندي الوضيع ماهو الا أمير اسكتلندي من العائلة المالكة وهو :
David, Earl of Huntingdon, Prince Royal of Scotland.

كما أنقذه - خاصة بعد أن رفض الجميع امتصاص الدم من جرحه بسبب سواده ووضاعته - فيأخذ ذراع العبد ويمتص الدم بفمه ، وفي هذه الأثناء يكتشف أن الرجل ليس عبدا نوبيا لأن جلده مطلي بالسواد • ولكنه احتفظ لنفسه بهذا السر وظل يراقب (العبد) وقد خامره الشك في أن يكون الفارس الاسكتلندي خاصة وهو يرافق كلبا له •

قام الملك ريتشارد بارسال (العبد) إلى الأميرة (اديث) بالرسالة التى حملها معه من السلطان صلاح الدين إليها • وتكتشف الأميرة سره بذكائها ولكنه - تحت الحاح من الملك - لم يتفوه أمامها بكلمة تفيدها •

وبعد أن أحس الملك أن مافعله بالأمير النمساوي سيؤدي إلى ضعضعة صفوف الحملة ، لم يجد بدا من الاعتذار له • وحدد يوم لإنهاء الهدنة بين المسلمين والصليبيين التي عقدت بسبب مرض الملك • وخصص يوم - قبل معاودة الحرب - يستعرض فيه كل أمير قوات جنوده أمام الملك • ووقف الملك ريتشارد وبجانبه (عبده) يحمل كلبه • وأخذت الفرق تمر في استعراض جميل ، إلى أن جاء دور (الماركيز كونراد) ، فلما تقدم أمام منصة الملك وكان قد أعد فرقته جيدا للاستعراض - وكان الملك يتحدث معه مطريا اهتمامه بفرقته ، أزبد الكلب وأرغى ، ثم انقض على (الماركيز كونراد) وهو على فرسه وأوقعه من فوق ظهره متدحرجا على الأرض و أخذ ينبح بصوت عال مؤكدا - لصاحبه - أن هذا هو الشخص الذي سرق الراية الانجليزية وأصابه • وكان الملك ريتشارد واثقا كل الثقة من ذكاء الكلب ووفائه ، فاثبت تهمة سرقة الراية على (كونراد) الذي غضب وثار بعد أن ظهر عليه الارتباك • وغضب معه جميع أمراء الحملة وطالبوا الملك بقتل العبد وكلبه ، ولكن الملك لم يعبأ بطلبهم وأكد التهمة الملصقة (بالماركيز) • ثم طالب ملك فرنسا بعقد اجتماع عاجل بهذا الخصوص ، اتفق فيه الجميع على عقد مبارزة بين (المتهم) وفارس ينتخبه الملك ليكون ممثلا له • ويكون الغالب هو المنتصر وتنفى عنه التهمة وتثبت ضد الآخر • ووافق الملك على ذلك ، وحددت مهلة خمسة أيام يتم فيها تحضير موقع المبارزة وتحديد المتبارزين • واقترح الملك ريتشارد أن يكون صلاح الدين حكما في هذه المبارزة • وأن يحدد صلاح الدين نفسه موقع المبارزة • فوافق الجميع على مضض •

وجاء اليوم الموعود . وكان صلاح الدين قد حدد - بعد طلب الملك ريتشارد - (واحة نجمة الصحراء) ، وهي مكان يقع في منتصف المسافة بين معسكر الصليبيين ومعسكر المسلمين ، ليكون مكان المبارزة . والتقى المعسكران في هذا المكان بعد استقبال حافل من قبل جنود المسلمين . واختير (العبد النوبي) الذي كشف السلطان صلاح الدين عن حقيقته ليكون الفارس الاسكتلندي ، بعد أن كشف سر الحكيم الذي كان صلاح الدين نفسه[١] ، اختير ذلك الفارس ليكون المبارز الذي يمثل الملك ريتشارد ، ودارت المبارزة بين الفارسين[٢] - استطاع فيها السير (كينيث) الليوباردي الفوز بالضربة القاضية سددها في صدر (كونراد) فأردته طريحا على الأرض ، وقبل أن يموت طلب (كونراد) الاعتراف - كما هي عادة النصارى - ولكن الضربة كانت قوية وقد لايمهل الموت (كونراد) كي يعترف ، لذا نجد الملك ريتشارد يتوسل إلى السلطان صلاح الدين أن يستخدم مهارته والطلسم ليمنح الماركيز (كونراد) الحياة ولو لنصف ساعة يعترف فيها للقس بذنوبه وأخطائه . وبعد ضجة وغوغاء في محاولة لمنع صلاح الدين من استخدام الطلسم ، قام (قائد جنود الهيكل) باحداثها ، حتى يحول دون معالجة (كونراد) فيموت ويدفن معه سره ، نقل الجريح إلى خيمة في معسكر صلاح الدين وأجرى له العلاج اللازم وتركه في الخيمة ليستريح . ولكن (قائد جنود الهيكل) غافل الحراس وتسلل إلى خيمة الجريح وطعنه بخنجره في صدره ليقضي على البقية الباقية من عمره . ولكن - لسوء حظه - فقد رآه (نكتانبس) القزم ، الذي أهداه الملك ريتشارد الى السلطان فينقل النبأ إلى السلطان خفية . في هذا الوقت كان السلطان يحتفل بالأمراء والملوك الصليبيين ، ويأتي (قائد جنود الهيكل) -وكأنه لم يفعل شيئا - إلى مكان الحفل . وقبل أن يشرب جرعة من الشراب البارد الذي قدم للضيوف في خيمة السلطان ، ضرب السلطان عنقه بسيفه البتار بخفة متناهية ، أدهشت الجميع . وشرح لهم السلطان سبب عمله ذلك . وهكذا قطع دابر الشر بعد افتضاح السر .

وفي الفصل الأخير ، يكشف النقاب عن هوية السير (كينيث الليوباردي (الفارس الاسكتلندي) الوضيع ليكون أميرا من العائلة المالكة

---

(١) Scott, Sir Walter, The Talisman, P.244.

(٢) الماركيز كونراد والفارس الاسكتلندي

فى اسكتلندا • ووضحت تنبوّات الناسك بزواج (اديث) من صلاح الدين • ويتزوج الأمير الاسكتلندي من الأميرة الانجليزية (اديث) ويهديهما السلطان (الطلسم) الذي ظل يتوارث في العائلة الاسكتلندية إلى يومنا هذا - كما ذكر المؤلف •

كان المؤلف نفسه الذي قام بسرد أحداث الرواية ، واعتمد في روايته على عنصر مهم وهو الأسرار والألغاز التي تكشف في نهاية القصة فيتضح سر المسائل والسلوك • يقول فورستر :

" ان الحكاية[1] هي عصب الحياة ، والعمود الفقري فى الرواية "[2]

ظلت قصة الطلسم تشدنا ، نريد أن نعرف ماذا بعد ذلك ! إلى أن انتهينا بما يقرب من الثلثمائة صفحة يسوقنا الشوق لكشف أسرار ما غمض من الأحداث - وهذا هو الجانب المهم في موضوع الرواية •

والفصلان الأخيران هما اللذان وضعا النقاط على الحروف : فـ (شيركوف) الكردي - هو (الحكيم) الذي عالج الملك ريتشارد ، هو نفسه السلطان صلاح الدين الأيوبي ، سلطان المسلمين الذي وقف بشجاعة يدافع عن بيت المقدس أمام الحملات الصليبية •

و (السير كينيث الليوباردي) ، الذي يلتقي به (شيركوف) في بداية الرواية ، ويحب الأميرة الانجليزية (اديث بلانتاجينيت)، هو العبد النوبي الذي أرسله صلاح الدين هدية للملك ريتشارد ، وهو نفسه الأمير الاسكتلندي (ديفيد) •

وكانت الظنون تحوم حول الأمير النمساوي ، تتهمه بسرقة الراية الانجليزية ، ولكن الفصل قبل الأخير يكشف أنه (الماركيز كونراد) وصديقه (قائد جنود الهيكل) الفارس المنافق الذي كان يظهر التقوى والورع •

... الحبكة من الناحية الفنية محكمة إلى درجة بعيدة - وهي تقليدية حيث يسعى الكاتب فيها إلى ربط الأسباب بمسبباتها بشكل قطعي • ويحاول في كل مرة - يشعر فيها أن القارئ قد فقد قوة

---

(١) Story.

(٢) Forster., E.M., Aspects of the Novel, England, Penguin Books, 1974, P.35.

السيطرة على ربط الأحداث وتذكرها - أن يتدخل من أجل تذكير القارئ بحقائق قد ينساها . وهذا التدخل - فى معظم الأحيان - لا ينقص من قيمة العمل الأدبي لأنه يأتي بشكل عفوي غير متكلف .

كذلك كان المؤلف - بين الفينة والأخرى - يتدخل في تفسير بعض الأحداث والمواقف . وهي طريقة تقليدية ، ولكن القارئ لم يكن يشعر دائما بهذا التدخل ، وذلك لتسلسل الأحداث المنطقي - المتداخل حيث لا يشعر القارئ فيه بالنقلات بين الحدث ، والآخر . وإنما يحدث الانتقال بشكل عفوي تلقائي غير متكلف وهي ميزة ملحوظة في الرواية .

يقول فورستر : "يمكن لنا أن نعرف الحكاية (في الرواية) بأنها سلسلة من الأحداث مروية مرتبة ترتيبا منطقيا" [1] . والحكاية في رواية الطلسم ينطبق عليها هذا التعريف ، فنحن نتدرج في الكشف عن الأسرار بشكل منطقى خال من المبالغة غير المرغوبة من الناحية الفنية . نتعرف على (شيركوف) ونظيره (السير كينيث) ، ثم نعيش معهما أحداث بقية الرواية ، حيث ينتقل (شيركوف) بشكل غير ملحوظ ليكون بعد ذلك (الحكيم). ويظهر (السير كينيث) وهو الفارس الذي يحفظ ولاءً وحبا لريتشارد قائد الحملة الصليبية . ثم بعد ذلك نلتقي بالعبد النوبي الذي يثير في نفس الملك ونفس القراء بعض الشكوك في حقيقته . كل هذه الأحداث تتواطأ مع بعضها البعض لتصل بنا إلى ذروتها في الفصلين الأخيرين .

وتنتهي الأحداث في الرواية لتؤكد حقيقة تاريخية واحدة هي : أن ريتشارد قلب الأسد بالرغم من كل الظروف السيئة التي تحيط به ، من مؤامرات بقية ملوك وأمراء الصليبية ، ورغبتهم في الانسحاب من تلك الحملة - بالرغم من كل ذلك ظل على عزمه لاستعادة بيت المقدس من أيدي المسلمين . وأن السلطان صلاح الدين بالرغم من كل ما يعانيه المسلمون من عناء في صد الحملات الصليبية ، مازال متمسكا ببيت المقدس ، يحميه إلى آخر قطرة من دمه - ولم يسمح للصليبيين بأخذه لا بالقوة ولا بالسلم ، وهو - في الوقت نفسه - يحترم نسّاك النصارى ورهبانهم ويسمح لهم بأداء شعائرهم الدينية في بيت المقدس دون أي مضايقة .

---

(1) *Ibid.*, P.35.

وبما أن المؤلف أراد التأكيد على تلك الحقيقة التاريخية ، فإننا نرى معظم أحداث الرواية تدور حول تصميم ريتشارد قلب الأسد على المضي في قراره ، وتركز أيضا على المؤامرات التي يسعى بقية أمراء وملوك الحملة في تدبيرها ليحولوا دون ريتشارد وتحقيق هدفه . وتؤكد عدم إخلاص أولئك الملوك والأمراء وغيرتهم من قلب الأسد . وكذلك على الاتفاقيات التي كان يقوم بها بعض النساك والأمراء مع المسلمين من أجل الانتهاء بهذه الحروب إلى السلم .

ونجد المؤلف لا ينكر الحقيقة التاريخية القائلة بتسامح المسلمين ووفائهم ، وما ذكره التاريخ عن السلطان صلاح الدين من حكمة وحزم وشهامة ... فمعظم الأحداث تشير إلى هذه الصفات .

وإذا كان هناك بعض المبالغات في جعل صلاح الدين سلطان المسلمين في مصر وسوريا ، يجوب الصحراء وحده دون رفيق ، وهو بنفسه يأتي لمعالجة عدوه قلب الأسد ، إضافة إلى بعض المبالغات في تصوير الاستقبالات الحارة(1) ، وتصميم قلب الأسد على أن يكون السلطان صلاح الدين عدوه هو الحكم في أمور خاصة به وبرجاله ... كل هذه (المبالغات) لاشك تخدم الناحية الفنية في العمل الروائي لاغير !! .

وحبكة الرواية بشكل عام ، متماسكة ، تخدم هدف المؤلف من الناحية الفنية . أما تلك المغالطات والمبالغات والأحداث المفتعلة والصور المشوهة ... وغير ذلك من التفصيلات الدقيقة في حنايا الرواية فقد جاء بها المؤلف ليعزز حبكته ويقويها ، ويعزز أحداث روايته ويجعلها منطقية من وجهة نظر نصرانية .

(٣) **الشخصيات :**

الشخصيات في رواية سكوت المسماه (الطلسم) ليست كثيرة جدا . وتساهم جميعها في تطور أحداث الرواية ، فهي - سواء أدت دورا صغيرا أم كبيرا في الرواية - تضيف شيئا ما إلى أحداثها ، أو تكشف عن سر

---

(1) *Scott, Sir Walter,* The Talisman. PP. 239-242.

معين ، أو أنها تساعد على تعقيد حدث أو حل لغز .. فالكل يشترك لإثراء العمل الأدبي.

وتنقسم الشخصيات في هذه الرواية إلى قسمين : شخصيات معقدة أو مستديرة لاتبقى على هيئة واحدة ، وشخصيات بسيطة تكاد تعرفها من حديثها حتى ولم لم ترها . وتعتبر شخصية السير كينيث الليوباردي ، وشخصية (شيركوف) من الشخصيات المعقدة ، الملونة ، التي تتقلب في هيئات شتى بتطور أحداث الرواية . أما بقية الشخصيات فتكاد تكون جميعها شخصيات بسيطة (مسطحة) خاصة شخصية الملك ريتشارد ، وكونراد ، وناسك انجادي وملك فرنسا ... .

وسنتناول في هذا الفصل أهم الشخصيات في هذا العمل الأدبي :

السير كينيث الليوباردي[1] :

تكاد تكون شخصية (السير كينيث) أهم شخصية في الرواية . وقد اعتبرناه الشخصية الرئيسة لأن معظم أحداث الرواية تدور حوله . وهو يحتل مكانا مرموقا في العمل الفني . ويتميز بشخصية معقدة[2] - كما أشرنا سابقا - تتقلب في هيئات وصفات شتى بتطور أحداث الرواية . فقد رأيناه في بداية الرواية وتعرفنا عليه فارسا نصرانيا شجاعا من فرسان الحملة الصليبية التي يقودها الملك ريتشارد قلب الأسد ضد السلطان صلاح الدين لاسترداد بيت المقدس :

".. اعذرني في السؤال عن اسم رفيق قضيت معه نهارا في مناسبات خطرة وأخرى سلمية ، ولا أعتقد أنه مجهول حتى في صحاري فلسطين .

- إنه لا يستحق الذكر ، أجاب النصراني . فلتعرف على أي حال ، أنى معروف بين الجنود الصليبيين ب (كينيث) ، كينيث الليوباردي ، أما في موطني فلي ألقابي الأخرى ...[3].

---

(١) The Scottish Knight (Sir Kenneth of Leopard).

(٢) Forster, Op.Cit, PP. 51-89.

(٣) Scott, Sir Walter, The Talisman, P.25.

فاسم الفارس النصراني هو كينيث الليوباردي ، ولكنه يشير إلى سر سنتتبع خيطه طوال الرواية . إنه يشير بطريق خفي إلى أن هذا ليس اسمه الحقيقي ، وإنما قد عرفه به جنود الحملة فقط ، أما حقيقته فغير ذلك "في موطني فلي ألقابي الأخرى" .

ولكن ما الذي أتى بهذا الفارس النصراني وحده في هذه الصحراء ؟ وإلى أين يتجه ؟ - إن الفارس جاء برفقة خمسين من الفرسان الصليبيين تفرقت بهم الطرق والأقدار ولم يبق منهم سوى السير كينيث الذي جاء من أجل أداء مهمة دينية[1] :

علي أن أقضي هذه الليلة في الصلاة وطلب التوبة
مع رجل صالح . إنه (شيودريك) انجادي الذي يقيم
في هذه القفار الموحشة ويقضي حياته في خدمة الرب[2] .

لقد جاء السير (كينيث) إلى ناسك انجادي برسالة من أمراء وملوك الصليبيين ، إضافة إلى ذلك ، فقد نذر الحج إلى انجادي من أجل الدعاء للملك ريتشارد بالشفاء من الحمى الشديدة التي أصابته . وفي معبد انجادي يلتقي الفارس الاسكتلندي (بالأميرة أديث) ويتبادلان الود . ورويدا رويدا يبدأ عقد شخصية فارس العصور الوسطى في الانتظام ويمثله الفارس الاسكتلندي . فهو الشجاع المقدام الذي تعرفنا عليه في البداية ، وهو الفارس الذي يبذل روحه فداء قضيته ومليكه ودينه ، ويقطع البراري من أجل أداء مهمة دينية . وهو المحب الذي يقدس هذه العاطفة ويقدس المرأة :

... إن جمال نسائنا يمنح حرابنا قوة ، ويزيد
سيوفنا حدّة . كلماتهن دستورنا . وإن فارسا
قويا لا تدفعه عاطفة حب امرأة ، مثله مثل
قنديل يضيء بغير وهج[3] .

وتستمر شخصية السير (كينيث) الليوباردي متوهجة بهذه الصفات

---

(١) *Ibid.*, P.25.

(٢) *Ibid.*, P.21.

(٣) *Ibid.*, P.20.

نفسها ، صفات الفروسة في العصور الوسطى ، ويقدر الملك ريتشارد وفاءه وشجاعته ، فيعهد إليه بحماية الراية الانجليزية . ولكن الفارس يضعف أمام عاطفته تجاه الأميرة (اديث) ، وحبه لها ويترك واجبه وتكون النهاية وخيمة عليه فيفقد رتبته ومنصبه كفارس ولا يبوح بما يسيء إلى الأميرة .

ويعود إلى الظهور مرة أخرى بعد أن أخذه (الحكيم) عبدا لقاء خدمته ومعالجته للملك ، ولكنه يعود بهيئة عبد نوبي يرافق الملك ريتشارد ، متصفا بالصفات نفسها ، فكان مثالا للشجاعة والمروءة ، أنقذ الملك من طعنة كانت مسددة إلى صدره من خنجر مسموم لتركي مسلم[1] .

وفي النهاية يظهر السير (كينيث) بصورته الحقيقية ولقبه الأصلي أميرا اسكتلنديا مرموقا ، وينتقم لنفسه بشجاعة من (الماركيز كونراد) ويقتله بحد سيفه ، وتعلن براءته أمام الجميع .

وهكذا تقلب السير (كينيث) في عدة هيئات ، ولكن ظلت صفات "الفارس" تلفه في كل هيئة . وعلى هذا ، كان جديرا بالزواج من الأميرة (اديث بلانتاجينيت) .

شيركوف[2] :

من الشخصيات المهمة في الرواية . شخصية معقدة ساعدت على تطور أحداث الرواية والوصول بها إلى ماوصلت إليه من نهاية .

وتتقلب هذه الشخصيه في هيئات عدة مختلفة . نتعرف عليه في البداية فارسا مسلما من كردستان . شجاعا ، وكريما ومهما في قومه . بعد ذلك يظهر في ثوب الحكيم (أدونبك) الذي أرسله السلطان صلاح الدين لعلاج الملك ريتشارد من الحمى التي أصابته وأخيرا تكشف الأحداث سر الحكيم ليكون هو صلاح الدين الأيوبي نفسه سلطان المسلمين في مصر والشام .

---

(١) *Ibid.*, PP. 187-188.

(٢) *Sheerkof* (El-Hakim Adonbeck).

حاول المؤلف من خلال هذه الشخصية الوصول إلى صورة عامة للشرق وكانت محاولاته تلك تصيب حينا وتفشل أحايين أخرى[(١)].

في البداية ، نجد المؤلف يحاول إرجاع السلطان صلاح الدين إلى أصله ونسبه وحقيقته :

... ... أيها المسلم الشجاع ، هل لي أن أعرف من أي القبائل العربية ينحدر أصلك وبأي اسم أنت معروف ؟

... ... أنا لست عربيا وأنحدر من سلالة ليست بأقل توحشا ولا أقل حبا للحرب ، فلتعرف أيها الفارس الليوباردي أني شيركوف ، أسد الجبال . وأنحدر من قبائل الكردستان ، وأنتسب إلى عائلة نبيلة هي أسرة السلاجقة .[(٢)]

والسلطان صلاح الدين ينتسب إلى الأسرة نفسها وينحدر من السلالة ذاتها . ويشير (شيركوف) إلى أهميته في قومه وقوته فيثير في نفس القارئ شكوكا حول أصله وحقيقته حين يقول :

.... إنني أملك خمسا من الأسهم في جعبتي هذه ، كل منها مذيل بريشة من ريش صقر . عندما أرسل واحدا منها إلى مخيماتي يعتلي ألف فارس ظهور خيلهم وعندما أرسل واحدا آخر فسينهض منهم عدد مماثل

---

(١) لقد حاول المؤلف أن يجعل شخصيتي الفارس الاسكتلندي والفارس المسلم تمثلان النقيض في صفات الفروسة والنظر إلى المرأة والقوة الحربية . فإذا كان الأول يمثل (فارس العصور الوسطى) الذي يقدس العاطفة والمرأة فالثاني ينظر إليها كقطع الأثاث يشتهي امتلاكها للتمتع بها فقط واذا كان الأول يستعين بالقوة البدنية الجسدية في حروبه ضد المسلمين فالثاني يعتمد على قوة خفية تعينه في جهاده - انظر ص ١٩ - ٢٠ كي تتضح صورة التعصب الصليبي ، وسنعود إلى مناقشة هذا الموضوع في الصفحات التالية .

(٢) Scott., *The Talisman*, P.24.

> وبالخمسة أسهم أستطيع أمر خمسة آلاف فارس ، ولو أرسلت قوسي ، فستهتز الصحراء تحت أقدام عشرة آلاف فارس ....[1]

فمن يمكن أن يكون هذا الفارس المسلم ؟ فاذا كان هذا مايستطيعه فارس عادي فماذا سيفعل السلطان صلاح الدين؟! وسيجيب المؤلف على هذا السؤال في نهاية الرواية .

بقي (شيركوف) في صحبة (السير كينيث) وباتا سويا عند ناسك انجادي في كهفه ، وفي الصباح افترقا على أمل أن يفي (شيركوف) بوعده ، ويطلب من السلطان صلاح الدين أن يرسل طبيبه الخاص لمعالجة الملك ريتشارد قلب الأسد .

ويظهر (شيركوف) ثانية بهيئة (الحكيم أدونبك) الذي تميز بالهدوء والرزانة والحكمة والتمكن من مهنته :

> كان الطبيب شخصية متميزة وقوية ، حقيقة ، ويبدو أنه كان وسيم الهيئة في شبابه ، ولم تفارقه حتى في كبره . وكان لباسه الفضفاض من أغلى أنواع الألبسة محلى بأثمن أنواع الفرو[2].

ويثبت الطبيب مهارته وقدرته على معالجة الملك ريتشارد ، ويشتد سرور الملك ريتشارد بسلامته . وفي هذه الأثناء ، تحدث سرقة الراية وجرح الكلب (روزول) والحكم على السير (كينيث) بالاعدام . فيتدخل (الحكيم) ويطلب العفو عن الفارس الاسكتلندي والسماح له بأخذه معه عبدا مقابل معالجته للملك ، ولا يجد الملك مفرا من تلبية رغبة (الحكيم). ويعالج (الحكيم) الكلب (روزول) بدافع الشفقة . أما الفارس الاسكتلندي فكان يجهل سر الحكيم . ولا يعرف بأنه (شيركوف) صديقه .

وكان المؤلف قد استمر في خيالاته فبعد أن ذكر بأن صلاح الدين ينحدر من سلالة الجن[3] وأن هؤلاء الجن هم القوة الجبارة التي يستعين

---

(١) *Ibid.,* P.25.

(٢) *Ibid.,* P.78.

(٣) *Ibid.,* P.30,

بها صلاح الدين وجنوده في صدهم للحملات الصليبية ، بعد أن ذكر ذلك ، نجده ينكر على العرب المسلمين تفوقهم في مجال الطب فينسب ذلك إلى (الطلسم) أي إلى قوة سحرية يستعين بها العرب المسلمون في معالجة مرضاهم[1] . ولكنا نجد المؤلف ينقل هذه المغالطات على لسان شخصياته توخيا للحيطة والحذر .

ويستمر (شيركوف) صديق الفارس الاسكتلندي ورفيقه في الصحراء في تلك الليلة ، مخلصا وفيا لصديقه في ثوبه الجديد من غير أن يعلم (السير كينيث) بحقيقته . ويساعده للبحث عن السارق الحقيقي ، ويعيده مرة أخرى إلى الملك ريتشارد في صورة (عبد نوبي) يرافق الملك وليكشف بنفسه السارق .

وفي النهاية ، يستمر الوفاء بين الصديقين ، ويكشف أمر السارق . ويكشف صلاح الدين عن حقيقته أمام الملك - وأمام الفارس الاسكتلندي وبقية الأمراء ، ويكشف للملك حقيقة (العبد النوبي) .

وهكذا ظلت شخصية (شيركوف) في جميع صورها تتميز بالصفات نفسها التى ظهر بها فى البداية من كرم ، وشهامة وشجاعة ووفاء .

الملك ريتشارد قلب الأسد[2] :

من الشخصيات التى ساهمت في تطور الرواية : شخصية بسيطة أو مسطحة تميزت بصفة بعينها ، هذه الصفة لازمته طوال الرواية وهي : العناد وقوة العزيمة والتصميم على أداء المهمة التي قطع البراري والبحار من أجلها وهي : استرداد بيت المقدس . وصفة العناد هذه هى التي جرّت عليه بقية صفاته الشخصيه من غرور واستعلاء خاصة وهو قائد الحملة الطيبية . وتلك الصفات مجتمعة ألّبت عليه قلوب بقية القواد من أمراء وملوك صليبيين . فهم يكرهونه ، ويتآمرون عليه حسدا ، وطمعا في ، الصلح مع المسلمين .

---

(١) *Ibid.*, P.77.

(٢) *King Richard (Coeur de Lion).*

لقد كان الملك ريتشارد يمني النفس بالمضي إلى بيت المقدس واسترداده :

.. وكان من المحتمل أن ينجح لولم تعقه غيرة الأمراء الصليبيين المرافقين له في هذه الحملة ، والذين أساء إليهم ملك انجلترا بتعاليه وغروره الجامح ، واحتقاره الظاهر لاخوانه الملوك الذين يساوونه في المنزلة وإن كانوا أقل منه شأنا في الشجاعة ، والصلابة ، والمواهب العسكرية[1] .

فالملك ريتشارد كان يشعر أنه أقوى الجميع وأصلبهم وأحقهم برتبة القيادة ، هذا الاحساس الذي كان يظهر في جميع تصرفاته وسلوكه وحديثه خلق له مشكلته الأزلية مع ملوك وأمراء أوروبا الصليبيين[2] .

وقد استطاع الكاتب أن يجعل من هذه الصفات (قوى داخلية) تحرك الأحداث في العمل الفني . فنجد أن (الماركيز كونراد) و (قائد جنود الهيكل) يستغلان هذا الجانب ويتآمران من أجل الانتقام من هذا الملك المغرور وتحقيق أهدافهما وطموحاتهما . فيزيدان أسباب الضغينة بين الملك قائد الحملة والأمير النمساوي . ويقوم الملك - مدفوعا بصفاته المعروفة - بعمله الأهوج الذي قام فيه بتحقير الأمير النمساوي أمام الجميع[3] بخلع الراية النمساوية والدوس عليها . هذا (الحادث) أشعل شرارة قوية في أحداث الرواية ، وأعطاها دفعة قوية للتقدم نحو الأمام .

وتكاثف ذلك الحدث وما تبعه من سرقة الراية الانجليزية ، مع مرض الملك قائد الحملة ، مع مجيء (الحكيم) ، تكاثفت هذه الأحداث جميعا من أجل الصعود إلى القمة . ثم ما تلبث هذه الأحداث مدفوعة بالمسببات نفسها أن تصل إلى النهاية . وعلى هذا نجد أن للملك ريتشارد دوره المهم في تطور أحداث الرواية . فلولا عناده وغطرسته ماحصلت تلك الضعضعة في صفوف الحملة ، ولا ثارت عليه أحقاد الأمراء والقواد ومؤامراتهم . ولولا مرضه ماكان هناك داع لوجود شخصية (الحكيم) . ولولا شخصية (الحكيم)

---

(١) Scott., *The Talisman*, P.55.

(٢) *Ibid.*, PP. 60-61.

(٣) *Ibid.*, P.111.

ما استطاع الفارس الاسكتلندي الافلات من العقاب . ولولا كل ذلك ما وصلنا إلى النهاية التي وصلت إليها الرواية .

من هذا المنطلق نشعر بأن الشخصيات جميعا ـ في هذه الرواية ـ تؤدي أدوارا مهمة تدفع أحداث الرواية إلى الأمام .

أديث بلانتاجينيت[١] :

هي إحدى قريبات الملك ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا . يقول المؤلف : ((إن الآنسة اديث بلانتاجينيت فتاة يتيمة ... تنسب إلى عائلة بلانتاجينيت وتدعى بعذراء أنجو الجميلة[٢] ... ويقدمها ريتشارد ويخصها بميزات معينة لا يختص بها سوى أميرات العائلة المالكة[٣] ..)) .

يلتقي بها القارئ أول مرة في مصلى انجادي حيث كانت تحاول لفت نظر السير (كينيث) الليوباردي برميها لبراعم الورد . فتاة عاقلة متزنة حصيفة لا تتكلم إلا قليلا وفي الوقت الذي تدعى فيه للكلام . وقعت في غرام السير (كينيث) الفارس الاسكتلندي وبادلها هو الشعور نفسه . إن لهذه الشخصية أثر كبير في تطور أحداث الرواية ، فالسير (كينيث) الفارس الاسكتلندي يريدها للزواج ، ويبذل سمعته وكرامته لرضاها . وفي حيلة دبرتها[٤] زوجة الملك ريتشارد باسم الأميرة (اديث) ، يتهم على إثرها الفارس بالاهمال في أداء مهمة عسكريه ، ويحكم عليه بالموت . فيجن جنون الأميرة (اديث) . وتغضب من الملكة (بيرنجاريا) وتطلب منها تخليص الفارس كما أوقعته . وتدور أحداث عدد من فصول الرواية حول هذا الموضوع ، يؤكد فيها المؤلف عاطفة الأميرة (اديث) تجاه الفارس الاسكتلندي ، وعاطفة الفارس تجاهها . ويتقدم السلطان صلاح الدين لخطبتها فترفض وبشدة ، وذلك لاختلاف الأعراق والأجناس وشعورها بالفوقية بالمقارنة بالسلطان :

.. .. بأي شيء أجيب السلطان يا ابنة العم ، يجب أن يكون الجواب حاسما . ردت اديث : قل له إن أقل فتيات أسرة بلانتاجينيت تفضل الزواج من بائس على الزواج

---

(١) *Edith Plantagenet.,*

(٢) *Fair Maid of Anjou.*

(٣) *Scott., The Talisman, P.143.*

(٤) سبق الإشارة إليها في الحبكة .

من كافر[1] .

ولكن ماالذي يجعل الملك ريتشارد قلب الأسد يحاول اقناع ابنة عمه بالزواج من السلطان صلاح الدين وهو عدوه في هذه الحروب ؟!
إن الملك ريتشارد يتوقع نصرا كبيرا من وراء هذا الزواج ، يقول لإبنة عمه :

> اديث . أنا لا أستطيع إجبارك على تغيير رأيك ، ولكن احذري أن تغلقي بابا فتحته لك السماء . إن ناسك انجادي هذا الناسك الذي اعتبره رجال الدين من قديسين وقساوسه ، نبيا ، قرأ في الفلك بأن زواجك هذا سينهي الخلاف الذي بيني وبين هذا العدو القوي . وإن زوجك سيكون نصرانيا. وسيكون باب الأمل مفتوحا بارتداد السلطان عن دينه ، ودخول أبناء اسماعيل في دين النصرانيه ، وهما نتيجة زواجك من السلطان[2].

وهذه هي النبوءة التي تنبأبها ناسك انجادي وبني عليها جميع استشاراته ونصحه للملك والسلطان المسلم . ولكن (اديث) تظل على رأيها في رفض الزواج من السلطان :

> أنا ! سليلة أميرة نصرانية ، أصبح وبكامل إرادتي على رأس قائمة من نساء (حريم) وثنيات[3]. هذا لن يكون أبدا .

ولكن كيف تفسر نبوءة ناسك انجادي وهو الذي يعتبره القديسون والقساوسة نبيا لتحقق جميع نبوءاته ؟! لقد أجابت الأحداث على هذا السؤال . فالأميرة (اديث بلانتاجينيت) ترفض وبشدة الزواج من السلطان ، وهي عالقة القلب بالفارس الاسكتلندي . والفارس الاسكتلندي ذكر في بداية الرواية أنه معروف بين الجنود الصليبيين باسم السير (كينيث) الليوباردي ، أما في موطنه فله ألقاب أخرى ، وقد حدثت الصدفة أن اجتمع هذا الفارس مع (شيركوف) الذي هو في الأصل السلطان صلاح الدين ــ وهو مايعرفه الناسك ــ فلما رأى الناسك النبوءة لم يتردد في تصديقها حيث إن الفارسين اللذين باتا عنده تلك الليلة

---

(١) *Scott., The Talisman,* P.233. (٢) *Ibid.,* P.234.

(٣) *Ibid.,* P.234.

أحدهما أمير أو سلطان وهو (شيركوف) والثاني فارس وضيع الأصل وهو (السير كينيث) فلم يخامره شك في أن الأمير الذي رآه هو السلطان صلاح الدين • وبنى جميع تأويلاته على ذلك الأساس • وأخذ يحرض السلطان على الزواج من الأميرة (أديث) ، ليمنح الصليبيين كسبا لايعادله كسب • ولكنه عندما باشر اعتراف الفارس الاسكتلندي ـ الذي كاد يلقى حتفه ، بعد أن حكم عليه الملك بالإعدام نتيجة سرقة الراية ـ أخبره الأخير بنسبه وأصله وأنه الأمير الاسكتلندي (ديفيد) فعرف الناسك أن المقصود بالرؤية هو الفارس الاسكتلندي وليس السلطان • لذا حاول جهده رد الملك عن حكمه ولكن الملك لم يستمع إليه وأغضبه •

وبهذه اللعبة ، وهذا اللغز الذي كانت الأميرة (اديث) طرفا فيه استطاع سكوت أن يدفع بالأحداث إلى الأمام ويمنحها عنصر التشويق والإثارة •

الماركيز كونراد[١]

نتعرف عليه من ضمن أفراد وقواد جنود الحملة الصليبية • فارس شجاع ولكنه منافق وداهية وأناني :

•• ماذا تقول ياسيدي في ماركيز مونت زيرات ، رجل عاقل ، ذكي ، شجاع؟
عاقل ؟ تريد أن تقول مراوغ ـ أجاب ريتشارد• إنه ذكي مع النساء ، لو أردت القول • أوه ، يا كونراد مونت زيرات ـ من لا يعرف المتبجح الوقح؟ سياسي وخبيث•[٢]

هذه هي صفاته ، تماما كما عرفها قائد الحملة الصليبية • واستمر في لعبته الحقيره مع صديقه (قائد جنود الهيكل) ليؤكد هذه الصفات •

كان الماركيز كونراد من أوائل قواد الجنود الصليبيين رغبة في الانسحاب من الحملة لأسباب دنيوية ، لذا كان ـ برفقة (قائد جنود الهيكل) يدبران المؤامرات لبث روح الفرقة في صفوف جنود وقواد الحمله ، وكانا يتبادلان الرسائل مع السلطان المسلم من أجل الوصول إلى بنود

---

(١) *Conrade of Montserrat.*

(٢) *Scott., The Talisman, P.61.*

للسلم . وكان الملك ريتشارد يشعر بهذه المؤامرات ويحس بها ولكن لم يكن لديه دليل على ذلك .

وقد مثلت المؤامره ـ التي دبرها (الماركيز مونت زيرات) مع (قائد جنود الهيكل) لتحريض الأمير النمساوي على الوقوف في وجه قائد الحملة ـ جانبا من صفاته . وكان وجود (الماركيز) في الرواية عاملا مهما في تطور أحداثها . فبسبب تحريضه للأمير النمساوي لعمل ماقام بعمله ، حدث الانقسام في جنود الحملة ، ولكن الملك تنبه للأمر ، وسار إلى الأمير النمساوي ، معتذرا إليه أمام بقية القواد . أما (الماركيز) فقد استمر في لعبته فسرق الراية الانجليزية ـ التي كان يحرسها الكلب (روزول) في غياب سيده ـ وكسر عمودها بعد أن جرح الكلب . وكان عمله هذا سببا في دفع عجلة الأحداث في الرواية وتطورها . فلا أحد يعرف السارق الحقيقي سوى الكلب المجروح . وعلى الأحداث أن تتطور لتكشف عن سارق الراية المجهول .

وفي النهاية يتعرف الكلب (روزول) ـ الذي استجاب لعلاج (الحكيم) وشفي من جراحه ـ يتعرف على سارق الراية وهو (الماركيز) ويكون هذا سببا فى وقوع المبارزة بينه وبين الفارس الاسكتلندي الذي كشف عن هويته . وأثناء المبارزة تحقق فيه وصف الملك ريتشارد :

.. .. رجل عظيم على صهوة جواده ، ويستطيع أن يوجهه جيدا في ساحة الوغى وعند الصدام ، ولكن عندما تفقد السيوف مضاءها وحدتها[1] .

فلا تظهر شجاعته إلا أمام الضعيف من الفرسان الذين لايجيدون حمل سيوف بتارة فائقة . أما أمام الفارس الاسكتلندي الشجاع فقد سقط (الماركيز) إثر ضربة قاضية سددها الفارس إلى صدره أردته جريحا ينتظر الموت بين لحظة وأخرى .

قائد جنود الهيكل[2]

---

(١) *Ibid.*, P.61.

(٢) *The Grand Master of the Templars* (*Giles Amaury*).

شخصية واضحة الغرض بالرغم من محاولاته إظهار غير ما يبطن . يبدو عليه إمارات النفاق والمراوغة :

> رجل طويل القامة ، نحيل الجسم ، يحمل صفات المحارب ، تستقر في وجهه عينان ثاقبتان بالرغم من بطء تحركهما ، تحت حاجبين شديدي السواد .(١)

ويبدو أن الملك ريتشارد كان على علم أكيد بصفات قواد الجنود ودخائل نفوسهم فهو يقول عنه :

> إنه يجيد تنظيم المعركة ، وفن القتال عندما تبدأ المعركة ، ولكن أيها السير توماس هل من المعقول أن تسترد الأرض المقدسة من الوثني صلاح الدين الذي يتمتع ، بكامل صفات المروءة ونعطيها لـ (قائد جنود الهيكل) الأشد وثنية ، وكفرا ، عابد الأصنام ، المشعوذ الذي يرتكب الجرائم الفظيعة وغير الطبيعية في القبور والأماكن السرية ...(٢)

هذا هو بالضبط (قائد فرسان الهيكل) ، لقد كان يدبر المؤامرات - مع رفيقه الماركيز - من أجل الوصول إلى هدف دنيوي بعيد كل البعد عن آمال الصليبيين في استرجاع بيت المقدس . وكان يتراسل بشكل سري مع السلطان صلاح الدين من أجل الوصول إلى هدفه .

لقد تابع القارئ ، مكيدته المدبرة مع الماركيز لضعضعة صفوف الحملة الصليبية . وهي تؤكد فيه تلك الصفات .

وكانت نهايته على يد السلطان صلاح الدين . فقد حاول (قائد جنود الهيكل) أن يمنع السلطان من استبقاء (الماركيز) - الذي كان يحتضر نتيجة الضربة القوية التي سددها في صدره الفارس الاسكتلندي - حاول منعه من استبقائه حيا لبعض الوقت بمعالجته بالطلسم ريثما يتم اعترافه - كما هي عادة النصارى - مدعيا بأن الدين النصراني لا يجيز استخدام طرق السحر والشعوذة في معالجة المرضى . أما السبب الحقيقي

---

(١) Scott., *The Talisman*, P.89.

(٢) *Ibid.*, P.61,

فكان خوفه من افتضاح أمره ومؤامراته • وعندما فشل في منع السلطان من ذلك • تسلل إلى خيمة الجريح وطعنه وقضى على حياته •

أما صلاح الدين فقد علم بنبأ القتل بواسطة خادمه القزم ، لذلك لم يتأخر عن قتله أمام بقية ضيوفه من أمراء وقواد صليبيين •

كانت شخصية (قائد جنود الهيكل) بمساعدة شخصية (الماركيز كونراد) قد أضافت جديدا للرواية ، فوضحت نقطة تاريخية مهمة وهي : الحالة السيئة الأخلاقية التي وصل إليها ، المقاتلون الصليبيون ، والتى اضطرتهم إلى محاولة الاتفاق مع عدوهم ضد ملوكهم وقوادهم وأمتهم من أجل الوصول إلى مآرب شخصية وأطماع دنيوية • بالرغم من أن الصليبيين ظلوا يرددون أن هدفهم الأول والأخير ديني هو استرداد بيت المقدس •

تلك كانت أهم الشخصيات فى رواية الطلسم • وكل شخصية ساهمت مساهمة طيبة من أجل دفع عجلة الأحداث في الرواية ، بما في ذلك الشخصيات الهامشية مثل شخصية الأمير النمساوي ، وشخصية القزم (نكتابنس) الذي بعثته الملكة (بيرنجاريا) إلى الفارس الاسكتلندي برسالة شفوية على لسان الأميرة اديث ، مصحوبا بخاتم الأميرة دليلا على صدقه • و (نكتابنس) القزم هو الذي كان شاهد عيان لمقتل (الماركيز) على يد صديقه (قائد جنود الهيكل) وهو الذي نقل الخبر إلى السلطان •

وقد أحكم السير ولتر سكوت رسم شخصياته ، ووظفها جميعا ، حتى جعل الجميع يعمل بشكل دائب ومرسوم في خلية واحدة من أجل إنتاج عمل أدبي متكامل متحد قوي •

(٤) الحقيقة التاريخية ومعالجتها :

من الواضح أن المؤلف كان – في بعض الأحيان – يجاري الحقيقة التاريخية المسجلة في كتب التاريخ ، وبعض الأحيان يغالط أو يخالف الحقائق التاريخية – والسؤال هو : لصالح من هذه المخالفة؟! •

إذا نظرنا إلى الحقيقة التاريخية الأساسية المدونة في كتب التاريخ

وهي : صراع السلطان صلاح الدين ضد الأفرنج نجدها مسجلة في الرواية كما وردت في كتب التاريخ ، فصلاح الدين الأيوبي هو ذلك السلطان القوي العنيد ، الشهم الكريم الذي يبذل الغالي والنفيس من أجل صد هجمات الحملات الصليبية والدفاع عن المقدسات وحماية بيت المقدس ، وهو الذي أعطى القساوسة والنساك والرهبان النصارى حق ممارسة حرياتهم الدينية دون تدخل فيها ٠

وريتشارد قلب الأسد هو ذلك القائد القوي الذي قاد الحملة الصليبية من أجل استعادة بيت المقدس من أيدي المسلمين ٠ والذي امتاز بصلابته وشدته ورعونته وعناده في سبيل تحقيق مآربه ، والذي فشل في حملته بسبب تمزق الوحدة الصليبية ، وضعف الوازع الديني الذي أصاب الصليبيين أمام الاغراءات المادية ٠

الحقيقة الأخرى : شهرة العرب المسلمين – آنذاك – في مجال الطب وتفوقهم فيه ، وهو الأمر الذي عجز الكاتب وغيره عن انكاره فنسبوه إلى قوة السحر وقوى غيبية أخرى (الطلسم) ٠

الحقيقة الثالثة : قوة الجيش المسلم ، وقدرته على صد هجمات الحملات الصليبية بكل ما أوتي من قوة ، خاصة في عهد السلطان صلاح الدين بالرغم من كثرة عدد جيوش الحملات الصليبية وكثرة عدتهم ٠ حقيقة لم يستطع المؤلف إنكارها فنسبها – أيضا – إلى قوة الجن والعفاريت وقوى غيبية أخرى ، فينقل هذه الحقيقة المزيفة على لسان (شيركوف) المسلم نفسه :

> لا تتحدث هكذا عن الجن بانصراني ٠٠ فأنت تتحدث الآن إلى أحد البشر الذين ينحدرون من سلالة هذا الجنس الخالد الذي يخاف منه أمثالك ويسبونهم وهم مخلوقات الله ٠ (1)

ثم وبعد أن يلقي المؤلف بهذا القول حقيقة تاريخية ثابتة على لسان بطل مسلم الذي هو في الأصل صلاح الدين ، يرد عليه الفارس الاسكتلندي النصراني كي يلبس هذه الحقيقة المزيفة ثوب الحقيقة التاريخية :

> إن جنسكم غير المرئي – منحدر من عدو أهوج بدون

---

(1) *Ibid.*, P.29.

> مساعدته وعونه لم تكونوا قادرين أبدا على حيازة هذه الأرض المقدسة ، أرض فلسطين ، وأخذها من أيدي فرسان الله الشجعان . أنا لا أتحدث هكذا ، لأقصدك أنت شخصيا أيها المسلم ، ولكني أتحدث بصورة عامة عنكم وعن دينكم ، إنها حقيقة غريبة بالنسبة لي ، وأنا لا أتعجب من أنكم تنحدرون من أصل جني شيطاني . ولكن أعجب لافتخاركم بذلك[1] .

والسؤال الآن ماذا يقصد المؤلف ؟ ولصالح من هذه المخالفة التاريخية ؟! إن هذه الفكرة ، خرافة ، اخترعها الغرب في العصور الوسطى وصدقها الأوربيون . وتصديق فكرة كهذه يوحي بالتخلف الفكري ، الذي كان عليه الغرب في ذلك العهد . وعمد الكاتب إلى وضعها كما هي في روايته لتدل على شيء ما في ذلك العصر ! وقد يكون المؤلف قد اطلع على بعض ترجمات لمآثر ، الرسول صلى الله عليه وسلم فقرأ شيئا عن الآثار النبوية التي تصف غزوة بدر والملائكة الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى لنصرة المسلمين ! فصادف هوى في نفسه ومن ثم دبر تلك (القضية المزيفة) حيث أقنع بها نفسه وأراد أن يقنع بها الغير ! على كل حال هي مخالفة تاريخية لم تضف شيئا إلى الحبكة الأساسية للرواية ولم تنقص من قيمتها بقدر ما أنقصت من قيمة الغرب من الناحية الفكرية خاصة في تلك العصور (سواء العصور الوسطى أو حتى عصر المؤلف نفسه) فكون المؤلف يقتنع بفكرة مثل هذه الخرافة دون أن يتحقق من حقيقتها ، دليل على نقص في القدرة على الإطلاع على آثار الحضارات الأخرى وفهمها ، أو هو تعصب ديني عرقي لا أكثر . وفي ذلك اعتذار عن النفس لهزائمهم أمام جيوش المسلمين .

أما عن شهرة العرب في مجال الطب حيث كان النصارى الغربيون يغطون في ثبات عميق من التخلف والتدهور ، فهذا شيء عرفه العرب والغرب ودونه التاريخ بصدق . وكون الكاتب ينسب تفوق العرب في هذا المجال للشعوذة والطلاسم ، وينسب ، الطلاسم وغيرها من أفعال السحر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم[2] فهذا هو التعصب العرقي الديني الذي يعمي الأبصار

---

(١) *Ibid.*, PP.29-31.

(٢) *Ibid.*, P.156.

والأفئدة ، فأمر معروف أن جميع الأنبياء يملكون كرامات وقدرات معجزة تجعلهم أفرادا مؤيدين من قبل الله تعالى بالمعجزات ومميزين في صفاتهم . وليس محمد بن عبدالله وحده من يملكها . فإذا أراد الله وشُفي مريض برقية من الرسول صلى الله عليه وسلم فان عيسى ابن مريم كان قد شفي - قبله - الأبرص والأكمه . وكلها كرامات ومعجزات أعطاها الله للأنبياء كي يؤمن برسالتهم الناس . أما بقية البشر فهم يتعلمون شفاء الناس - باذن الله - بالدرس والمران والملاحظة . وإن كان هناك سحرة مشعوذون ، فهم في كل الأجناس يدعون القدرة على ذلك كذبا .

ونجد الكاتب يناقض نفسه فيقول عبر رسالة أرسلها صلاح الدين إلى ريتشارد قلب الأسد مع طبيبه (ادونبك) يقول فيها :

> وإنه لايوجد لديك سوى أولئك الأطباء من النصارى واليهود الذين يعملون دون الاستعانة بذكر الله ولا رضى الرسول الكريم محمد ... لذلك أرسلنا لكم طبيبنا الخاص ليعتني بكم ويرعاكم وهو (ادونبك الحكيم) ... ... إن له دراية بفوائد الأعشاب والأحجار ويعرف مسار الشمس والقمر والكواكب والنجوم ويستطيع أن ينقذ الانسان من أي شيء لم يكتب على جبينه [1] .

نعم هذه حقيقة ، فالمسلمون في ذلك العهد بلغوا غاية مابلغوا في مجال الطب (معرفة أنواع الأعشاب المداوية للأمراض) ونبغوا في مجال الفلك . إضافة إلى ذلك هم مؤمنون بالله وبرسوله وبأن لكل أجل كتابا فإذا جاء أجل الانسان لا يستأخر ساعة ولا يستقدم . والطبيب يفعل مايقدر عليه ويبذل جهده ويقدم مايعرف فيه الشفاء .

فالرسالة التي أرسلها صلاح الدين للملك ريتشارد - كما دونها المؤلف - تعبر عن الحقيقة ، وتنفي نسبة نبوغ المسلمين في الطب إلى الطلاسم كما هو موضوع الرواية .

الرواية - كما سبق وأن أشرنا - مليئة بالمفارقات التاريخية وهذه المفارقات - في معظم الأحيان - مصدرها إما جهل المؤلف بهذه

---

(١) *Ibid.*, P.77.

الحقائق وضيق اطلاعه في الأفق الثقافي والفكري للأمم وإما تعصب ديني عرقي لاغير .

ونحن نجده في فصل من فصول الرواية يُنسب عصا موسى إلى هارون[1] ، ونسبة العصا إلى موسى حقيقة دينية تاريخية وردت في جميع الكتب السماوية ، ولا تفسير لنسبتها إلى هارون سوى جهل المؤلف ببعض الحقائق الدينية .

ونقرأ للدكتور سعيد عاشور ماذكره في كتابه الحركة الصليبية نقلا عن النوادر السلطانية والروضتين ومفرج الكروب ما مضمونه أن : "ريتشارد لم يلبث أن اعتراه المرض في يافا ، فأبت شهامة صلاح الدين واعجابه بخصمه الا أن يمده بما يحتاج إليه من دواء وفاكهة . ويفهم مما ذكرته المراجع أن ريتشارد دأب في مرضه على طلب الفاكهة والثلج من صلاح الدين فكان صلاح الدين يستحضرها خصيصا له ويرسلها إليه"[2] . وعلى هذا نجد أن التاريخ لم يذكر أن صلاح الدين قد ذهب بنفسه متنكرا لعلاج قلب الأسد كما ذكر سكوت . ولم يرسل طبيبه الخاص لعلاجه كما هو شائع ، وإلا كان المؤلف وكتب التاريخ قد ذكرت ذلك ، إنما كان صلاح الدين يرسل لريتشارد الأطعمة والثلج والفاكهة كما ورد آنفا .

فما الفرق ؟ وهل أضاف سكوت جديدا ؟!

الحقيقة ، إن سكوت أضاف "جديدا" إلى العمل الفني ، حيث كان من الضرورة (في حبكة الرواية) أن يذهب صلاح الدين بنفسه متنكرا في هيئة الحكيم ، وذلك للوصول إلى النهاية التي افترضها . ولكي يكتمل رسم شخصيتي (شيركوف) والسير (كينيث) اللتين وصفتا بأنهما من الشخصيات المستديرة .

ونجد التاريخ[3] - كذلك - يقول : إن ريتشارد قلب الأسد طلب الصلح مع صلاح الدين . ففي كتاب الحركة الصليبية يقول المؤلف نقلا عن ابن واصل في كتابه مفرج الكروب جـ٢ صـ ٣٩٩ : "إن ريتشارد نفسه لم يخف عن المسلمين رغبته في العودة السريعة لسوء أحوال بلاده أثناء غيابه ، فقال لأحد امراء المسلمين عقب استيلائهم على يافا : سلم على السلطان وقل له ، بالله عليك أجب سؤالي في الصلح ، فهذا الأمر لابد له من آخر . وقد هلكت بلادي وراء البحر - ومافي

---

(1) *Ibid., P.31.*

(٢) سعيد عبدالفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، ط ٢ ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧١ ، جـ٢ ، ٨٩٦ - ٨٩٧ وانظر كذلك صـ ٨٧٢ ، وقد رجعنا إلى الروضتين وإلى النوادر السلطانية ووجدنا المضمون نفسه بعبارات مختلفة عن النص المذكور متفقه بين المصدرين ، ولم نجد غيره .

(٣) الغربي والعربي .

دوام هذا مصلحة لنا ولا لكم"[(١)] .

وقد عرض الملك ريتشارد على صلاح الدين حلا آخر للصلح ولحل مشكلة بيت المقدس حيث : "اقترح زواج اخته جون بأخي صلاح الدين فيكون لها يد في ادارة بيت المقدس"[(٢)] . وعلى هذا اتضح أن كتب التراث العربية والغربية تشير إلى أن ريتشارد قلب الأسد هو الذي اقترح الصلح مع صلاح الدين واقترح أيضا زواج اخته جون أو (جوانا) من الملك العادل . ولكن سكوت عكس الحقيقة فجعل صلاح الدين هو الذي يقترح الصلح ويقترح الزواج من الأميرة أديث . وفي حين أن التاريخ يشير إلى أن الزوج المقترح كان الملك العادل وأن الزوجة كانت أخت الملك ريتشارد ، نجد سكوت يجعل الزوج المقترح هو صلاح الدين نفسه وأن الزوجة أو الأميرة ، احدى قريبات الملك ريتشارد وليس اخته .

وهناك مفارقة تاريخية أخرى وهي ، أن الرواية ذكرت اجتماع الملك ريتشارد بالسلطان صلاح الدين ، على طعام ومحادثه ، في الفصول الأخيرة من الرواية ، في حين أن الحقيقة التاريخية تنفي ذلك : "وحسبنا مايرويه ابن واصل بعد ذلك مباشرة من اجتماع الملك العادل وريتشارد سويا على (طعام ومحادثة) ، وكيف أن ريتشارد طلب الاجتماع بصلاح الدين نفسه ولكن الملك العادل رفض طلبه وقال : إن الملوك اذا اجتمعوا تقبح بينهم المخاصمة بعد ذلك ، وإذا انتظم أمر حسن الاجتماع"[(٣)] .

وعذر سكوت في هذه المفارقات التاريخية هو أنه مبدع وفنان وليس مؤرخا ولا عالما ، ولو أننا نشم رائحة تعصب (صليبي) في معظم هذه المخالفات أو المفارقات .

(٥) <u>اللغــــــــــة</u>

بمقارنة رواية السير ولتر سكوت بغيرها من الروايات ـ سواء روايات معاصريه أو من أتى بعده ـ نجد أن للسير ولتر سكوت طريقته الخاصة في اختيار الألفاظ . فجنوحه ، وعودته إلى عالم العصور الوسطى ، والعيش في

---

(١) المرجع نفسه ، صـ ٨٩٧ ، كذلك ص ٨٨٠ . وقد رجعنا إلى النوادر السلطانية ووجدنا المضمون نفسه .

(٢) Langer, William L., _An Encyclopedia of history._ fifth edition, London, Harrap, P.275.

وانظر كذلك ابن الأثير ، <u>الكامل في التاريخ</u> ، جـ ١٢ ، صـ ٧٣ وسعيد عاشور <u>الحركة الصليبية</u> صـ ٨٨١

(٣) سعيد عاشور ، <u>الحركة الصليبية</u> ، صـ ٨٨٣ . ورجعنا إلى النوادر السلطانية والروضتين ووجدنا العبارة نفسها .

ذلك العالم بشكل مافيه من مظاهر وعادات وحقائق تاريخية (اجتماعية وسياسية) ، جعله يخلق عالما يذوب ، بكل مافيه ، في ذلك العصر . فيتفاعل عالم الحقيقة الماضي بالعالم المختلق ويولدان سويا إحساسا جديدا ، له طعم جديد ، ورائحة خاصة .

إن ألفاظا مثل Saracen (مسلم) ، Nazarene (نصراني) ، Knight (فارس) ، Holy Sepulchre (الضريح المقدس) ، Crusader (صليبي) ، Sabre (سيف عربي) ، Palmer (حاج نصراني) ، Chivalry (فرسان أو فروسة) ، Pilgrim (حاج نصراني) ، Helmet (خوذة محارب) ، Frank (أفرنجي) ، Moslemah (مسلم) ، Turban (عمامة) ، Glory (مجد) ، Warrior (محارب) ، Paynim و Pagan (وثني) ، infidel و Unbeleiver (كافر) ...... الخ . تلك الكلمات ، مختارات من العصور الوسطى خاصة القرون العاشر والحادي عشر والثاني والثالث عشر حيث الحروب الصليبية – والاحتكاك المباشر بالعرب والمسلمين في الشام ومصر وغيرها من البلدان . هذه الكلمات هي أصل اللغة في قاموس روايات سكوت ، وبشكل خاص تلك التي يمكن تصنيفها تحت عنوان (قصص الصليبيين)(1) .

ونحن الدارسين نستطيع أن ندرك نوع العلاقة التي ربطت الشرق بالغرب ، من خلال مجموعة من الألفاظ ، ونوع خاص من اللغة أدرجه المؤلف في قاموسه ليجسّم تلك العلاقة ويجعلها حقيقة حية مرئية .

كان المؤلف على درجة من الذكاء كبيرة ، فلقد أجرى معظم لغة رواياته وألفاظه على لسان شخصياته الرئيسة لتنساب فى مسامع القراء دون افتعال أو تكلف ، فيبث أفكاره ووجهات نظره دون عناء أو تمهيد .

إن لفظ (Saracen) ، كلمة أطلقها الصليبيون على المسلمين الذين يمثلون قوة المواجهة أمامهم . فارتبط هذا اللفظ بكل أنواع الكره الذي يكنه الصليبي للمسلم . فهذا اللفظ مع ألفاظ تسانده مثل : Infidel و Pagan و Paynim و Unbeleiver و Moslemah ... هذه

---

(1) The Talisman, The Betrothed, Ivanhoe and Count Robert of Paris= (Tales of The Crusaders).

الألفاظ مجتمعة أو متناثرة تشير إشارة واضحة إلى نوع العلاقة القائمة بين الصليبي وعدوه المسلم .

فنجد الكاتب حيث يقيم موقفا (أدبيا) معينا يجتمع فيه المسلم بالصليبي، سرعان مايجري مقارنة عفوية يصور فيها المسلم مجتمعة فيه تلك الصفات، والصليبي متحررا منها . وهكذا يجعل من اجتماع الصليبيين وتجمهرهم وتركهم أوطانهم وأهلهم، سببا وجيها وقويا وهو أن بيت المقدس، هذا المكان الطاهر المقدس تدنسه أيدٍ غير (نصرانية) هي أيدي هؤلاء الذين وصفهم بتلك الصفات !! .

إذا أتينا إلى الطرف الآخر في الصورة نجد أنها صورة الصليبي الفارس الشهم الشجاع : The Crusader و Pilgrim و Knight و Templars و Nazarene و Chivalry ثم الـ Holy Sepulchre –– فهي صورة الفارس النصراني (الصليبي) الذي ضحى بكل شيء وذهب ملبيا نداء الرب كما يزعمون حاملا الصليب (Cross) لينقذ الـ Holy Sepulchre من عبث المسلمين !! هذا النصراني الذي اتصف بالشجاعة والفروسية والتدين، عندما يعود من بيت المقدس (منتصرا أو منهزما) يحمل معه جذعا من سعف النخيل ويكون هذا رمزا يدل على أنه قد حج إلى بيت المقدس Palmer وعاد أكثر حكمة وتعقلا .

وسوف نختار بعض النصوص نرى من خلالها صورة المجاهد المسلم أمام الصليبي النصراني :

يختصر المؤلف وصف المجاهد المسلم فيقول :

إن المسلم Saracen يشكّل صورة متناقضة أمام صورة الصليبي الغربي Crusader .(١)

هذا بعد أن يصف الصليبي ليكون في أحسن هيئة يرتضيها .

ويقول السير (كينيث) لصديقه شيركوف متعجبا من استهتاره بعاطفة الحب العذري التي يؤمن بها الصليبي – على حد زعم المؤلف :

Saracen. (أيها المسلم) إنك تتحدث مثل إنسان لم

---

(١) Scott., The Talisman, P.17.

ير امرأة تستحق عاطفة جندي [١] .

هذا بعد أن يشير إلى فروسة الصليبي وشهامته وتقديره الشديد للمرأة وعفته في علاقته معها .

وفي مكان آخر من الرواية يقول السير (كينيث) لمرافقه (شيركوف) الذي أشار إلى استعداده لمرافقته إلى مكان ناسك انجادي :

إنك تقدم خدمة طيبة لي ، بالرغم من أنه سيكون خطرا على أمن الناسك . ذلك أن أيدي رجالكم الباطشة قد تلطخت بدم هؤلاء الذين وهبوا أنفسهم لخدمة الرب [٢] .

إن المؤلف يشير إلى الحقد الذي ملأ قلوب النصارى الصليبيين تجاه المسلمين .

وفي مكان آخر يقول المؤلف على لسان (شيركوف) المسلم ، الذي وقع فريسة حقد الناسك ـ المتنكر في جلد ماعز ـ الذي انقض عليه انقضاض الذئب :

هاماكو ـ يا أحمق ـ أتركني ـ إن هذا الأمر يتعدى خصوصياتك ـ أتركني وإلا فسوف استخدم خنجري .

فرد المتنكر في جلد شاه قائلا : خنجرك ! (ياكافر) Infidel. [٣] ـ ـ ـ ـ ـ [٤]

وبعد ذلك نجد المسلم (شيركوف) وهو الشجاع القوي يطلب المساعدة من الصليبي الذي كان يرافقه إلى كهف ناسك انجادي ، وتتجسم الشهامة والفروسة في سلوك الصليبي فينقذ مرافقه المسلم من موت محقق :

يصيح شيركوف بعد أن بدا له خطورة الموقف :

النجدة ، (يانصراني) Nazarene ، النجدة والا فسوف يذبحني هاماكو [٥] .

فنجد المؤلف قد ربط صفة الشهامة والنجدة بالنصراني الصليبي . ونحن نرى أن اختيار المؤلف لتلك الألفاظ ووضعها في تلك المواقف كفيل بإعطاء الصورة المطلوبة للقارىء في أي عصر وفي أي مكان !! .

---

(١) Ibid., P.20.

(٢) Ibid., PP.21-22.

(٣) Ibid., P.33

(٤) ـ ـ ـ كلام لا يستحب ذكره .

(٥) Ibid., P.33.

يقول السير (كينيث) لرفيق رحلته (شيركوف) المجاهد المسلم :

Saracen (أيها المسلم) الشجاع ، لو لم أكن في

مهمة أداء الحج إلى الضريح المقدس ، لكان من دواعي

سروري وفخري أن أسير معك ، ومعك الأمان ، إلى

مخيم ريتشارد - انجلترا - الذي لا يكاد أحد يصدق -

كم يقدر عدوه إذا كان كريم الأصل .[١]

ولكنه مشغول بما هو أهم . مشغول بأمر يتعلق بالدين والملك والوطن :

علي أن أقضي هذه الليلة في الصلاة وطلب التوبة

مع رجل صالح . إنه (شيودريك) انجادي الذي يقيم

في هذه القفار الموحشة ويقضي حياته في خدمة الرب[٢] .

وفي مكان آخر يقول : إن المسلمين المتوحشين قد لطخوا أيديهم بدم

الرهبان والمتنسكين ولذلك :

جئنا إلى هنا بالعدد والعدة بالسيف والرمح كي نفتح

الطريق إلى الضريح المقدس من أجل أن نحمي القديسين

المختارين والنسّاك الذين مازالوا يقيمون في أرض

الميعاد والمعجزة هذه[٣] .

وبهذه الصور ، وتلك المواقف والألفاظ واللغة استطاع السير ولتر سكوت أن يرسم صورة مشوهة - إلى درجة بعيدة - للمسلمين . وبهذه الألفاظ استطاع المؤلف أن يقنع القارئ الغربي بأن شعاع العلم والحضارة التي انبثق من عالم الشرق (عالم المسلمين) وشل أعضاء الابصار عند الغرب ، لفترة طويلة ، شعاع كاذب وخدعة جريئة استعان فيها المسلمون بالجن والقوى الخفية . فهذا هو الطبيب العربي المعروف (طبيب صلاح الدين) يستعين بطلسم سحري فيزيل به آلام المرضى . وها هو صلاح الدين الأيوبي أقوى وأعظم قائد مسلم أنزل الرعب في قلوب الصليبيين ، ينحدر من سلالة أصلها من الجن[٤] .

---

(١) *Ibid.,* P.20.

(٢) *Ibid.,* P.22.

(٣) *Ibid.,* P.22.

(٤) *Ibid.,* P.29.

هذه الصور جاءت عفوية غير متكلفة أودعها المؤلف - بوحي من خياله - طيات الحقائق التاريخية ، فجاءت أشبه ماتكون بصور ومواقف حقيقية ونحن إن لم نكن على صلة بتاريخنا وعلى معرفة بالحقائق وأصولها لا ندرجنا تحت من اقتنع وصدق من الغربيين !! .

صورة الشرق في رواية الطلسم :

امتلأت رواية الطلسم بالكثير من صور الشرق في العصور الوسطى وقد قام المؤلف بعرض شريط من المواقف صور فيه الشرق في مجالات عدة من مجالات الحياة .

والسؤال الآن هو : كيف وصل السير ولتر سكوت إلى هذه الصور؟؟! هل هي نتيجة احتكاك مباشر بالشرق ؟ أم هو مجرد خيال استطاع المؤلف الوصول إليه بما قرأه وسمعه من القصص الشعبي العربي وألف ليلة وليلة ؟!

المعروف أن السير ولتر سكوت لم تمكنه ظروفه من زيارة الشرق ، وعلى هذا فهو لم يجد الفرصة للاطلاع بأم عينه على بلاد الشرق ، ولم تسنح له الفرصة بالاحتكاك بالشرق بشكل مباشر .

فكيف توصل إلى تكوين تلك الصور الشرقية في رواية الطلسم؟! ، يقول (دبليو . ام . باركر W. M. Parker في تقديمة لرواية الطلسم طبعة ١٩٨٠م:

> عندما كان سكوت يؤلف الرواية[١] ، أقام جون كيرن
> John Carne الكاتب الرحالة في أبوتسفورد[٢] ومنه - وهو
> الذي جاء حديثا من الأرض المقدسة - استقى سكوت
> انطباعا واضحا عن الجو الاقليمي المحيط بالبحر الميت
> وانجادي[٣] Engedi .

ويضيف صاحب المقدمة وهو على ثقة تامة من نجاح السير ولتر سكوت في الوصول إلى روح الشرق بكل جوانبه قائلا :

---

(١) الطلسم

(٢) Abbotsford, هي المنطقة التي كان يعيش فيها سكوت .

(٣) Scott, Sir Walter. The Talisman. P. V.

.. لم يكن ضروريا بالنسبة لسكوت زيارة الشرق من أجل أن يرسم الاقليم رسما دقيقا ، فقد اعتمد على ماذكر (كيرن) وعلى قراءاته الشخصية من أجل أن يخلق الجو المناسب .(١)

ومن خلال كلام صاحب المقدمة يتضح أن من ضمن المصادر التي اعتمد عليها سكوت في رسم صورة الشرق وخاصة البيئة الاقليمية هو انطباعات صديقه الكاتب الرحالة عن الشرق الذي شاهده بأم عينه .

ولكن ماذا عن صورة الحياة اليومية الشرقية من مأكل ومشرب وملبس ولهو ... وماذا عن القصص الشعبية والخرافات الشرقية ؟! وهي التى تملأ أجزاء الرواية - ؟ كيف توصل إليها المؤلف؟! .
والجواب على هذا السؤال واضح ، فالمؤلف اعتمد اعتمادا كبيرا على قراءاته المكثفة في كتب التاريخ في العصور الوسطى والتي كتبها مؤلفون غربيون ، وعلى ماترجم من قصص شعبية عربية ، وعلى ترجمة ألف ليلة وليلة واعتماده على هذه المصادر واضح كل الوضوح ، من النصوص .

يقول (دبليو . ام . باركر) في تقديمه لرواية الطلسم :

وحقيقة ، كانت رواية الطلسم من أولى الروايات الانجليزية التي أشادت بالمسلمين .(٢)

فهل هذا صحيح؟! سنعرف من خلال النصوص مصادر استقاء المؤلف لصور الشرق وكيف حول الكاتب هذه الصور لتخدم قضيته وأمته .

يمكن أن يكون المؤلف قد استفاد من صديقه الرحالة الكاتب ، في تصوير صحراء الشام والواحات المنتشرة في أحضانها والتقط من تلك الواحات واحة (نجمة الصحراء) التي استراح بالقرب منها السير (كينيث الليوباردي) ورفيقه (شيركوف) وهما في طريقهما إلى ناسك انجادي . ثم هي بالتالي تمثل نقطة انتصاف المسافة بين معسكر الصليبيين ومعسكر المسلمين ، والتي تم فيها إجراء المبارزة بين (الماركيز كونراد) و (الفارس الاسكتلندي) .

---

(١) *Ibid.*, P. VIII.

(٢) Scott., The Talisman, (1980) P. IX

ويمكن - أيضا للسير ولتر سكوت - أن يكون قد استفاد من (كيرن) في وصف طعام الشرقيين العرب الأساسي وهو التمر والماء :

كانت حفنة من التمر ، ولقمة من خبز جاف كافية
لاشباع جوعه ... ... ثم جرعات قليلة من ماء النبع
الصافى الذي استراحا بقربة أكمل بها وجبته[(١)] .

أما بالنسبة للملبس واللهو والقصص والخرافات الشعبية ، فلاشك أن المؤلف قد اعتمد في تصويرها على ماقرأه من ترجمات لألف ليلة وليلة والقصص الشعبية العربية :

يقول المؤلف واصفا موقف (شيركوف) عندما أراه (السير كينيث) خطاب الأمان الذي يحمله من صلاح الدين الأيوبي :

عندما تعرف إلى توقيع وكتابة السلطان المشهور،
سلطان مصر وسوريا ، أحنى الفارس رأسه إلى التراب ،
ثم بعد أن قبل الرقعة باحترام وإجلال رفعها إلى جبهته[(٢)] .

وفي ألف ليلة وليلة الكثير الكثير من هذه الصور ، نأخذ منها ما يهمنا في حكاية الوزيرين وأنيس الجليس ، الليلة السابعة والثلاثين :

فقال الخليفة : أنا أكتب لك ورقة توصلها إلى
السلطان محمد بن سليمان الزيني ، فإذا
قرأها لا يضرك ..
ثم أعطى (الخليفة) على نورالدين بن خاقان الكتاب
فأخذه نورالدين وقبله وحطه في عمامته ونزل
في نفس الوقت مسافرا وطلع قصر السلطان ثم صرخ
صرخة عظيمة فسمعه السلطان فطلبه ، فلما حضر
بين يديه قبل الأرض قدامه ثم أخرج الورقة وأعطاها
إياه فلما رأى عنوان الكتاب بخط أمير المؤمنين قام
واقفا على قدمية وقبلها ثلاث مرات[(٣)] .

أما بالنسبة لموضوع الطلسم وعمله فيقول مؤلف الرواية ، إن الحكيم:

---

(١) *Scott., The Talisman, P.18.*

(٢) *Ibid., P.21.*

(٣) ألف ليلة وليلة ، ص ١٨٥ - ١٨٦

أخرج من مخبئه طاسة فضية وملأها بماء متبق بجانب السرير . ثم أخرج - بعد ذلك - من مخبئه كيسا صغيرا من الحرير المصنوع باليد مربوطا بخيوط الفضة ، لم يستطع أحد أن يكتشف مابداخله فغمس محتواه داخل الطاسة واستمر يراقب في صمت لمدة خمس دقائق . ويبدو للناظر أن غليانا ما قد حدث خلال العملية ولكن لمجرد حدوثه سرعان ما خمد .[١]

ويقول الراوي في ألف ليلة وليلة ، (حكاية المدينة المسحورة الليلة الثامنة) :

ثم قامت[٢] وخرجت من القبه إلى القصر وأخذت طاسة ملأتها ماء . ثم تكلمت عليها فصار الماء يغلى كما يغلي القدر ثم رشته منها[٣].

والفرق أن (الحكيم) فى رواية السير ولتر سكوت جعل المريض يشرب المحلول بينمافي ألف ليلة وليلة رشت الفتاة الساحرة الماء على الفتى المسحور فشفى كما شفي الملك وقبله المحارب الصليبي وبعده الكلب (روزول) .

أما عن قصة أصل الكردستانيين والتى تحكي قصة الملك الطاغية والسبع بنات اللاتي أنقذهن سبعة شبان . حيث طلبوا منهن سبع شعرات من كل واحدة شعرة وبذلك أمكنهم إخفاء البنات السبع في مكان بعيد لا يراه أحد من الإنس . وبعد فترة من الزمن ظهر في أرض وادي كردستان سبعة شبان شجعان أقوياء في ساحة القتال متميزون بطول وسمرة في اللون وقوة وصلابة عن نظرائهم فى وادي كردستان . وقد تزوج هؤلاء الشبان من سبعة بنات من وادي كردستان وكونوا بذلك أصل القبائل الكردية السبع المشهورة في العالم أجمع .[٤]

قصة السبع بنات ، اللاتي يخطفهن سبعة شبان من الجن ، ويتزوجون بهن ، لايبعد فحواها عن ما جاء في قصص الشرق الشعبية ، والموجودة في ألف ليلة وليلة ، خاصة التقيد بالعدد (سبعة) و (ثلاثة) و (الجبال)

---

(١) Scott., The Talisman, P.80.

(٢) فتاة ساحرة

(٣) ألف ليلة وليلة ، ص ٤٦

(٤) Scott., The Talisman, PP. 30-31.

و (الوديـان) ومـا يعـتري ظهـور الجـن من حـالـة في المكان الذي يظهـرون فيه :

دوى صـوت كالرعـد ، واهـتزت الأرض ، وتشـققت أعـمدة القصـر،
ومن فجـوة ظهـر شخص يرتـدي لبـاس الصيـادين يحمل قوسـا
وسهـاما وتبعـه سـتة مثلـه . إخـوتـه [١] .

وفي ألف ليلة وليـلة ورد في حكـاية الصعـلوك الثـانـي :

لمـا رفسـت القبـة ماشعـرت إلا والأقطـار قـد أظـلـمت
وأرعـدت وأبرقـت ، وتـهزهـزت الأرض وأطـبقت الدنيـا
... ... فرأيت الأرض قـد انشقت ، وطلع منهـا عفريت . [٢]

هـذه الصـورة نـراهـا في معظـم المشـاهد التي تظهـر فيهـا عفريت أو عفريتـه فـي ألف ليلة وليـلة .

أمـا صـور الأبـواب السـرية في الكهـوف أو القصـور والتي تـؤدي إلى درج أو سلم إمـا أن يكـون فيه عـدد (سـبعة) أو (أربعـون) ، أو أنه سـلم طـويل يقـود إلى سـاحة مضـاءة بالشـموع وأعـمدة مكسـوة بـأفخـر أنـواع السجـاد ، وأرض مفروشـة بنفيسـه ، وسـتائر مصـنوعة من أغـلى أنـواع الحـرير وشـاب أو فتـاه غـايـة في الجمـال . إمـا أنهـا مسجـونة أو أنه يتنسـك ... إلى آخـر هـذه القصص الخـرافيـة الشـعبية .

هـذه الصـورة أدرجهـا السـير ولـتر سـكـوت في روايـتـه عندمـا دخـل السـير (كينيث) كهـف نـاسـك انجـادي ثم نـزل برفقـة النـاسـك عبـر درجـات سـلم طـويل إلى الكنيسـة تحـت الأرض ووصـف مـافيهـا من فرش وشـموع وقنـاديـل وأعـمدة ثم فتيـات جـميلات يـؤدين الصـلاه ، بينـهن فتـاة غـايـة في الجـمال يقـع في غرامهـا وتبـادلـه الفتـاة الشعور نفسـه ثم يرتـبط قـدره بهـا بقيـة الروايـة إلى أن يجتمـع معهـا بالزواج . [٣]

إن مثـل هـذا النـوع من القصـص والمشـاهد كثـير في ألف ليلـة وليـلـة :
السـراديب ، والمنـازل تحـت الأرض التي يعـثر على أبـوابهـا إمـا بطـريق الصـدفة أو بـارشـاد أحد ، والسـلالم التي تقـود إلى قـاعات كبيرة مفروشـة بـأحسـن

---

(١) *Ibid.*, P.30,

(٢) ألف ليلة وليـلة ، صـ ٦١ - ٦٢

(٣) Scott., *The Talisman*, PP.42-47.

الفرش وأغلاه ، وفتاة أو فتى جميل يعيش في هذه المنطقة له قصة غامضة يكشفها الذي اكتشف الطريق إليه[1] •

ففي (حكاية ابن خصيب والفارس النحاسي) يقول الرواي :

ونبشت التراب ، ونقلته وصبرت نفسي حتى أنزلت جميع التراب فانكشف الطابق ، فإذا هو خشب مقدار حجر الطاحون فرفعته فبان من تحته سلم حجر عقد • فتعجبت لذلك ونزلت في السلم حتى انتهيت إلى آخره فوجدت بنيانا نظيفا مفروشا بأنواع البسط والحرير والصبي جالس على مرتبة عالية متكيء على مخدة وفي يده مروحة وبين يديه مشموم وَرياحين وهو وحده[2] ••

وفي حكاية (الجارية والأختين الحاسدتين) تقول القصة :

ووجدت بابا مفتوحا ، ووجدت فيه سلما بسبع درج • فصعدته فرأيت مكانا مرخما مفروشا بالبسط المذهبة ووجدت فيه سريرا من المرمر مرصعا بالدر والجواهر •• •• وأردت النوم فلم أستطع ولحقني القلق ، فلما انتصف الليل سمعت تلاوة القرآن بصوت حسن رقيق • فالتفت إلى مخدع فرأيت بابه مفتوحا فدخلت الباب ونظرت المكان فإذا هو معبد وفيه قناديل معلقة موقدة وشمعدان وفيه سجادة مفروشة جالس عليها شاب حسن المنظر وقدامه ختمة مكرمة وهو يقرأ[3] •

إن بعض الأحداث والنصوص التي تتعلق بالدين الاسلامي في الرواية لا تطابق حقيقة هذا الدين ، ويبدو أن الأمر راجع إلى جهل المؤلف حقيقة هذا الدين وبالتالي فهو يعمد إلى وضع صور غير صادقة لتلك المواقف •

---

(١) ألف ليلة وليلة (حكاية الصعلوك الثاني) صـ ٦٠ – ٦١

(٢) المصدر السابق صـ ٧١

(٣) المصدر نفسه صـ ٧٨

ففي وصفه لصلاة (شيركوف) يقول :

وأدار المسلم وجهه نحو القبلة ، الوجهة التي
يتوجه إليها كل إنسان يتبع الرسول ، عند صلاته
وأخذ يتمتم بصلاته الوثنية[١] .

فهو يصور صلاة المسلم من منظور نصراني . وهكذا الأمر في كل موقف يشير فيه المؤلف إلى الصلاة في الاسلام . وهو دليل على اجتهاداته وجهله للوصول إلى حقيقة ما .

ففي مكان آخر في الرواية يقول :

لجأ الحكيم بعد ذلك إلى آلة الاسطرلاب التي هي
من اختراع الشرق . ونظر في دقة ووقار ، إلى
أن حان الوقت المضبوط لأداء صلاة المساء فغاص
معتمدا على ركبتيه متجها بوجهه نحو مكة ورتل
قطعا ينتهي بها يوم مليء بالعمل للمسلم[٢] .

ويقول في مكان آخر في وصف موقف إسلامي :

عندما انبثق أول شعاع للشمس راميا بسهمه رمال
صحراء سوريا أمر الحكيم بايقاف سير القافلة
ونزل ليؤذن في الناس الآذان الذي يسمع من كل
مسجد : إلى الصلاة - إلى الصلاة - الله اله واحد
- إلى الصلاة - الوقت يطير منكم - إلى الصلاه -
القيامة تقترب منكم[٣] .

وتلك صورة غير حقيقية ولا تطابق واقع حال الآذان ووقت الصلاة في الاسلام .

وفي مكان آخر يظهر جهل المؤلف بأمور تاريخية تتعلق بالاسلام ، وهو يدعو علي بن أبي طالب ، أسد الله . ومعروف في الاسلام أن أسد الله هو حمزة بن عبدالمطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، يقول على لسان الحكيم :

.. علي ، قريب الرسول وهو من المجاهدين ويلقب

---

(١) Scott., The Talisman, P.40.

(٢) Ibid., P.79.

(٣) Ibid., P.197.

بأســـد اللـــــه[1] .

ونجـده كذلك يعمد الى (وضع) مقطوعات ينشدها على لسان الحكـيم – ويزعم أنهـا قرآن ، وماهي بقرآن ، إن هى إلا أناشيد يبدأون بها سـير القافلة :

اللــــه هـــادينـا ، ومحـــمد حامينـا ، في هـــذه الأرض

العــراء كما يحمينـا في مواطـن المـــاء[2]

ونجـد المؤلف – في بعض الأحيـان – يحـاول أن يستعين ببعض أمثال عربيـة ولكنـه يفشل في ذلك . فالعـــرب يقولــون أكلنـــا خبزا وملحـــا . أي خـــبزا مغموســـا بالملـــح . وهـــو مثـل يدل على حســـن العشـــرة والصـــداقة والرغـــبة فـي استمرارهـــا ، والمؤلف يقـول على لســان الحـكيم : أكلنـــا ملحـا[3] .

وهـــو أمـر نـاتج – بالطـــبع – عن جهـــل بالثقافـة العـــربية .

ثم إن المؤلف يصـــف صلاح الدين ببراعـته المتنـاهــية في مجـال الطب (والطلاسم) حـيث أولـي القـــدرة على وصـف العـــلاج لكل داء[4] . وهـذا يغـاير الحـقيقة فلـــم يكـن معـروفا عن صـلاح الدين من ضـمن الصـفات التي نقلـهـا التـاريخ عن هذا القائد أنه يجيد مهنة الطب ، وربمـا يكون هذا الاعتقـاد عـائد إلى اشتهـار العرب المسلمين بالثقافة الطبيـــة في العصـور الوســطى حـيث كـانت أوروبـا تعـيش في ظـلام دامـس ، فـاعتقـــد الأوربيـون – حــينذاك – أن كل المسـلمين أطبـاء وخاصـة أصحاب المنـاصب العليـا !! .

ويزعـم المؤلف أن الحـاج عبداللـه مبعـوث صـلاح الدين – كما وصـفه فى روايته – كان قـد حـج إلى مكـة ثلاث مـرات ، ومـع ذلك فهـو يصفه بالنفـاق حيث أنه يقــوم بفعـل مايفعلـه النصــــارى من شــرب خـمر وغـــيره ويجاهـــر بذلك ، وذلك فـــي غيــاب المجـــتمع المســـلم . وفـــــي الروايـــــة نراه يخلع عمامته ليرتـــدي زيا أغريقيـــا ، فكأنه يغـــير هـويته وجـلده ، ثم يترنح طـربا بصوت الغنـــاء القبرصـــي ، ويعـب مـع جلســـائه النصــارى من الخمر القبرصــــي – كما وصف المؤلـف – ثم عندمـــا يـأتـي صـــلاح الدين في اليـوم المحـدد للمبـارزة ، يلـبس الحاج عبداللــه هـذا ، لبـاس المســلم وينحـني انحـنـاءة المجـوس ليحي الســلطان[5] . وهـي صـــورة

---

(١) *Ibid.*, P.102.

(٢) *God be our Guide, and Mohammed our protector in the desert as the Watered-field.* P.195.

(٣) *Scott., The Talisman*, P.205.

(٤) *Ibid.*, P.202.

(٥) *Ibid.*, P.237.

مشوهة للمسلم - كما ذكر صلاح الدين نفسه ، في الرواية ص ٢٤٦ ٠

ويدعي المؤلف أن صلاح الدين على اتصال دائم برهبان النصارى ونساكهم يسألهم النصح والارشاد ! وهو أمر غير مقنع ٠ فهل خلت الأمة الاسلامية من علماء المسلمين القادرين على ابداء الرأي والمشورة خاصة في ذلك العصر؟! (١) ٠

ونجد المؤلف يشير إلى نقطة مهمة جدا في تاريخ احتكاك الصليبيين بالعرب وهي (الفروسية) ، فهو يستنكف أن يرد أصولها إلى العرب ، ولا يقف عند هذا الحد بل يتعداه إلى عكس الصورة الحقيقية ٠ فيرد أصولها إلى الغرب ويعقد مقارنة سخيفة بين (شيركوف) المسلم ممثلا للعرب في تعاملهم مع المرأة ، والسير (كينيث) في تقديره لها ٠ ويبدو أنه متأثر في ذلك بما روجه المستشرقون من قصص وحكايات عن العرب ! ٠

فهو يظهر العربي في شخصية الحكيم وقبله (شيركوف) و صلاح الدين ، أنه إنسان شهواني لا يتورع عن التحدث عن الجميلات ، في شهوانية وحب تملك بالغين ٠ وكأن المسلم لا يعرف إطلاقا مايسمى بالحب العذري ٠ يقول المؤلف على لسان المسلم متحدثا إلى الفارس الاسكتلندي الذي يمثل الفروسة في العصور الوسطى :

> أرجو المعذرة ، لقد نسيت توقيركم الخرافي لجنس
> المرأة ، الذي تعتقدون أنه يجب أن يتعجب به ،
> ويعبد ، من أن يسعى وراءه لامتلاكه (٢) ٠

وبعد حوار طويل بين الفارس الاسكتلندي و (شيركوف) المسلم حول مسألة إباحة تعدد النساء واتخاذ السرايا ، يقول الفارس الاسكتلندي لشيركوف :

> إنك تتحدث كانسان لم ير في حياته امرأة تستحق
> عاطفة جندي ٠ صدقني ، لو استطعت النظر إلى
> نساء أوروبا اللاتي أقسمنا لهن - بعد نداء الرب -
> نحن الفرسان - بالاخلاص والولاء ، لكنت شعرت
> بالاشمئزاز - للأبد - من هؤلاء الجواري المساكين
> اللائي يمثلن نساءكم (حريمكم) ٠

---

(١) *Ibid.*, PP.38-259.

(٢) *Ibid.*, P.207.

ولكن لماذا سيشعر المسلم بهذا الشعور ازاء نسائه في نظر هذا الفارس؟

إنه يوضح قائلا :

إن جمال نسائنا يمنح حرابنا قوة ، ويزيد
سيوفنا حدة . كلماتهن دستورنا . وان فارسا
قويا ، لا تدفعه عاطفة حب امرأة مثله مثل
قنديل يضيء بغير وهج .(١)

وفي ص٤٨ من الرواية يشير المؤلف إلى الفروسة في العصور الوسطى والتي يمثلها السير كينيث ، والى الحب العذري الذي يدفع الفارس الى عمل المعجزات من أجل كسب رضى محبوبته :

إن مشاعره وعواطفه نحو محبوبته والتي تجعلها
مخلوق ملائكي تتدفق بغير حساب . فهي تفرحه
إذا ظهرت ، وتحزنه إذا غابت . تنفخ فيه الحياة
بلطفها ، وتقوده إلى اليأس بإعراضها .. حياته
ملك إرادتها ...

فكيف وصلت المرأة في أوروبا إلى هذه المكانة وهي التي لم يكن أحد يعبأ بها ، لافي الأدب اليوناني ، ولا في الأدب الروماني ، ولا حتى أدب العصور الوسطى حتى القرن الحادي عشر إ؟(٢) .

يقول د. محمد غنيمي هلال في بحثه موضوع (قصص الفروسية) في كتابه إنه :-

في النصف الثاني عشر الميلادي ، ألف "أندريه لوشابلان"
كتابا باللاتينية سماه "فن الحب العف" وفيه
يذكر إدراكا جديدا للحب لم يكن للأدب الأوروبي به
عهد حتى ذلك القرن . وفيه ترتفع المرأة إلى مكانة
لم تحظ بها من قبل في أوروبا ، ويخفع الفارس لها
كما يخضع التابع للسيد صاحب الاقطاع في تلك
العصور ... الخ.(٣)

---

(1) *Ibid., P.20.*

(٢) محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ، ص ٢٠٤ – ٢١٢

(٣) المرجع نفسه. ص ٢٠٥

فكيف وصل (أندريه) نفسه إلى هذا المفهوم الجديد للحب في أوروبا ؟

يجيب على هذا التساؤل – مرة أخرى – الدكتور محمد غنيمي هلال :

> من يقابل بين قواعد الحب في ذلك الكتاب[1] وبين إدراك العرب لحب الفروسية العف ، كما كان في الغزل العذري – وبخاصة على حسب الكتب العربية القديمة التى درست هذه الحياة العاطفية عند العرب – يجد تشابها كبيرا بين هذين النوعين من الحب لدى العرب والأوروبيين في تلك الفترة . ومن أشهر هذه الكتب العربية كتاب "الزهرة" لأبي بكر محمد بن داود الاصفهاني الظاهري المتوفي عام ٢٦٩هـ (٩٠٩)م ، وقد حاكاه ابن حزم الأندلسي ... في كتابه "طوق الحمامة" والكتاب الأخير متقدم على كتاب (شابلان) المذكور قبل – بأكثر من قرن .[2]

ومادام الأمر كذلك فمن الطبيعي أن يكون العرب هم السابقين لادراك هذه العاطفة السامية . ولابد أن يكون الإحساس بهذه العاطفة قد نما عند الأوروبيين نتيجة احتكاكهم بالعرب في الحروب الصليبية وعن طريق الأندلس .

ولكن هناك كثير من المؤلفين والكتاب الغربيين ينكرون على العرب سبقهم في هذا المجال ويعتقدون – نتيجة لما يقرأونه في القصص الشعبي وألف ليلة وليلة وماكتبه المستشرقون المغرضون – أن العرب لم تكن تحترم المرأة في يوم من الأيام أبدا . ونحن في رواية الطلسم نجد السير ولتر سكوت متأثرا بذلك لاعتقاد غير الصحيح . ولسنا في صدد البحث عن دوافع هذا الاعتقاد عند المؤلف .

---

(١) كتاب (فن الحب العف) لأندريه لوشبلان

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠٧

الفصل الرابع

المخطوبة
The Betrothed 1825)

١ ـ البناء الروائي :

(١) العمل الروائي :

تدور أحداث الرواية حول العداء القائم بين الأجناس التي تسكن الجزر البريطانية ، زمن الحروب الصليبية ، وأسباب هذا العداء ، ومظاهره وتتحدث الرواية أيضا عن دور الكنيسة في الحملات الصليبية ، وما يجره ذهاب الفرسان الشجعان إلى الأرض المقدسة من ويلات على سكان المنطقة التي ارتحل عنها فرسانها للأرض المقدسة ، بسبب غارات القبائل والأجناس المعادية من النصارى أنفسهم في الجزيرة •

وقد حدد السير ولتر سكوت الفترة الزمنية للرواية تحديدا دقيقا ١١٨٧م[1] ومابعدها •

(٢) الحبكة :

قصة المخطوبة خليط من التاريخ والتراث الشعبي ، جمعه المؤلف السير ولتر سكوت ونقحه وأخضعه لمذهبه[2] ثم صبه في قالب رواية المخطوبة • والراوي في هذه الرواية هو المؤلف نفسه •

إن القصة تدور حول فتاة نورماندية الأصل ، شابة في مقتبل عمرها جميلة وعفيفة ، اسمها (افيلين) Eveline • والدها السير (ريموند بير نجر) Raymond Berenger يملك قلعة كبيرة محصنة وقوية[3] •

وكان ريموند والد (افيلين) على علاقة سيئة مع Gwenwyn أمير

---

(١) Scott, Sir Walter, The Waverley Novels: The Betrothed., Ch.1, P.311.

(٢) لقد سبق أن تحدثنا عن مذهب السير ولتر سكوت في تأليف الرواية التاريخية وموقفه العام من الحقائق التاريخية

(٣) Castle of Grade Doloureuse.

بريطاني ويلزي اشتهر بشجاعته وانحداره من أسلاف ملوك أقوياء[1] .
كان الأخير يكن لـ (ريموند) كراهية شديدة وقد حاول مرارا أن يهدم قلعته ويهزمه ولكن القلعة ـ كما ذكرنا ـ كانت قوية محصنة . وقد كان العداء القائم بين هذين الإقطاعيين يمثل العداء القائم في فترة الحروب الصليبية (العصور الوسطى) بين النورمانديين والانجليز .

وبعد تدخل القس الأكبر Baldwin للصلح بين الطرفين أقيمت احتفالات من قبل الطرفين بشأن الصلح دعا فيها (جوين وين) الانجليزي (ريموند) النورماندي مرة ، والمرة الثانية قام الأخير بدعوة الأول للاحتفال بعيد ميلاد المسيح . في هذه الاحتفالات تمكن (جوين وين) الأمير الانجليزي من رؤية (افيلين) ابنة (ريموند بيرنجر) النورماندي . وكانت ـ كما ذكرنا ـ فتاة شابة لا يتعدى سنها السادسة عشرة ، جميلة وعاقلة . فانبهر الأمير الانجليزي بجمالها وأرادها زوجة ، وأراد بهذا الزواج أن يربط الفئتين الانجليزية والنورماندية برباط متين يستغله فيما بعد للاستيلاء على قلعة والدها . وكان الأمير الانجليزي يرى في أصله أنه أرقى وأرفع شأنا ولن يتجرأ (ريموند) النورماندي ـ الأقل شأنا ـ أن يرد له طلبا ، فما كان منه إلا أن طلق زوجته العقيم بعد موافقة القساوسة وأرسل مبعوثا إلى والد (افيلين) يحمل خطابا يطلبها فيه من والدها . ولكن حدث مالم يكن يحسب له الأمير الانجليزي حسابا . لقد خيب (ريموند) ظنه ، ورفض تزويجه من ابنته بحجة أنها (مخطوبة) لأحد الفرسان الإقطاعيين النورمانديين وهو: (هوجو دولاسي)[2] . إضافة إلى ذلك فإن (ريموند بيرنجر) يرى أن في ذلك مصلحة الطرفين . ولكن الأمير الانجليزي (جوين وين) اعتبر رفض (ريموند) إهانة لا تغتفر . وقد تزامن هذا الوقت مع مناسبة الاحتفال بعيد الفصح وفي صبيحة اليوم الثاني من عيد الفصح فوجيء (ريموند) النورماندي وجنوده وسكان قلعته ، بجنود الأمير الانجليزي يحيطون بالقلعة ويحاصرونها . وكان (ريموند) قد توقع مثل هذا الفعل فأرسل إلى جميع معاونيه في القلاع المجاورة وخاصة صديقه (هوجو دولاسي) لطلب المساعدة . ولكن جنود الأمير الانجليزي كانت أسرع في القدوم .

---

(١) وكان المؤلف تارة يذكر أنه بريطاني وتارة أخرى ويلزي وتارة أخرى انجليزي

(٢) *Hugo De Lacy: The Constable of Chester.*

لقد كان (ريموند بيرنجر) النورماندي - كما ذكرنا - شيخا ولكنه كان قويا وجريئا وفارسا • استعد بنفسه لمواجهة (جوين وين) الانجليزي • وصمم أن تكون المواجهة خارج القلعه ، وذلك أنه في إحدى المناسبات التي أقيمت في احتفالات الصلح بين الطرفين كان (جوين وين) الانجليزي قد تحدى (ريموند) بأن الذي يمنعه من هزيمة الأخير هو القلعة المحصنة وليست شجاعة (ريموند) • ولو تقابلا خارج القلعة لهزمه • وكان هذا التحدى قد جرى تحت وطأة الخمر ، وقبله (ريموند) • على إثر هذا التحدي صمم (ريموند) على مقابلة (جوين وين) خارج القلعة ومقابلته بالعدد القليل من الفرسات الذين تحت إمرته • وكان ماتوقعه الجميع هو : هزيمة (ريموند بيرنجر) وقتله ومحاصرة القلعة من قبل الانجليز •

إلى هنا وتنتهي مقدمة الأحداث •

بعد هزيمة (ريموند) ، بقى بعض فرسان القلعة ورجالها المخلصون أمثال (فلاموك)[1] الفلمنجي ، والقس (الدروفاند)[2] وكثير من الفلمنجيين رجال (فلاموك) - وابنته (روز) وبعض الوصيفات في رعاية وحماية ابنة (ريموند) : افيلين • كانت (افيلين) بعد مقتل والدها قد نذرت نفسها لمن يخلصها من العار والأسر ، وتعهدت بذلك أمام العذراء •

وبعد مداولات بين قائد الحملة الانجليزية ، و (فلاموك) الفلمنجي الذي كان يحمي القلعة ، استغلها الفلمنجي لصالحه ، وصلت النجدة بقيادة (هوجو دولاسي) وقد استطاع هذا القائد وجنوده ، هزيمة (جوين وين) وجنوده ، وقتل الأمير الانجليزي (جوين وين) ثم إرسال تاجه وسيفه وأمارات خاصة به إلى (افيلين) دليلا على صدقه • وكان مبعوث (هوجو دولاسي) : ابن أخيه (داميان دولاسي) وهو شاب في مقتبل العمر ، فارس وشجاع • أما (هوجو) فلم يستطع القدوم بنفسه لأنه هو الآخر كان قد نذر أن لا يستظل بسقف حتى يعود من الأرض المقدسة •

وهكذا تأخذ أحداث الرواية صفة التعقيد ، ف (افيلين) فتاة

---

(١) *Flammock.*

(٢) *Aldrovand.*

شابة ، عندما قابلت مبعوث (هوجو) وكان وسيما هو الآخر تعلق قلبها به واعتبرته مخلصا لها من العار لأنه قد ساهم في الانتقام لوالدها ، وتخليصها من الأسر ٠

وكان (هوجو دولاسي) قد أرسل ابن أخيه إلى (افيلين) من أجل إخبارها برغبه عمه في مقابلتها ، ولكن في خيمته خارج القلعة وذلك ـ كما ذكرنا ـ لوفائه بنذره وهو : ألا يستظل بسقف ٠٠ فوافقت (افيلين) دون أدنى تردد ٠ وهناك في الخيمة اجتمع (هوجو دولاسي) ب (افيلين) برفقة وصيفتها (روز) وأخبرها بوعد والدها له بالزواج منها ٠ وأنه يريدها زوجة لينجب منها نسلا يحفظ به نوع سلالة (دولاسي) النورماندي ٠ وقد أشار في حديثه معها عن أن (داميان دولاسي) ابن أخيه أقرب إليها في السن ، وأنه يمكن بواسطته ، بتزويجه منها ، الحفاظ على سلالة (دولاسي) لولا أن والدته انجليزية ، أولا ، وأنه شاب في مقتبل عمره لابد أن يثبت شجاعته وفروسيته ورجولته ، قبل الإقدام على الزواج ٠ لذلك لم يبق سوى (هوجو) ٠

بعد تردد وتفكير شديدينوافقت (افيلين) على الزواج من (هوجو دولاسي) الذي يكبرها كثيرا ، وذلك حتى لا تنقض النذر الذي نذرته أمام العذراء ٠ ومنذ ذلك اليوم لم تقع عينها على (داميان دولاسي) ٠ أما هي فكانت تفكر في سبب اختفائه !! ٠

بعد هزيمة (جوين وين) الأمير الانجليزي على يد (هوجو دولاسي) أرسلت جدة (افيلين) سيدة بالدرنجهام السكسونية دعوة إلى حفيدتها (افيلين) تدعوها فيها إلى زيارة مقر بالدرنجهام حيث تقيم ٠ وكانت (افيلين) شديدة الشوق لرؤية جدتها التي لم تقع عينها عليها قط بسبب سوء العلاقات بين الجدة السكسونية التي تكره والد (افيلين) النورماندي ٠ وفي منزل الجدة ، وبعد تناول طعام العشاء مع جدتها ووصيفتها (روز) و (مدام جيلان) أجبرت (افيلين) على المبيت في غرفة محدده كمظهر من مظاهر عادة متوارثة تقضي بمبيت أي فتاة لها صلة بهذا البيت ، وفي هذه الغرفة بمفردها ٠ وبعد أن استسلم الجميع للنوم سمعت (روز) صوت سيدتها في الغرفة وكأنها تعاني من اختناق ، وتصيح ٠ فما كان منها إلا أن نادت ذلك الجندي الذي كلفته بالتشديد على مراقبة حجرة

سيدتها لإحساسها بأن شيئا غامضا يجري في هذا المنزل ، وهب الفارس ملبيا نداء (روز) وأنقذ سيدتها من الموت ، كما زعمت ، ثم غادر بعد أن اطمأن على (افيلين) دون أن تعرف اسمه !! فمن هو هذا الجندي[1]؟.

وبعد أن استيقظت (افيلين) من ذلك الكابوس ، حكت لوصيفتها (روز) ما رأته ، وكان شبحا مخيفا ، مديده نحوها ملطخة بالدم وهاجمها بوجه مكفهر غاضب حانق مرددا بعض عبارات هي :-

" زوجة مترملة ، وعذراء متزوجه "

" مخطوبة ، خائنة ، ومخونه "

ثم بعد ذلك روت لها قصة ذلك الشبح . فهو شبح (فاندا) زوجة (بالدريك) البطل السكسونى ، الذي كلف اثنين من التعساء بقتلها بعد أن تعب من ألاعيبها وسحرها . وكلفهما بأن يأتياه بخاتمها الذي تلبسه منذ يوم زواجها دليلا على تنفيذ ما كلفا به . فجاء الشقيان ب (فاندا) إلى مسكن (بالدرنجهام) (وهو المسكن الذي تسكنه الجدة الآن) ، وأدخلاها في تلك الغرفة وقتلاها شر قتلة . ولما كانت اليد منتفخة ، فشلت المحاولات في سحب الخاتم من الإصبع فقطعا الإصبع ليحملا إلى (بالدريك) الدليل الذي طلبه . وقبل أن يعود المتوحشان إلى (بالدريك) ظهر شبح (فاندا) أمام زوجها المرعوب ، حاملة نحوه يدها الملطخة بالدماء هذا المنظر جعله يشعر بالخوف الشديد ازاء المهمه ، وكيف طبق التعيسان أوامره بقسوة ووحشية . وبعد أن ظل هذا الشبح يطارد (بالدريك) في كل مكان ، مات ، وهو في حالة يأس شديدة .

إن (*Bahr-Geist*) أو شبح (فاندا) المقتولة أصبح مرعبا جدا في مسكن (بالدرنجهام) حتى مساعدة القس[2] أصبحت لا تجدي نفعا في وضع حد لزيارتها ، وعندما نجح القس في طرد روحها ، قام - انتقاما من جريمة (بالدريك) - بوضع عقوبة رادعة تقع على كل فتاة تنحدر من هذه الأسرة . فعلى كل منهن قبل أن تصل إلى سن الواحده والعشرين أن تبيت ليلة بمفردها في هذه الغرفة التى قتلت فيها (فاندا) ، يقضينها في ترتيل الصلوات ، ذلك لجلب الراحة لنفس المقتولة ، والقاتل

---

(١) مع نهاية الأحداث عرفنا أنه (داميان دولاسي)

(٢) *Saint Dunstan.*

معا • خلال تلك الفترة المرعبة كان يعتقد أن روح المقتولة ، تظهر أمام عين الفتاة التى تؤدي الصلوات ، وتتنبأ للبعض بما سيحصل لهن مستقبلا إن خيرا أو شرا •• فلو كان مستقبل الفتاة خيرا ظهرت مبتسمة ، ماسحة إياها بيد غير ملطخة بالدم • وهي تتنبأ بحظ سيء إذا أظهرت يدها ، التي قطع منها الإصبع ، ونظرت بوجه عابس مكفهر وبعض الأحيان ، تتكلم(١) •

أما (افيلين) فقد رأت شبح (فاندا) حاقدة عابسة غاضبة تشير إليها بيد ملطخة بالدماء ، وتتنبأ لها بتعاسة وحظ سيء • ولكنها احتفظت لنفسها بهذا السر ولم تعلمه ل (هوجو) •

أعلمت عمة (افيلين) النورماندية ، برغبة (هوجو دولاسي) في الزواج بابنة أخيها ، فلم تمانع • ولكنها مانعت بشدة عندما علمت أن (هوجو دولاسي) يود أن يعقد على ابنة أخيها ، ويذهب بها إلى الأرض المقدسة • واقترحت عليه تأجيل رحلته إلى الأرض المقدسة ، والاستئذان من القس الأكبر • فوافق (هوجو دولاسي) ، ولكن القس الأكبر لم يوافق وغضب على (هوجو دولاسي) ووبخه • في هذه الأثناء كان (داميان دو لاسي) يعاني من وعكة صحية حار الأطباء فيها • فنسب القس هذه الوعكة وأرجعها إلى أنها علامة من علامات سخط الرب على آل (دو لاسي) بسبب تفكير (هوجو) في نفسه ، ورغبته في تأجيل الاستجابة لنداء الرب كما يزعمون • بهذا القول أقنع القس الأكبر (دو لاسي) بالتراجع عن طلبه والتوبة والذهاب فورا إلى الأرض المقدسة ، وترك خطيبته التي تم العقد عليها في رعاية عمتها ، كما أراد والدها قبل أن يشتبك مع الأمير الانجليزي ، في تلك المناوشات • وقد حدد القس ثلاث سنوات تنتظر فيها ، (افيلين) خطيبها ، إذا عاد في أثنائها ، تزوجا ، وإذا لم يعد بعدها فهي في حل من الخطبة • لم توافق العمة على هذا القرار وطلبت من القس ، إحلال ابنة أخيها من قيدها ، ولكن القس لم يوافق واتهمها بالأنانية • أما (افيلين) فقد وافقت على ذلك الشرط وعلى تأجيل الزواج ، كما أراد القس ، بحجة أنها

---

(١) Scott., The Betrothed, P.401.

(٢) The Abbess of The Benedictine.

مازالت صغيرة لاتدرك كثيرا من تجارب الحياة ، وكانت موافقتها سببا في ثورة عمتها ، وغضبها عليها ، ثم بالتالي رفضها أن تقيم معها فى دار الراهبات .

أما (افيلين) فكانت حزينة لهذه الأحداث بعد أن رفضت إحدى قريباتها رعايتها . أما جدتها لأمها السكسونية التى كانت تكره العرق النورماندي كراهية شديدة فلن تستقبلها هي الأخرى ، بل بالأحرى لن توافق (افيلين) نفسها على المكوث معها خاصة بعد تلك الأحداث المرعبة ، التى مرت بها الفتاه في تلك الليلة الكئيبة التى دعيت فيها إلى زيارة جدتها . لذلك فقد فضلت الاقامة في مقر والدها تحت حماية من يراه خطيبها مناسبا .

وبعد تفكير طويل ، واستشارة (فلاموك) في الموضوع ، قرر (هوجو) أن يترك (افيلين) في قلعتها المحصنة كما أرادت برفقة وصيفاتها ، وحماية ابن أخيه (داميان) الذي تخلف ، وذلك للوعكة الصحية التي ألمت به .

أما (داميان) فقد كان مثال الفارس الشجاع آلى على نفسه ، حماية خطيبة عمه ، والحفاظ على كرامة عمه وشرفه . فإمعانا في هذه النية ، كان لا يتقابل مع (افيلين) مباشرة ، إنما يتم ذلك عن طريق غلامه (أمليوت) الذي يبلغ مايريد إبلاغه للقس (الدروفاند) أو عن طريق (روز) التى تبلغه بدورها لسيدتها . هذا الأمر كان يثير (افيلين) ويقلقها ، ويزيدها تفكيرا في (داميان) .

وتزداد الحبكة والأحداث تعقيدا وتتداخل أمور كثيرة . فهناك قصة (راندال دولاسي) مع ابن عمه (هوجو دولاسي) ، وهناك قصة (كادولون) الشاعر الخاص بـ (جوين وين) الأمير الانجليزي الذي قتل على يد (هوجو دولاسي) . هاتان القصتان تتعاونان مع الحبكة الرئيسةً وتدفع بالأحداث إلى غايتها .

ونحن نلتقي بـ (كادولون) في الفصل الثاني . إنه أقرب المقربين إلى سيده . وأشدهم إخلاصا له . وعندما قتل سيده وأميره على يد (هوجو دولاسي) آلى على نفسه أن ينتقم من (هوجو) .
ففى الموقف الذي كان (هوجو دولاسي) يتناقش فيه مع القس الأكبر في موضوع تأجيل ذهابه إلى الأرض المقدسة ـ كما ذكرنا سابقا ـ وكان (داميان)

يعاني من وعكة صحية نفسية شديدة ، ذكر القس ، أن تأجيل (هوجو) الذهاب إلى الأرض المقدسة لتلبية نداء الرب ، يثير سخط الرب على آل (دولاسي) ووعكة (داميان) هي أول هذه العلامات . عندها خر (هوجو) خاضعاً أمام القس تائباً ، متأهباً للذهاب إلى الأرض المقدسة . في هذه الأثناء يأتى رسول (غريب) يخبر (هوجو) ، بتماثل ابن أخيه للشفاء .

لقد ربط (هوجو دولاسي) والقس هذا الشفاء بتوبة (هوجو) وعدوله عن قرار التأجيل . وقتها أراد (هوجو) أن يكافيء (الغريب) على نقله لهذا الخبر المفرح ، ولكن الأخير رفض أن يأخذ المكافأة وقال لهوجو إنه سيطلبها في حينها . وقوله هذا يثير الشك في نفس القاريء تجاه شخصيته[(١)].

وفي الفصل التاسع عشر ، نلتقي بالغريب في الصباح الباكر حين جاء إلى (هوجو) لينال عطيته التي وعد بها ، وعندما سأله (هوجو) عن طلبه قال له : "أطلب السماح لي بمرافقتك إلى الأراضي المقدسة"[(٢)]. وافق (هوجو) بعد تردد ، واصطحبه برفقة غلامه (جارين) ، وكان (جارين) هذا ، يكره (فيدال) – كما أسمى الغريب نفسه – كرهاً شديداً ، وعندما سأله سيده عن سبب الكراهية قال له :"لاشيء يا سيدي لكنه شك وكره فطري . إن الطفل الذي يرى الثعبان لأول مرة لا يعرف شيئاً عن خطره ، وسمومه ، بالرغم من ذلك فهو لا يتتبعه كما يتتبع فراشة ، كذلك كرهي لـ (فيدال) لا أستطيع منعه . أستطيع أن أعذره في حذلقته ، ونظراته الكئيبة المريبة عندما يظن أن لا أحد يراه ، ولكن لن أغفر له ضحكته الخبيثة – إنه مثل ذلك الوحش الذي نسمع عنه في (Judea) ، الذي يضحك – كما يقولون – قبل أن يفتك ويخرب"[(٣)].

نعم وكانت هذه حقيقة (فيدال) كما ظهر في النهاية فـ (فيدال) هذا ماكان إلا (كادولون) : «لقد خدعت يانورماندي ، إن مقامي الحقير

---

(١) لقد شككنا في شخصية (الغريب) وأدركنا أن لابد أن يكون له شأن مع (هوجو دو لاسي) أوقصه خاصة وهو يطلب ملازمته إلى الأراضي المقدسة .

(٢) Scott., The Betrothed, P.427. (٣) Ibid., P.485.

وسلالتى الوضيعة كلها مزاعم . إنني (كادولون) الانجليزي ، (كادولون) الأشعة التسعه ، (كادولون) رئيس شعراء (جووين وين) .. والآخذ بثأره"[(١)].

لقد قتل (كادولون) (راندال دولاسي) وكان يعتقد أنه قتل (هوجو دولاسي) . وبعمله هذا ساهم في التخلص من الشرير (راندال) فبذلك قدم لـ (هوجو) جميلا بدلا من أن ينتقم منه .

أما (راندال دولاسي) ابن عم (هوجو دولاسي) فقد كان شابا شريرا كان (هوجو) قد طرده وحرمه من شرف آل (دو لاسي) ومقامهم .

نلتقي بـ (راندال دو لاسي) على حقيقته ، في الفصل السادس عشر ، حينما عرف بأمر خطوبة ابن عمه للآنسة (افيلين) فيأتي إليها متوسلا أن تساعده في إعادة علاقته بابن عمه ، والتشرف بحضور مراسيم عقد القران .

قبل أن نلتقي بـ (راندال دو لاسي) باسمه وحقيقته ، كنا ، قد ، التقينا به ، في الفصل التاسع أثناء مراسيم جنازة ، (ريموند بيرنجر) والد (افيلين) . لقد ظهر (راندال) ولكن كان متخفيا في ثوب تاجر أقمشة وملبوسات نسائية . و يتفق مع (مدام جيلان) – خليلة (ريموند) وزوجة (راول) العجوز – وهي امرأة ثرثارة ، تتحدث فيما يعنيها ومالا يعنيها . وكانت قد أجابت على جميع تساؤلات – (هذا التاجر) الخاصة بـ (افيلين) و (داميان) و (هوجو) وكل مايريد . وفي النهاية اتفق معها على كلمة سر ، تجعله يدخل القلعة ، بسهولة وتم له ما أراد .

بعد ذلك نلتقي بـ (راندال) ، في الفصل الثالث والعشرين ، في ثوب تاجر صقور . ويلاحظ القارىء أن المؤلف في كل مرة يظهر فيها (راندال) أو (كادولون) متخفيين ، يلمح بالشخصية الحقيقية ، محاولا تهيئة القارىء لما سيحصل في مستقبل أحداث الرواية ، «عندما كانت (جيلان) تتحدث ، بدا زوجها الغيور ينظر في اندهاش حين رأى نظرة

---

(١) *Ibid.*, P.504.

ذات مغزى ، تبودلت بينهما وبين التاجر ، وهي نظرة تدل على سابق معرفة بينهما)[١] ... ..."وقد تذكر أيضا حين أمعن النظر الى التاجر أن ملامحه ليست غريبة عليه ."[٢]

نعم لقد كان (راندال دو لاسي) الذي رآه قريبا في حفل عقد قران ابن عمه ولكن (راول) نسى . وبحيلة ماكرة ، استطاع ، تاجر الصقور أن يقنع (روال) باستدعاء الآنسة (افيلين) لمشاهدة رياضة قديمة ممتعة وهي الصيد بالصقور . وافق (روال) ووافقت (افيلين) . وكان الوقت مبكرا في الصباح . وخرجت (افيلين) برفقة وصيفاتها ومدام (جيلان) وزوجها (روال) والتاجر ... وبعد أن توغل الجميع مسافة طويلة مبتعدين عن القلعة ، فوجئوا بجماعة من الانجليز المسلحين يحيطون بهم ، ثم أخذ هؤلاء (افيلين) أسيرة ، ووضعوها في كهف سدوه بصخرة ضخمة . وفي الكهف المظلم اكتشفت (افيلين) أن معها شخصا يكن لها كل حب وتقدير ، وكان جريحا ، إنه (داميان دو لاسي) حامي القلعة . ولكن كيف جاء داميان إلى هنا ، وقد خرجت (افيلين) في الصباح الباكر دون علم أحد؟! .

هذا هو السؤال الذي حير جنود القلعة ، وغيرهم من العامة ، ولكن الحقيقة : أن (راندال) الخبيث بعد أن رتب خطته في اختطاف (افيلين) ، أرسل رسولا إلى (داميان) يخبره بنبأ اختطافها. الأمر الذي جعل (داميان) يعرض نفسه للخطر أمام الجنود الانجليز ، فضربوه وجرحوه ثم ، ألقوا به داخل الكهف . لقد كانت حيلة دبرها (راندال) باحكام شديد ، لاتهام (افيلين) و (داميان) بالخيانة . خيانة عمه ، وخيانة الملك . حيث إنه في تلك الفترة كانت ثورة الفلاحين الذين أحرقوا ودمروا الحصون والقلاع وقتلوا ونهبوا . وفي ذلك الوقت وصلوا إلى قلعة مجاورة فاستغاث حاميها بجند الملك ، ثم أمر الملك (داميان) وجنوده بانقاذ أهل القرية أو القلعة من شر أولئك الفلاحين . وقد انتهز راندال الظروف ، ظروف ولاء (داميان) لعمه وحفاظه على كرامته

---

(١) *Ibid.*, P.452.

(٢) *Ibid.*, P452.

وعلى بيته ، وعاطفته تجاه (افيلين) ، واستنجاد قوة الملك بجنوده ، ودبر حيلته ، ليتخلف عن نجده جند الملك ويتهم بخيانة الملك وتمرده على أوامره ، وفي الوقت نفسه كي يتهم بخيانة عمه بالالتقاء مع خطيبته في السر . وهذا ماحدث . حيث تسبب تأخر وصول نجدة (داميان) ، في قتل قائد جند الملك أثناء دفاعه عن القرية . أما (افيلين) و (داميان) فقد أنقذا بواسطة جنود (فلاموك) والد (روز) . وكان (داميان) جريحا ، فأصرت (افيلين) على إحضاره للقلعة والإشراف على تمريضه بنفسها . كل هذه الأمور مجتمعة ساعدت على اتهام (داميان) بالخيانة . وعندما أتى مبعوث ملكي على رأس فرقة من الجنود وطلب من (افيلين) تسليم (داميان) ، رفضت تسليمه ، وكان رفضها سبب ثورة الملك وجنوده . في تلك الأثناء جاء نبأ يفيد وفاة (هوجو دو لاسي) في الحرب المقدسة . وقد أقسم (راندال) الذي أصبح من جند الملك المقربين على وفاة ابن عمه ، في مركب تحطمت على الساحل الانجليزي . لذلك أمر الملك ، باقتحام القلعة ، وحبس (داميان) في زنزانة منفردا ، أما (افيلين) فسجنت في غرفة بسيطة ، ونزعت عنها أملاكها لتسلم إلى (راندال) لقاء تعاونه مع جنود الملك .

وبعد ذلك استغل الملك القلعة للإقامة فيها مع جنوده تلك الفترة . أما (روز) فقد تركت – مجبرة – رفقة سيدتها ، عقب إقامة الملك وجنوده في القلعة . كل هذه الأمور حدثت بتدبير من (راندال) الشرير .

في هذه الأثناء يعود (هوجو دو لاسي) برفقة غلامه المخلص (جارين) والشاعر (فيدال) . وكان (هوجو) قد أرسل الشاعر (فيدال) إلى القلعة ليأتيه بأخبارها ويطمئنه . وعاد (فيدال) بأخبار سيئة جدا ، كان يريد من ورائها تعذيب (هوجو) ، وتدميره . فجاءه بنبأ مفاده : خيانة (افيلين) و (داميان) له ! وأنهما يعيشان معا ، في منزل واحد ! وأن (داميان) يطمع في جميع أملاك عمه وخطيبته ! ولكن في هذه الأثناء يلوح في الأفق فرس ، عليه راكبان هما (روال) ، وزوجته (جيلان) ، وعليهما مظهر الحرمان والجوع والقهر . لقد جاءا بالخبر اليقين ، فأخبرا (هوجو) بجميع التفاصيل التي يعرفانها عن براءة (داميان) و (افيلين) من تهمة الخيانة التي روجها الأعداء . وعرفاه

بعمل (راندال) وحيله الشريرة تجاه (داميان) و (افيلين) ٠

هنا طلب (هوجو) من (روال) وزوجته مرافقته إلى الملك هنري من أجل الإدلاء بما يعرفانه عن (راندال) وغيره ، واستخلاص الحقيقة كاملة ٠ بعد أن وعد الجميع بالمكافأة حتى (فيدال) الذي رفض الوعد بالمكافأة ، وقال له : (لم ينته حسابنا بعد) ٠ [(١)] ومضى (هوجو) مع مرافقيه بعد أن اتفق مع غلامه والشاعر على الالتقاء بهما على الجسر ٠ ولكن بعد ساعتين من الزمن ، جاء مبعوث من (هوجو) يطلب فيه من غلامه (جارين) مرافقته ، أما الشاعر فيستمر في مواصلة سيره ، كما اتفقا ٠ بعد مغادرة (جارين) ، ينشد الشاعر أغنية ، تحمل مضمون الانتقام والظلام ، وهي معاني توحي بالمصير المرتقب الذي يبحث عنه الشاعر ٠

وعندما وصل (فيدال) إلى ربوة ، تطل على الجسر والقرية ، رأى القلعة ، ورأى حركة غريبة ، وحشودا مجتمعة واستعراضا للجنود ، وعندما سأل عن سبب هذا التجمع ، ذكر له أن أمين الشرطة (دولاسي) قد عاد ٠ وبعد أن عرف الشاعر سر هذا التجمع ، بدأ يقترب قليلا قليلا ، إلى أن أصبح بينه وبين (دولاسي) الغارق في ثيابه العسكرية ، مسافة بسيطة ، انقض منها على (دولاسي) كالنمر وغرس خنجره في رقبته ، سقط على أثرها (دولاسي) على الأرض مقتولا ٠ فأخذ (فيدال) فرس المقتول ، وأطلق عنانه للريح ٠ ولكن (فلاموك) ، الفلمنجي ، كان متيقظا فتبعه ، هو وجنوده وأمسكوا به ٠ وأخذ إلى الملك (هنري) بتهمة الخيانة ٠ وأمام الملك كشف الشاعر (فيدال) عن هويته : فهو شاعر الأمير الانجليزي (جوين وين) انتقم له من قاتله (هوجو دولاسي) ٠ في هذه اللحظة يظهر (هوجو دولاسي) أمام (كادولون) أو (فيدال) الذي أصابته الدهشة فأخذ يتساءل : من الذي قتلت اذن ؟ (لقد قتلت أمين الشرطة ، ولكن هل تعرف ياويلزي ، بأنه كان (راندال دولاسي) الذي شرفناه بهذه المنحة هذا الصباح فقط ! بعد أن اعتقدنا بأن صديقنا ولينا (هوجو دولاسي) قد فقد عند عودته من الأرض المقدسة ، وأن المركب الذي كان يستقله قد تحطم ! لقد قصرت في زمن ارتقاء (راندال) ساعات معدودة لأن الجميع كان سيراه

---

(١) *Ibid., P.498.*

غدا صباحا مجردا من الأملاك والشرف » هذا ما أجاب به الملك هنري (كادولون)[1] .

ونجد أن أحداث الرواية بلغت ذروتها حين عاد (هوجو دولاسي) من الأرض المقدسة ، مع رفيقة ، ووجد الأمور في أشد حالات تعقيدها : خطيبته التي أحبها تخونه . ابن أخيه الذي كان يعامله كابنه يخونه ويود الاستحواذ على أملاكه . الملك يأمر باقتحام قلعة (افيلين) . (داميان) و (ا.فيلين) يسجنان ، بتهمة الخيانة والتمرد ، و (راندال دي لاسي) الخبيث يستولي على جميع أملاك ابن عمه (هوجو) ، وبأمر ملكي لقاء مساعدته لقوة الملك ...

ثم ماتلبث الأحداث أن تجد ثغرة للانفراج ، والانحدار نحو الحل والنهاية . إن ظهور (مدام جيلان) وزوجها (راول) هو بداية الانحدار نحو الحل . فبظهورهما ، تكشفت بعض الأسرار التي كانت غامضة ، وكثير من الأمور ، التي كانت مجهولة لبعض شخصيات الرواية[2] .

إن حجر الأساس في وضع حل نهاية الأحداث في الرواية هو : سوء الفهم الذي وقع فيه (فيدال) الشاعر المتنكر . حيث كان يعتقد أن الاحتفال الذي أقيم في القلعة كان من أجل تنصيب (هوجو دو لاسي) وكان يترقب فرصة مناسبة للانتقام لسيده (جووين وين) الانجليزي . فانقض على (دو لاسي) – الذي كان وسط حشود المحتفلين ، فى ردائه العسكري . وقتله ظانا أنه (هوجو) ، ولكن لاندهاشه ، وجد أن الذي قتله ماكان إلا (راندال دو لاسي) الماكر . أما (هوجو) فكان عند الملك هنري يشرح له ماحدث .

وهكذا كانت نهاية الشر : قتل (راندال) الشرير والمتسبب في معظم المصائب التي حدثت لـ (افيلين) و (داميان) وجنودهما .

ثم بالتالى قتل القاتل (فيدال) الذي كشف عن هويته ، وإعادة (هوجو) ليكون أمينا للشرطة مرة أخرى وينال شرف واعتذار الملك .

---

(١) *Ibid.*, *P.504.*

(٢) *Dramatic Irony.*

لأن القاري كان على علم بجميع الأحداث ، التي كان يجهلها (هوجو) والملك (هنري) والحرس .

وفي فصل أخير في الرواية بعنوان الخاتمة أكمل مشهد النهاية فذكر :

أن (افيلين) بعد أن عرفت أن الجندي الذي أنقذها في بيت جدتها هو (داميان دو لاسي) ، وبعد القضاء على (راندال) ، كانت ترى أحلاما طيبة في نومها . فتارة ترى والدها يتنبأ لها بالسعادة والهناء ، وتارة ترى (فاندا) ، ولكن في صورة تدفع إلى التفاؤل والأمل . لقد عادت (فاندا) لتعتذر لـ (افيلين) في نومها .

"زوجة مترمله ، وعذراء متزوجة ، مخطوبة
خائنه ، ومخونه ، كل ماقيل كان قد حدث
خطأ فاندا نُفِّذ - تقبلي اعتذارها بهذا التذكار .
وتنحني عليها وتقبلها".[1]

وعندما استيقظت (افيلين) وجدت (روز) تحتضنها ، وتخبرها بنهاية الأحداث : قتل (راندال) وإطلاق سراح (داميان) ، وعودة (هوجو) .

أما (داميان) الذي كان ينتظر الموت ، في تلك الزنزانة الكئيبة التي وضع فيها بأمر الملك . فقد جاءه عمه (هوجو) بحيلة أراد بها معرفة صدق مشاعر ابن أخيه ، نحوه ونحو (افيلين) . وقد تأكد من هذه المشاعر ، بنجاح (داميان) في الاختبار وإصراره على فداء عمه (هوجو) بروحه . عندما تأكد من ذلك كشف (هوجو) عن شخصيته ، وكافأ ابن أخية بزواجه من (افيلين) ، بعد موافقتها ، وموافقة الكنيسة ، والملك . وأخبره بنبأ إطلاق سراحه ، وبلغه اعتذار الملك ، وأهداه ثلث أملاكه في المنطقة .

وهكذا تنتهي قصة <u>المخطوبة</u> بوضع كل شخص في محله . (افيلين) تتزوج الشخص الذي يناسبها ، جزاء صبرها ومقاومتها لجميع الأحداث . و (داميان) يتزوج التي أرادها ، بعد طول صراع مع عاطفته وواجبه تجاه عمه الذي رباه . و (راندال) ينال جزاءه و (هوجو) يعود من مهمته أكثر تعقلا وحكمة .

---

(1) Scott., <u>The Betrothed</u>, P.508.

وفي الأسطر الأخيرة من الرواية ، أو بالأحرى في آخر مشهد منها يشير المؤلف إلى أهم شخصيات روايته : (افيلين) – (داميان) (هوجو) – (فلاموك) – (روز) – (راول) – (جيلان) – ثم اجتماع عمة (افيلين) النورماندية وجدتها السكسونية . ليشير إلى أهم العناصر التى لعبت دورا مهما في تطور أحداث الرواية وليشير كذلك إلى تأصل العداء السكسوني النورماندي . وذلك لأن اجتماعهما قد أثار جوا غير مرغوب فيه في مناسبة زواج (افيلين) وذلك لتضارب الآراء والعداء الظاهر بينهما .

ويتضح بعد ذلك أن الحبكة معقدة تتداخل فيها عناصر وقصص ومواقف تتساعد مجتمعة وتتعاون في تغذية روح الحبكة الأصلية . فقصة المخطوبة (افيلين) مع (هوجو دو لاسي) تتحرك في نشاط وحيوية بواسطة قصة (داميان دو لاسي) – ابن أخي هوجو – وتدفع هاتين القصتين – بشدة إلى الأمام – قصة (راندال دولاسي) الشرير ، حتى نجد أنفسنا دون أن نشعر على ابواب النهاية ، فتأتي قصة (فيدال) الشاعر لتساعدنا على الوقوف علي النهايه .

وهكذا رأينا أن النهاية كانت نتيجة تفاعل أكثر من قصة ، ساعدت القصة الرئيسة على النضوج وطرح ثمارها .

(٣) الشخصيات :

لقد ساهمت جميع شخصيات رواية المخطوبة في تعقيد الحبكة وتطور أحداثها . وكل شخصية في الرواية أدت دورها الموكول إليها باتقان . ولكن هناك شخصيات فعالة ورئيسة في العمل الأدبي الذي بين أيدينا . مثل شخصية (هوجو دو لاسي) التي تعرفنا من خلالها على وضع الفرسان الانجليز في الحروب الصليبية ، وما يسببه ذهابهم إلى الحرب المقدسة – على حد تعبيرهم – . وشخصية (افيلين) تمثل الطرف الثاني وما يعانيه من ظروف سيئة بسبب مغادرة ولي الأمر إلى فلسطين . و (فلاموك) شخصية توضح الوضع الاجتماعي والتقسيمات الطبقية في ذلك الوقت في المجتمع الانجليزي . و (روز) تمثل منطق الحكمة والعقل والإتزان الذي

ينبغي أن تعالج به الأمور . ثم (داميان دولاسي) و (راندال دولاسي) ويمثلان العنصرين المتضادين في الحياة . فالأول يمثل الخير والثاني يمثل الشر . ووجود الاثنين يمثل الصراع بين الخير والشر على المستوى العام .

وعلى هذا سنقوم بدراسة تلك الشخصيات ورسمها ، لنقف على عنصر مهم من عناصر بناء الرواية :

هوجو دولاسي :

يكاد يكون هو الشخصية الرئيسة في العمل الأدبي . فلولا خطبته لابنة ريموند (افيلين) وماجرته هذه الخطبة من أحداث ما سميت هذه الرواية بهذا الاسم : (المخطوبة) .

كان (هوجو دولاسي) هو الخطوة الأولى في تصاعد أحداث الرواية ، والخطوة الأخيرة التي أسدل بها الستار على هذا العمل الروائي .

و (هوجو دو لاسى) فارس نبيل شهم وكريم . استعان به (ريموند بيرنجر) والد (افيلين) على عدوه الأمير الانجليزي . فجاء لنجدته ، ولكنه وصل متأخرا حيث استطاعت جنود الأمير الانجليزي هزيمة (ريموند) وجنوده ، ثم قتله . وكان قتل (ريموند بيرنجر) وهزيمة جنوده ، سببا في نذر الآنسة (افيلين) نفسها ، لكل من يخلصها من عار الأسر ، وينتقم لوالدها . وكان المخلص المنتقم هو : (هوجو دولاسي) .

ومن هذا المنطلق لعبت شخصيته دورا مهما ورئيسا في الرواية . ف (هوجو دو لاسي) رجل مسن ، محنك ، دربته الأيام والمحن . استطاع بحنكته القضاء على (جوين وين) القوي وجنوده وبالتالي الفوز بموافقة (افيلين) على الزواج به . لم تكن (افيلين) تحبه رجلا سيصبح زوجا لها . إنما أحبت فيه الشجاعة والحنكة والقدرة على تخليصها من العار ، وعليها أن تقبل الزواج به ، أولا : لأن والدها سبق وأن وعده بالزواج بها ، وثانيا : لأنها نذرت نفسها لمن يخلصها . فاجتمعت الأسباب وكبلتها ولم تستطع منها فرارا .

"... هل من العدل أن تتزوج الآنسة (افيلين بيرنجر) وهي في مقتبل

شبابها ، برجل في سن والدها ، والذي سيعود – بعد أن يتركها مستضعفة لسنوات تنتظر – في هيئة عجوز في سن جدها"[١]. هذا هو ماقالته وصيفتها (روز) عندما علمت بموضوع الخطبة . وهذا ماحصل فعلا ، فبعد أن خطب (هوجو دولاسي) (افيلين) تركها في قلعة والدها في حماية ابن أخيه (داميان دولاسي) الفتى الشجاع والفارس النبيل . وذلك بعد موافقتها على الخطبة وسفر خطيبها لفلسطين : " ... وأبعد من ذلك لابد أن أعترف بأن أمر تأجيل هذا الزواج سيكون أكثر قبولا عندي ، من الاستعجال فيه . فأنا مازلت صغيرة وطرية العود ، ليس لي خبرة في تجارب الحياه . وسنتان أو ثلاثة ستجعل مني أكثر استحقاقا لرجل كريم ونبيل مثلك"[٢] وكانت هذه الشرارة التي أطلقتها (افيلين) في إثارة حفيظة عمتها تجاهها وتجاه (هوجودو لاسي) ، وذلك لأنها كانت ترفض رفضا قاطعا ، أمر خطبة ابنة أخيها ثم سفر خطيبها إلى الأراضي المقدسة وتركها وحيدة مستضعفة .

وسافر (هوجودولاسي) ملبيا نداء الرب – كما يزعم القساوسة – متجها إلى فلسطين ، ليترك (افيلين) و (داميان دولاسي) يعانيان صراعا داخليا في نفسيهما بين العاطفة والعقل ، وصراعا آخر خارجيا ممثلا : في مكائد ابن عمه (راندال دولاسي) الشرير . ونظرات ، العامة والجنود ، القاسية التى تتهمها بخيانة شرف (دولاسي) ، واتهام الملك لهما بالخيانة للوطن والتمرد والعصيان لأوامره .

واستمر (داميان) و (افيلين) يعانيان هذه الأنواع من الصراع ، وظلم من حولهما ، إلى أن يظهر مرة أخرى (هوجو دولاسي) في هيئة سبق وأن تصورتها (روز)[٣] وصيفة (افيلين) . فبعد أن قضى مايزيد على الثلاثة أعوام في الأرض المقدسة عاد رجلا أكثر حكمة وتعقلا :

"... وقبل كل شيء ، لقد عاد أمين الشرطة الكبير ، عاد من فلسطين بطلا شهما ، كما كان ، وأكثر حكمة عما كان . ويعتقد بأنه سيحلك من العقد الذي يربطك به"[٤] هذا ماحصل بالفعل . لقد عاد (هوجو دولاسي)

---

(١) *Ibid.*, P.377.

(٢) *Ibid.*, P.431.

(٣) *Ibid.*, P.377. (رأي روز)

(٤) *Ibid.*, P.508.

وقد طحنته التجارب الحربية المريرة في فلسطين . عاد شيخا حكيما ، رأى أن من الأفضل ترك (افيلين) الشابة تستمتع بشبابها ، بدلا من أن تقضيه في خدمة رجل عجوز مثله .

وعندما تأكد بنفسه من صدق مشاعر (افيلين) و (داميان) تجاه بعضهما البعض ، ومن عفتهما وحفاظهما على شرفه في غيابه ، ومقاومتهما لجميع أنواع الظلم . وبعد أن أثبت بنفسه ـ للملك ـ كذب ادعاءات (راندال دو لاسي) والعامة من الناس والجنود ، لم يستطع إلا أن يكافيء الشابين على عفتهما ، وتحملهما المشاق في سبيل الحفاظ على شرفه وسمعته ، وذلك بتزويجهما بعد موافقة ، ومباركة ، الملك والقساوسة :

نعم يا داميان ، أنا الآن أحل نفسي من الارتباط ب (افيلين) وأخلعه عليك . وإذا تزوجتْ (افيلين بيرنجر) اليوم فستكون أنتَ عروسها[1] . لقد باركت الكنيسة الزواج واستحسنه الملك ولم ترفض العروس ، وبقي سؤال واحد : هل سيقول العروس نعم؟! .[2]

افيلين :

فتاة نورماندية والدها هو : النبيل النورماندي (ريموند بيرنجر) . كانت تتمتع بجمال فائق .

وبعد تدخل القس الأكبر في الاصلاح بين الطائفة الانجليزية ممثلة في الأمير الانجليزي (جوين وين) وجنوده ، والطائفة النورماندية ممثلة في (ريموند) ، أقام الأخير حفلا دعا فيه الأول ، وهناك رأى الأمير الانجليزي (افيلين) : "وتقدم الجميع إلى مكان الحفل ، الذي التقى فيه الأمير الانجليزي (جوين وين) ، ولأول مرة ، ب (افيلين بيرنجر) الابنة الوحيدة للنبيل النورماندي ، والوارثة لجميع أملاكه وثرواته ، تبلغ من العمر السادسة عشرة فقط . وهي أجمل فتاة تخطو على أرض (ويلز) . تكسرت كثير من الرماح في سبيل الدفاع عنها ، والحفاظ على

---

(١) وقد ورد في اللغة (عريس) ويطلق على الزوج مادام في إعراسه وجمعه عرسان ، ولكن اللفظ من الألفاظ المولده المستعملة قديما بعد عصر الرواية . أما الأقوى فهو لفظ عروس يطلق على الرجل مادام في عرسه ، والمرأة على السواء .

(٢) Scott., The Betrothed, P.513.

جمالها . حتى الشجاع (هوجو دولاسي) أمين شرطة تشستر ، وكان من أقوى المحاربين في ذلك الوقت ، وضع تحت أقدامها الجائزة التي حاز عليها بفروسيته وشجاعته في مباراة المبارزة التي عقدت بالقرب من المدينة القديمة "[1] .

تلك هي (افيلين) محط أنظار جميع النبلاء والأمراء . وكان رفض (ريموند بيرنجر) خطبة الأمير الانجليزي لابنته سببا في إغارة الأخير عليه في صبيحة اليوم التالي من إعلان الرفض . وقتل (ريموند) النورماندي على يد (جوين وين) الانجليزي . وخافت (افيلين) من الأسر فنذرت نفسها حليلة لكل من يخلصها من عار الأسر وينتقم لوالدها . وهنا يبدأ دورها الفعال في موضوع الرواية الرئيس . حيث يستطيع (هوجو دولاسي) القضاء على (جوين وين) والانتصار على جنوده . وبالتالي أرسل تاج الأمير المقتول وسلاحه دليلا على هزيمته وقتله :

".. إن الجميل الذي أحمله لك ، شيء عظيم لا أستطيع أبدا أن أعفي نفسي عن رده ، خاصة وقد شمل مستقبلي وحياتي وشرفي . أعرف إذن ياسيدي أنه في حالة اضطرابي عندما حاصرنا جنود أمير ويلز في قلعتي ، أقسمت أمام العذراء : إنني سأضع نفسي وحياتي مكافأة لمن تختاره العذراء ، أداة لتخليصي من ساعات الألم والعذاب . وعندما أرسلت لي مخلصا ومنقذا أرسلته سيدا نبيلا لا أحلم بأحسن منه : إنه (هوجودولاسي) "[2] .

ولكن هل كانت افيلين تفكر في مثل (هوجو دولاسي) ليكون زوجا وشريكا لحياتها؟ الإجابة على هذا السؤال شيء مهم في الحبكة الرئيسة للموضوع . فالآنسة (افيلين) ماكانت تحلم بمثل (هوجو دولاسي) زوجا لها . وكانت تتمنى أن يكون ابن أخيه الشاب الشجاع والفارس النبيل ـ الذي يناسبها في السن والطموحات ـ زوجا لها ، فحالما رأته شعرت بأنه هو الشاب الذي كانت تحلم به ، ولكن ماذا تفعل وقد نذرت أمام العذراء نفسها لمن يخلصها من الذل و العار ؟!.

" سأعترف ياسيدي النبيل ، أنه عندما أنقذتني من المصيبة التى كانت تدنو مني ، ماكنت أتمنى إلا أن أشرفك وأحترمك كما كنت أفعل مع صديقك ،

---

(١) *Ibid., P.313.*   (٢) *Ibid., P.431.*

سـيدي الـوالـد ، وماكنت أتمنـى إلا أن تقبل منـي خـدمة الابنـة لأبيهـا .
لا أدعى تغلـبي على كل تلك المشـاعر بالرغم من أني كنت أقـاومها وأحاربهـا .
لأنـي كنت أشعـر أنك لا تستحقنـي ، وأني بذلك ناكـرة للجميل . ولكـن مـن
اللحظـة التى شـرفتي فيهـا بطلب يدي ، عكفت على دراسـة مشـاعري نحـوك ،
وحاولت أن أدرب نفسـي لأجعل مشاعري تتناغـم مع واجـبي ، حتى لا يشعـر
(دولاسـي) بـأنه أخطـأ حين يجـد (افيلين بيرنجر) عروسـا غـير مبالية وغـير
أهـل له ".[1]

هكذا هربت افيلين من الحـقيقة . بـهذه القـدرة ، وهـذا الذكـاء استطاعت
تمويه حـقيقة مشاعرهـا أمام (هـوجو دولاسي) فهـي الآن في حـيرة شـديدة بيـن
قلبهـا الذي تعلـق بـ (داميـان دولاسي) وبين نذرها الذي نذرتـه أمـام العـذراء
لتهب نفسهـا لأي شخـص يخلصهـا من الذل . وقد وجدت في تـأخـير زواجهـا ،
فترة زمنيـة كافيـة ، تختبر فيهـا صـدق مشـاعرها نحـوه ونحـو ابن أخـيه .
وبالتـالي تصـبح عقب فترة السـنوات الثـلاث فتـاة أكثـر وعيا وادراكا للأمور .[2]

وبعـد قراءتنا للروايـة نجـد أن (افيلـين) ظـلت تتحكم في تطـور أحـداث
الروايـة ، عقب سـفر (دولاسـي) إلى فلسـطين . وكان سلوكهـا مبنيا على الذكاء

---

(١) *Ibid., P.431.*

(٢) ان سلوك (افيلين) ، وتصرفـاتها في المواقف الحـرجة التي عرضتها الروايـة
يضعـانهـا في مرحـلة من العـمر تفوق كـثيرا سنهـا . ففتـاة في السادسـة
عشـرة من العـمر تجيب بـهـذه الاجـابات ، وتقف أمام الجنـود تلـك
الوقفـات (الفصـل ٨ ، ٢٧) وتفكـر بـهـذا المستوى من الذكـاء ف (٢٨) شـيء
لا يكـاد يصـدقه العـقل . ولكن للمؤلف العـذر في القـول : إن وضع المجتمع
في ذلك الوقـت ، وخاصـة ظـروف الطبقـة الأرسـتقراطية فيـه تسـاعد على
إنشـاء مثـل هـذا النـوع من الفتيـات والفتيـان الذين يمتـازون بالذكـاء
والتفـوق . خاصـة ونحـن نجـد أن (داميـان دولاسي) ، لا يتجـاوز
سـنه ولا سـن غـلامه (أمليـوت) الخامسـة عشـرة ، وهـو
فـارس شجـاع . يشـق فيـه عمـه إلى الدرجـة التي يضـع فيهـا
أمـلاكه وخطيبتـه والقلعـة تحـت حـمايته !! .

وتحكيم الضمير ، وإهمال مايقوله الناس من إشاعات • وإن كان سلوكها - في بعض الأحيان - تسمه العاطفة ويدفعه ما تشعر به تجاه (داميان)! إلا أن القوة الغالبة كانت في معظم الأحيان هي قوه العقل والضمير في توجيه سلوكها •

فإصرارها على مغادرة القلعة مع (روال) و (مدام جيلان) لمشاهدة رياضة الصيد بالصقور ، في ذلك الصباح الباكر[١] ، وإصرارها على إحضار (داميان دولاسي) إلى داخل القلعة لمعالجته والإشراف على صحته بنفسها[٢] • وإصرارها على عدم إخراجه لقوة الملك التي اتهمته بالخيانة والتمرد على طاعة وأوامر الملك ، وطلبت تسليمه[٣] • وتمسكها بموقفها الأصلي وهو : الحفاظ على شرف خطيبها (هوجو) وانتظاره حتى يعود حتى بعد انقضاء الفترة المقررة • كل هذه أمور ساعدت على زيادة تعقد الأحداث •

وفي النهاية تظهر شخصية (افيلين) كما عرفناها منذ بداية الرواية فتاة عاقلة ، عفيفة ، حرصت على الحفاظ على شرف خطيبها الغائب حتى يعود وبعد انقضاء الفترة التي تحلها من عقدها معه • فيكافئها (هوجو دولاسي) - على عفتها ، وعلى حفاظها على سمعته • ووقوفها ضد التيارات الظالمة - يكافئها بإحلالها من العقد الذي يربطها به ويزوجها بابن آخيه (داميان) الذي يناسبها •

فلاموك

فلاموك الفلمنجي هو أحد بقايا الغزو الاسكندنافي للجزيرة البريطانية يمثل في حد ذاته عنصرا من عناصر الصراع بين الأعراق في الجزيرة البريطانية • إن الانجليز والنورمانديين ينظرون إلى الفلمنجيين على أنهم أناس فقراء متوحشون قادتهم ظروف الفقر في بلدانهم الأصلية في الشمال ، للاعتداء على الجزيرة البريطانية ونهبها • معروف أن بلاد الشمال ،

---

(١) *Scott., The Betrothed, Ch.23.*

(٢) *Ibid., Ch.26.*

(٣) *Ibid., Ch.28.*

مناطق زراعية أهلها أناس حرفيون . وكان (فلاموك) يمثل هؤلاء الاسكندنافيين الذين وجدوا ضالتهم في الجزيرة البريطانية ، فاستقروا آمنين ، عاملين في حراثة الأرض ، واستغلالها في أداء حرفهم اليدوية ، وكان مايميز أراضيهم (مراوح الهواء) التي تدير الطواحين . وقد كانت فئة الفلمنجيين ، فئة مستضعفة ، لذا فقد كانت كل فئة توالي نبيلا من النورماند لحمايتها . وكان (فلاموك) أحد موالي النبيل (ريموند بيرنجر) النورماندي .

وعندما تعرضت قلعة (ريموند بيرنجر) لهجوم الانجليز ، طلب (ريموند) من (فلاموك) أن يبقى ورجاله داخل القلعة يدافعون عنها ويدافعون عن (افيلين) والمستضعفين من النساء والأطفال والشيوخ : " .. ويلكن فلاموك ! سأتحدث إليك لا بلغة الفروسة التي لا تعرف فيها شيئا ، ولكن أتحدث إليك بصفتك رجلا أمينا وتدين بالنصرانية ، إنني أعهد إليك بحماية القلعة . فلاتدع أحداً من الأعداء يغريك بارتكاب أمور دنيئة أو بالتسليم . والمعونة ستأتي قريبا ، فلو أديت مهمتك التي كلفتك بها ، فإن (هوجو دولاسي) سيكافئك مكافأة سخية ، ولو فشلت فسوف يعاقبك عقابا قاسيا "[1].

من خلال الحديث الذي وجهه (ريموند بيرنجر) لـ (ويلكن فلاموك) تلحظ نوعية العلاقة بين الطرفين النورماندي والاسكندنافي .

وبالرغم من هذه العلاقة ، علاقة السيد بالمسود ، فإن (فلاموك) كان رجلا حصيفا عاقلا ، متيقظا وذكيا . لا يهمه مخالفة رأي سيده لو رأى أنه يجانب الصواب والحكمة . فنجد (ريموند بيرنجر) الشيخ النبيل يقبل تحدي (جوين وين) الأمير الانجليزي الفتي . ويعرض نفسه ورجاله للخطر والموت في سبيل الوفاء بما أسماه (وعدا) : بالمقارعة مع الانجليز الذين يفوقونهم عددا وعدة ، خارج أسوار القلعة . وكان هذا التحدي من (جوين وين) وقبوله من (ريموند) تحت وطأة السكر . لقد أصر (ريموند) على موقفه حتى لا يتهم بالجبن بالرغم من محاولات مستشاره ، وجنديه[2] ، المخلص في اقناعة بالعدول عن رأيه . أما (فلاموك) الفلمنجي فقد رفض

---

(١) *Ibid., P.325.*

(٢) *Denis.*

أوامر سيده بالانضمام إلى الجنود • لأنه رأى أن ليس من الحكمة المخاطرة بأرواح الرجال بسبب تحدٍ وقع تحت وطأة سكر : "•• آسف ياسيدي ، لي حديث معك ، فأنا أملك في هذا البلد ، طواحين ، ومبان ، ومستودعات ملابس ، •••• الخ • وعلي أن أدفع ، لهؤلاء الرجال الذين يعملون لصالح هذه المشروعات ، مالا للدفاع عن القلعة ، وأنا مستعد لذلك • ولكن إذا أمرتني بالمضي معك تاركين هذه القلعة دون حماية ، وأن أقدم حياتي رخيصة في معركة أنت أعترفت بأنها ميؤوس منها ، فيؤسفني أن أقول أن ولائي يمنعني من طاعتك •"(1)

وهكذا ظلت شخصية (فلاموك) طوال الرواية • إنه لا يتورع عن عصيان نبيل أو أمير أو قائد إذا رأى أن في اتباع أوامره خطرا عليه • أو لم تظهر له حكمة تلك الأوامر • فنراه حين يستدعيه (هوجو دولاسي) ليكلفه بحراسة (افيلين) أثناء غيابه في الأرض المقدسة والذي سيستمر ثلاثة أعوام ، عارضا عليه هبة سخية ، يقول : "•• قد يفهم رجل آخر قيمة سخائك هذا ••• ولكني رجل صريح فلن آخذ ثمنا لخدمة لا استطيع تحمل تبعتها •"(2)

وبعد أخذ وعطاء ونقاش جاد بين (فلاموك) و (هوجودولاسي) يقول (فلاموك) : "ولكن فكر جيدا ، فيمن سيكون المطاع ، لو قال النساج الفلمنجي (أغلق) ، في الوقت الذي تقول فيه الآنسة النورماندية (افتح) • باختصار ياسيدي ، فيما يخص موضوع الحماية ، وما شابهه ، فأنا أغسل يدي منه ، ولن أعرض نفسي لحماية سوزانا العفيفة المحتشمة ، حتى ولو كانت تقيم في قلعة ساحرة لا يقربها مخلوق •"(3)

وكان إصراره هذا مبنيا على فهمه الجيد ، لوضعه ومكانته الاجتماعيه • وإدراكه لخفايا الأمور ، وتجاربه الطويلة في الحياة ونفوس البشر ، حتى أنه عندما أشار على (هوجو) ، باتخاذ ابن أخيه (داميان) حارسا وحاميا لخطيبته (افيلين) ، قال : "شق في ابن

---

(١) Scott., *The Betrothed*, P.325.

(٢) Ibid., P.440.

(٣) Ibid., P.440.

أخيك إذن ياسيدي . إنه أمين وصادق : ومن الأفضل أن تثق في أسود شابة من أن تثق في ذئاب مسنة . من المحتمل أن يخطيء ولكن لن يكون خطوه عن سابق تخطيط وخيانه ".(١)

وهذا ماحصل بالفعل !

وهكذا احتفظ (فلاموك) بصفاته التي عرفناه بها منذ البداية : العقل والحكمة ، والاخلاص ، فكان لا يتأخر عن خدمة سيدته (افيلين) إذا احتاجت إليه . وكان لا يورط نفسه في أمور يرى مستقبلها واضحا . وكان وفيا لسيده (بيرنجر) و (هوجو دولاسي) و للملك ، وكان نتيجة هذا الوفاء : أن منحه الملك حرية ذاتية ، في أرضه لاستغلال مصانعه ، دون أن يكون مواليا لأحد من النبلاء . وظل (فلاموك) طوال الرواية ، ممثلا منطق العقل والحكمة ضد التهور والاندفاع .

ونلتقي به في النهاية حين ألقى القبض على (فيدال) الشاعر الذي اغتال (راندال دولاسي) ، مدفوعا بحبه وولائه (لهوجو دولاسي) .

روز

(روز فلاموك) الفلمنجيه ، ابنة (ويلكن فلاموك) أحد أتباعه النبيل (ريموند بيرنجر) هي وصيفة النبيلة (افيلين) ومن أقرب المقربين إليها والمخلصين لها . ونحن القراء لا نكاد نرى (افيلين) إلا برفقة (روز) . إنها فتاة حصيفة عاقلة ، تمثل صوت الواجب والمفروض والمنطق والضمير في الروايه . ظلت طوال الرواية ، تتحلى بهذه الصفات وبرفقة سيدتها (افيلين) ولم تترك رعايتها إلا بعد أن أجبرتها الظروف التي أحاطت بسيدتها بعد اتهامها بالخيانة ، وحبسها في غرفة بسيطة وعزلها عن الناس ، وعن أقرب المقربين ، وهي (روز) . وذلك بأمر من الملك هنري .

ليس لـ (ويلكن فلاموك) ابنة غير (روز) . وكان هذا سببا في اكتساء العلاقة بينهما برداء المحبة الخالصة ، والالتصاق الحميم والفخر والاعتزاز .

بعد هزيمة (ريموند بيرنجر) وقتله يبقى (ويلكن فلاموك) حاميا للقلعة

---

(١) *Ibid.*, P.441.

ـ كما طلب منه بيرنجر ـ إلى أن تصل قوات (هوجو دولاسي) ٠ وعقب الهزيمة ، أرسل الأمير الانجليزي ، إلى حامي القلعة يطلب منه التسليم، وكان (فلاموك) ـ كما ذكرنا سابقا ـ داهية ٠ فقد استطاع بحيلة دبرها ظاهرها التسليم والخيانة لـ (ريموند بيرنجر) ، وباطنها مخادعة القوات الانجليزية واستغلال الوقت ـ استطاع أن يأخذ مايريد من ماشية من القوات الانجليزية مقابل لاشيء ٠ ولكن نظرا ـ لما سبق أن أشرنا إليه ـ من الفروق العرقية والوضع الاجتماعي السائد في تلك الحقبة من الزمن والنظرة إلى العرق الفلمنجي على أنه أقل شأنا ٠٠٠ نجد ، القس (الدروفاند) يسيء الظن بـ (فلاموك) ويشدد حذره منه ومراقبته له ، فظن أن (فلاموك) كان يتواطأ مع القوات الانجليزية ، واتهمه أمام سيدته وابنته (روز) ، بالخيانة ٠ في هذا الفصل (الفصل السادس) تتجلى لنا العلاقة القوية المتينة القائمة بين (روز) وأبيها ٠ لقد بلغت (روز) أشد حالات انفعالها دفاعا عن شرف والدها وولائه[١] ٠ ويتجلى افتخارها بعرقها أيضا في موقف لها مع القس (الدروفاند) حين أشار إلى اللغة الفلمنجية بامتهان ، ردت عليه في ثورة قائلة :

"الفلمنجية ، ليست رطانة ، مثل انجليزيتكم المرقطة ٠ نصفها نورماندي ونصفها ساكسوني ٠ ولكن اللسان القوطي فصيح ، لغة يتحدث بها المحاربون الشجعان الذين حاربوا ضد قياصرة روما عندما أحنى البريطانيون رؤوسهم ورقابهم أمامهم" ثم أكملت حديثها قائلة : "أما بالنسبة لما قاله ضد (ويلكن فلاموك) ، ٠٠ فلا تصدقي يا سيدتي العزيزة ، ولكن لك أن تقدري شرف والدك النبيل ، الذي طرحه على والدي حين وثق فيه ، وفي أمانته ، (وفي هذا مايكفي)"[٢] لقد قالت هذا الكلام في لهجة جادة قوية مشوبة بروح الافتخار والاعتزاز بوالدها وثقة النبيل فيه من دون سائر رجاله ٠

واستمرت (روز) في موقفها هذا الذي يتضمن الافتخار والاعتزاز بنفسها وبوالدها وبعرقها فلا تسكت أمام أية إهانة يوجهها إليها أحد حتى لوكان هذا الشخص نبيلا أو أميرا ٠ وهذا ماشاهدناه في موقفها

---

(١) *Ibid.*, P. 342.

(٢) *Ibid.*, P. 343.

مع (هوجو دولاسي) الذي حاول أن يرشيها بسلسلة ثمينة من الذهب ليكون ثمنا لسكوتها ، وكتمانها سر الحديث الذي دار بينه وبين (افيلين) في موضوع خطبته لها ، قالت له (روز) : "إن ثقتي ياسيدي لا تشترى" قالت هذه العبارة معيدة إليه هديته التي قدمها"[1].

لقد اختار الكاتب شخصية (روز) إلى جانب شخصية (افيلين) متعمدا لتخلق جوا من التوازن بين العقل والعاطفة والاندفاع والتروي والحكمة والتهور .
فكلما طغت العاطفة في موقف من مواقف تتعرض لها (افيلين) ، تبرز (روز) لتخلق جوا من التوازن في السلوك تجاه ذلك الموقف .

وأحيانا تبرز (روز) في موقف ما ليؤكد الكاتب من خلال ذلك الموقف صفة متأصلة في (افيلين) . و (افيلين) مثلا فتاة لا تهتم بمايقوله الناس . تفعل ماتؤمن به ، حتى ولو تعارض مع مبادئ ورأي الآخرين . فعندما أخرج (داميان دولاسي) من الكهف الذي سجنه فيه رجال (راندال) بعد أن ضربوه وجرحوه ، أصرت (افيلين) على إحضاره إلى القلعة ، وتجهيز حجرة والدها لتكون له ، وأصرت أيضا على أن تشرف على علاجه بنفسها ، وذلك لشعورها أن ماحدث لـ (داميان) كان بسببها . ولكن موقفها وإصرارها هذا يعارض المبادئ التي تعارف عليها الناس الذين يحيطون بها . و (روز) تعد من ضمن هؤلاء الناس . لذا نجدها تحاول بشتى الطرق إثناء (افيلين) عن عزمها ولكن الأخيرة أصرت على موقفها ولم تستمع لنصح وصيفتها .

وقد كان إصرارها هذا والذي كان بدافع العاطفة ، وعدم إنصاتها لنصح وصيفتها ، سببا قويا من أسباب تمرد الجند ، واتهامها بالخيانة لخطيبها ، واتهامها بالخيانة أمام الملك .

بهذه الصفات المتميزة التي جعلت من دور (روز) مهما في الرواية ، بهذه الحكمة وهذا المنطق وهذه الجرأة والوفاء والإخلاص لسيدتها ، ظلت (روز) تتحرك في أجزاء الرواية جميعها ، لتثبت في النهاية أنها ذات معدن أصيل .

---

(١) *Ibid.*, P.373.

وقد أراد لها الكاتب هذه الصورة المشرقة المحبوبة عندما جعل البشارة (بعودة هوجو دولاسي ، ومقتل راندال دولاسي الشرير . والافراج عن داميان دولاسي والافراج عن سيدتها) على لسان روز . لقد أفاقت (افيلين) من حلم جميل لترى أمامها (روز) - (التي غابت عنها ، بأمر الملك . عندما كانت افيلين في سجنها) تزف إليها خبر وصول (هوجو دولاسي) الذي عاد أكثر حكمة وتعقلا .

داميان دولاسي

هو ابن أخي (هوجو دو لاسي) . شاب في مقتبل العمر . وبالرغم من إبلائه بلاء حسنا في معركتهم ، ضد الانجليز إلا أن : "ملامحه تضعه بين الأحداث ، فلا يرى فيه من ملامح الشباب سوى أسفل الشفة العليا الذي يعلن بشكل قاطع قربه من سن الرجولة" (١) . كان جميل المحيا إلى درجة أنه عندما جاء إلى القلعة مبعوثا من قبل عمه (هوجو دولاسي) لاخبار (افيلين) بالنصر : "تدافع النساء إلى فناء القلعة لترى أول مبعوث من قبل منقذيهم ، وخلطن الثناء على جماله ووسامته بالاطراء على شجاعته وبسالته" (٢) .

لقد تعرفنا على (داميان) عقب انتصار (هوجو دولاسي) ورجاله على فرقة الأمير الانجليزي ، وقتله . وذلك في الفصل التاسع . وفي الفصل العاشر تقابل (داميان دولاسي) مع (افيلين) بيرنجر : "لقد احمر وجه (افيلين) خجلا عندما تقدمت خطوتين لتستقبل الشاب المبعوث الوسيم . وقد سرت عدوى الخجل إلى داميان ، حتى أنه قام برد تحية مراسيم الاستقبال في شيء من الحرج ، وفي ارتباك قبل يد افيلين التي امتدت إليه في لغة الاستقبال" (٣) . هكذا كان استقبال (داميان دولاسي) . (افيلين) فتاة جميلة حصيفة في سن السادسة عشرة و (داميان) فتى وسيم في مثل عمرها يلتقيان لأول مرة ، فيقع (داميان) في غرامها - وتفكر هي فيه . ولكن الاثنين يحاولان إخفاء عواطفهما بكل الطرق .

---

(١) *Ibid.*, P.360.

(٢) *Ibid.*, P.361.

(٣) *Ibid.*, P.363.

إن (داميان) يعرف أن عمه يريد (افيلين) زوجة له . وهو يكن لعمه كل حب وتقدير فهو الذي رباه وعلمه الفروسية ، بعد وفاة والده. أما (افيلين) فلم تصرح بما تشعر به تجاهه إنما كانت دائمة السؤال عنه والتفكير فيه .

ساهم (داميان دولاسي) مساهمة كبيرة في تعقيد أحداث الرواية ودفعها للأمام وذلك من خلال علاقته بخطيبة عمه .

كان من المفروض أن يبقى (هوجو دولاسي) في انجلترا عقب زواجه ، ويذهب (داميان) عوضا عنه . ولكن الأخير أصيب بوعكة صحية أقعدته في الفراش ، وذلك قبل عقد قران عمه . لقد احتار الأطباء في سببها . ولكن القارئ كان يعرف بأن سبب هذه الوعكة هو : الصراع الدامي الذي كان يعانيه بعد أن رأى (افيلين) . لقد وقع فريسة غرامها ولم يكن يستطيع التصريح بهذه العاطفة لأنه يعرف ، أن عمه يريدها له . هذا الأمر جعله يعاني تلك الحمى والهلوسة التي منعته من حضور عقد قران عمه على افيلين .

تقول افيلين : .....‹‹غريب أني لم أر (داميان دولاسي) منذ لقائي مع أمين الشرطة ››[1].

نعم لقد انقطع (داميان) عن رؤية (افيلين) منذ أن عرف برغبة عمه . كان الجميع يشعر بتبادل العواطف بين الشابين ، ولكن لم يكن هناك دليل يثبت التقاءهما . وكان (هوجو دولاسي) يثق في ابن أخيه ، كل الثقة ، ولم يفكر يوما في أن يخونه . أما (افيلين) فكانت (روز) تعلم بما يكنه صدرها ، لذلك كانت تجد في إبعادهما عن بعضهما البعض حتى لا يساء إلى سيدتها . ولكن الكنيسة تجبر (هوجو دولاسي) على ضرورة المضي إلى الأرض المقدسة لتلبية نداء الرب - كما يزعمون - ويضطر عندها (هوجو) إلى ترك خطيبته في عهدة ابن أخيه ، خاصة وقد مَنَّ الله عليه بالشفاء .

ومن هنا تزداد الأمور تعقيدا . ويزداد العامة في إساءة الظن بـ (داميان) و (افيلين) بالرغم من حرص (داميان) الشديد على الحفاظ

---

(١) *Ibid.*, P.378.

على كرامة عمه وشرفه . وإمعانا في هذا الحرص كان يرفض مقابلة خطيبة عمه ، وجها لوجه . هذا السلوك كان يزيد (افيلين) تفكيرا فيه .

وفي هذه الأثناء يظهر (راندال دولاسي) فينتهز فرصة غياب ابن عمه وثقته في خطيبته وابن أخيه ليدس لهما ويكيد .

تلتقي شخصية (داميان) بشخصية (افيلين) في نقاط كثيرة أولها صغر السن ثم القدرة على تحمل المسؤولية الموكولة إلى كل منهما ، بالرغم من صغر سنهما . الشجاعة والإصرار على المضي في سبيل اختاره كل منهما ، إذا بدا لهما صحته . وأخيرا رغبتهما في الحفاظ على سمعة وكرامة (هوجو دولاسي) ، لأن كل منهما يحفظ له معروفا وجميلا . ظلت هذه هي صفاتهما إلى نهاية الرواية ، بالرغم من كل الأحداث التي كانت ضدهما . فترى أن (راندال دولاسي) الشرير يحيك لهما المكائد من أجل الحصول على أملاكهما ، مستغلا كل الظروف . وينجح (راندال) في مكيدته ، ولكن لم يستمر نجاحه إلى النهاية ، حيث يظهر (هوجو دولاسي) ويذهب بنفسه ، لاختبار صدق نوايا ابن أخيه (داميان) وعفافه تجاه خطيبته :

"لاتعتقد يا ابن أخي العزيز أنى أردت بتنكري هذا أن أختبر صدقك وولاءك الذي لم أشك فيه لحظه . ولكن الألسنة الحاقدة ، كانت تلوك سيرتك وهذا فقط ماجعلني ، أقرر هذه الحيلة التي كانت نتيجتها كما توقعتها تشرفك وترفع من قدرك ...." (١)

وبعد أن أطمأن قلب (هوجو دولاسي) من جانب ابن أخيه وتأكد من عفته وصدقه في رعاية "المخطوبه" ووفائه لعمه . أراد أن يكافئه على شهامته ومروءته :

- "... هيء نفسك بسرعة لترافقني إلى الكنيسة بعد العصر لأنك ياداميان لابد أن تكون حاضرا زواج النبيلة افيلين بيرنجر". (٢)

---

(١) *Ibid.*, P.513.

(٢) *Ibid.*, P.513.

ولكن المسكين داميان اعتذر عن الحضور لأنه خاف أن يراها مرة أخرى فيعاوده الصراع والمرض والهلوسة فلا يستطيع هذه المرة ، أن يكتم عاطفته ، ولم يكن يدري أن عمه قد أعد له مفاجأة سيسر لها ، لقد تنازل (هوجو دولاسي) لابن أخيه عن (المخطوبة) ووافقت العروس وباركت الكنيسة وسر الملك لذلك .(١)

راندال دولاسي

هو ابن عم (هوجو دولاسي) . شاب شرير أناني لايتورع عن فعل أية جريمة من أجل تحقيق مايريد . لقد تسبب في عذاب (داميان) و (افيلين) وسخط الناس والملك عليهما ، وتسبب في اتهامهما بالخيانة للملك و (هوجو دولاسي) ، بتدبير حيل ومكائد شريرة نجح فيها .

وقد ساهمت شخصيته كثيرا في إضفاء جو من التعقيد والإثارة في الرواية . فساعد في تصعيد الحدث بما دبره من حيل شريرة ، تفاعلت معها (مع هذه الأحداث) معظم شخصيات الرواية . وأضفى جوا من الاثارة وذلك بظهوره في هيئات مختلفة ، فتارة في هيئة تاجر متجول ، وتارة في هيئة تاجر صقور ، وتارة في شكله الحقيقي . ظهوره في هذه الهيئات المختلفة واتفاقه مع مدام (جيلان) الثرثارة ، بتبادل المنفعة ، ودخوله القلعة بواسطتها بحيل دبرها .. كل هذه الأمور أعطت الرواية روح الاثارة وعنصر التشويق .

وقبل أن نرى هذه الشخصية أو نسمع عنها أشارت جدة (افيلين) السكسونية (سيده بالدرنجهام) أشارت إلى شخصية (راندال) ووصفته بالشر :

"الجده : ... أخبريني لأي من آل دولاسي ستصبحين زوجة؟ أإلى المتعجرف أمين الشرطة ، الذي يغلف نفسه في أسلحة لايمكن اختراقها ويعلو صهوة جواد خفيف قوي ومنيع مثله . يفتخر باستطاعته الانزلاق عن ظهر جواده في خفة ومهارة ليطعن جنود ويلز العراة؟ أم ستكونين لابن أخيه الأمير داميان؟ أم ستصرفين ممتلكاتك من أجل اصلاح الصدع في

---

(١) *Ibid.*, P.513.

ثروة ابن عمه راندال دولاسي ذلك العربيد الفاسد ... »[١] .

لقد كان (راندال) بخصاله السيئة التي أجبرت ابن عمه على طرده وحرمانه من إرث آل (دولاسي) ، يحتال ويدعي التوبة أمام ابن عمه ، ليعاود أفعاله القبيحة . وقد انتهز هذه المرة خطبة ابن عمه لـ (افيلين) ليحتال من أجل العودة إلى حظيرة آل (دو لاسي) . وقام بزيارة (افيلين) وطلب منها الشفاعة له عند (هوجو دولاسي) ، والسماح له بحضور عقد القران . وكانت هذه أول وآخر مرة يظهر فيها (راندال دولاسي) في صورته الحقيقية ، وقد حصل ما أراد ، إذ وافق (هوجو) على طلبه وعفى عنه .

ولكن (راندال دولاسي) ماكان حسن النية . لقد أراد شيئا خطيرا ، وقصد بهذا الصلح الاساءة إلى (افيلين) و (داميان) و (هوجو) من أجل الاستيلاء على أموالهم وأراضيهم . فقد سبق أن ظهر (راندال) في الرواية في هيئة تاجر أقمشة وملبوسات نسائية . وكان ظهوره أثناء إقامة مراسيم دفن والد (افيلين) السير (ريموند بيرنجر) . استطاع (راندال) أن يعرف كل شيء عن (افيلين) وعن نوايا النبيل (هوجو دولاسي) ومايقوله الناس حول (المخطوبة) و (داميان)[٢] . استطاع معرفة كل هذه الأمور عن طريق الثرثارة مدام (جيلان) زوجة العجوز (راول) وخليلة (ريموند بيرنجر) . وقد أعطته مدام (جيلان) كلمة السر لدخول القلعة بلا مصاعب .

وكان ظهور (راندال دولاسي) مرة بصورته واسمه الحقيقيين ومرة متنكرا في هيئات مختلفة ، كان هذا سببا في إثارة شك القاريء بسوء نواياه وخبثه . وقد ثبت ذلك عندما ظهر للمرة الثالثة بعد سفر (هوجو دولاسي) إلى الأراضي المقدسة . لقد ظهر في صورة تاجر صقور[٣] . واستطاع دخول القلعة بكلمة السر التي أعطتها له مدام (جيلان) مقابل بعض النقود . وكانت نيته هذه المرة خطف

---

(١) *Ibid.*, P.386.

(٢) *Ibid.*, Ch.10.

(٣) *Ibid.*, Ch.23-29.

(افيلين) والاساءة إلى (داميان) . وقد نجح في حيلته تلك إذ استطاع إقناع (راول) و (افيلين) بالخروج في الصباح الباكر - دون إعلام أحد في القلعة - إلى البحيرة الحمراء التي تبعد ثلاثة أميال عن القلعة في اتجاه الأعداء من الانجليز . وبعد خروجهم انفرد بهم (راندال) وجماعة كبيرة من الانجليز ، طوقوا (راول) و (افيلين) وكل من معهما ثم اختطفوا (افيلين) ورموا بها ، داخل كهف مظلم سدوه بصخرة ضخمة ، بعد أن أعلموا (داميان) بخروجها وجعلوه يخرج بحثا عنها ثم انفردوا به وأشبعوه ضربا حتى أدموا جسده ورموه داخل الكهف نفسه .

بهذه الحيلة ، استطاع (راندال) أن يسيء إلى العلاقة الطاهرة القائمة بين خطيبة عمه و (داميان) . إذ بها تمكن من إثارة الشكوك في نفوس العامة والجنود . مما جعلهم يستخفون بالشابين ، ويتمردون على (داميان) ، ويتهمونه بالخيانة لعمه ، وللملك ، الذي أرسل في تلك الأثناء مبعوثا لـ (داميان) يطلب فيه ، مساعدة أحد قواده الذين كانوا يصدون هجمات ثورة الفلاحين ، في القرى المجاورة . ولكن حيث تزامن حادث اختطاف (افيلين) مع طلب النجدة ، فضل (داميان) الحفاظ على شرف عمه بإنقاذ (المخطوبة) أولا ثم تلبية نداء الملك ثانيا . ولكن عندما دبر له (راندال) مكيدة رميه في الكهف لم يتمكن (داميان) من نجدة قائد الملك . الأمر الذي أدى إلى مقتله واستسلام جنوده ، أمام ثورة الفلاحين . وقد كان تأخره عن نجدة قائد الملك ، سببا في اتهامه بالخيانة . وبالتالي اتهام (افيلين) بالتستر على خائن ، ذلك عندما أحضرته إلى القلعة للاشراف على علاجه بعد أن أنقذهما (فلاموك) .

وبعد نجاحه في مكيدته تلك ، أعلن (راندال دولاسي) وفاة ابن عمه أمين الشرطة ، بعد تغليظ القسم على ذلك أمام الملك . وكان (راندال) قد أصبح من جند الملك المقربين . وكانت مكافأته على ولائه للملك ، وإخلاصه ، أن خلعت عليه أملاك (هوجو دولاسي) ، وأملاك (افيلين) بعد

أن جردت منها . وبهذا تحقق حلم (راندال دولاسي) . ولكن حلمه كان قصيرا . فما أن أعد له الملك احتفالا لتنصيبه مكان (هوجو دولاسي) كأمين للشرطة ، حتى قيض الله له - في صبيحة يوم الاحتفال نفسه - (فيدال) الشاعر الانجليزي أحد شعراء (جوين وين) أمير ويلز ، فقتله بخنجره ظانا أنه (هوجو دولاسي) الذي عاد معه من الأرض المقدسة . وبذلك قضى على (راندال) بعد أن علم الملك بخبثه وشره وبراءة (داميان) و (افيلين) وتأكد من ذلك بنفسه[1] .

وهكذا وجدنا أن شخصيات رواية المخطوبة للسير ولتر سكوت ، شخصيات لها قوة واستقلالية . فكل شخصية أدت دورا محددا بدقة في الرواية . فإذا ما أردنا النظر بدقة إلى هذه الشخصيات وجدنا أن بعضها يفوق البعض الآخر بسمات معينة . فبعضها يمكن استبدالها بشخصيات أخرى تؤدي الدور نفسه والبعض الآخر لا يمكن أن يؤدي دورها شخصية أخرى ، من هذا المنطلق فقط نستطيع أن نحكم على هذه الشخصيات وتفاوتها من حيث الأهمية في داخل اطار العمل الأدبي :

فاذا نظرنا إلى شخصية (هوجو دولاسي) وشخصية (افيلين بيرنجر) وجدنا أنهما من الشخصيات التي لايمكن استبدالها بشخصيات أخرى لتؤدي دورها بدون أن يحدث خلل في العمل الفني . ف (هوجو دولاسي) و (افيلين) هما مركز الصراع في الرواية . بدونهما لا يكون هناك صراع ولا قصة . و (هوجو دولاسي) بصفاته المتمثلة في شجاعته ووفائه لصديقة الحميم (ريموند بيرنجر) ، وبسالته في الحرب ضد جنود الأمير الانجليزي ليثأر لصديقه ، وكبر سنه ، وعدم انجابه ، واشتراكه في الحرب المقدسة ، ووجود أقربائه المتمثلين في (داميان) الدمث الخلق ، و (راندال) الشرير ثم عقده على (افيلين) وسفره إلى الأرض المقدسة ، وغيابه أكثر من ثلاثة أعوام ، ثم إعلان موته ، ومن ثم ظهوره مرة أخرى .. هذه الشخصية بكل هذه الموازين والصفات لايمكن أن يحل محلها شخصية أخرى ، وكل أحداث الرواية مجتمعة تدور حوله وحول "المخطوبة" ، فهو يعقد قرانه ويتوجه إلى الأرض المقدسة بتحريض من الكنيسة ويترك خلفة خطيبته التي

---

(١) *Ibid., Ch.30.*

يحبها ليرعاها ابن أخيه الشاب الوسيم الذي يكن "للمخطوبة" عاطفة قوية . ويدبر لهما (راندال) الشرير مكيدة للاساءة إليهما والحصول على أموالهما . ويسجنان بعد أن يذاع خبر وفاة (هوجو دولاسي) في الحرب المقدسة . ثم يعود (هوجو) من الأرض المقدسة ليكذب قسم (راندال) ويكشف للملك عن خداعه وخبثه . إذن بسفر (هوجو دولاسي) تبدأ التعقيدات والمشاكل في الرواية ، وبعودته تحل جميع المشاكل وتتجه الأمور نحو الحل . من هذا المنطلق ليس لنا إلا أن نضع (هوجو دولاسي) فى رأس قائمة الشخصيات المهمة ليكون الشخصية الرئيسة فى الرواية .

أما (افيلين) فهى الشطر المكمل لتلك الشخصية إذ بدونها لم يكن ليوجد هذا الصراع . ف (افيلين) بكل ماتملك من خصال ومميزات وذكاء نستطيع أن نضعها على رأس قائمة بقية الشخصيات . فهي الفتاة الشابة الجميلة ، التى أشعل برفض والدها لطلب الأمير الانجليزي يدها ، تلك الحرب التي قضي فيها على والدها وعلى الأمير الانجليزي نفسه . هذه الفتاة التى لم تبلغ السادسة عشرة من عمرها تنذر أمام العذراء أن تهب نفسها لأي بطل يخلصها من العار والأسر . ويكون (هوجو دولاسي) هو ذلك البطل . ولكن (هوجو) هذا فارس عجوز في سن والدها . وهي قد تعلق قلبها بابن أخيه (داميان) . ولكنها كانت أقوى من هذه العاطفة فقد تغلبت على عاطفتها لتفي بنذرها وتقبل الزواج من (هوجو) ، الذي يعقد عليها ، ثم يتوجه إلى الأرض المقدسة لتلبية نداء الرب كما يزعمون - ويتركها في حماية ابن أخيه (داميان) . ويكون ذلك سببا في كثير من المشاكل والصعوبات التي دفعت بالعمل الأدبي إلى الأمام بقوة . فالمخطوبة صغيرة السن وجميلة ، وخطيبها غائب ولن يعود قبل ثلاث سنوات . وهي في حماية شاب صغير يماثلها العمر ووسيم . وهذا الموقف فرصة طيبة ، لأصحاب النفوس الشريرة . وهذا ماحصل . حيث استغل (راندال) هذه الظروف استغلالا كبيرا أغرق فيها هذين الشابين في بحر من المشاكل والتهم . ولم تحل هذه المشاكل إلا بظهور (هوجو) مرة أخرى في نهاية الرواية .

أما بقية الشخصيات أمثال (راندال) و (روز) و (فلاموك) و (داميان) أيضا ، فإننا لا ننكر أنها ، أدت دورا مهما في الرواية ، إذ لولا

وجودهم ماتعقدت أحداث الرواية وما تشابكت ، ولكن السؤال هو : هل يمكن استبدال شخصيات أخرى بهذه الشخصيات . مثلا بدلا من أن يقوم (راندال) بهذا الدور يقوم به شخص آخر كشخصية (روال) مثلا. وشخصية (داميان) أما كان من الممكن أن تؤدي دورها شخصية أخرى (أمليوت) مثلا ؟ ..

نعم يمكن ذلك ؛ لأن الذي يهم القارىء في هذه الشخصيات هو ماتفعله هذه الشخصية ، وما تسببه من أحداث بالدرجة الأولى وليست الشخصية في حد ذاتها كعنصر حي !! ولكن هذا لايمنع أهمية هذه الشخصيات وقوتها فى العمل الأدبي .

ونستطيع أن نصنف شخصيات (هوجو دولاسي) و (افيلين) و (داميان) شخصيات معقدة أو مدورة ، ذلك أن الأحداث كشفت عن جوانب عدة ومختلفة في هذه الشخصيات ، أما بقية الشخصيات فهي شخصيات مسطحة وبسيطة .

(٤) الحقيقة التاريخية والفلكلور الشعبي ومعالجتهما

إن حبكة رواية المخطوبة معتمدة على أكثر من مصدر :

هناك المصدر التاريخي ، الذي يشير إلى حقيقة الوضع في أوروبا وانجلترا بوجه خاص ، إبان الحروب الصليبية . إن القساوسة في تلك الفترة (العصور الوسطى) ظلوا يدفعون الفرسان دفعا قويا – باستخدام سلاح الدين – إلى الأرض المقدسة (فلسطين) لتحريرها – على زعمهم – من يد المسلمين . ملبين في ذلك نداء الرب . وقد كانت الكنيسة هي السلطة القوية القادرة والمتفوقة ، التي لا يجرؤ أحد على معارضتها .

وهناك حقيقة تاريخية أخرى لم يغفلها السير ولتر سكوت وهي : أمر العداوات القائمة بين الأجناس المختلفة في الجزيرة البريطانية آنذاك . وكانت الجزيرة البريطانية قد تعرضت لغزوات كثيرة متتابعة من قبل أجناس مختلفة ، بدأتها روما بقيادة يوليوس قيصر حوالي (٥٥) عاما قبل الميلاد. واستمر الغزو حتى بعد ظهور المسيح ، فأدخل الرومان معهم الدين المسيحي إلى إنجلترا وأدخلوا معه اللغة

اللاتينية التي أصبحت لغة الكنيسة .

بعد ذلك تعرضت الجزيرة البريطانية لغزو القبائل الجرمانية ومنهم (الانجلو) و (السكسون) . وكان ذلك بعد خروج الرومان ٤١٠م . فأقام بعض السكسونيين القادمين عام ٤٧٧ على الساحل الجنوبي واستقروا في (سسكس)[١] . وقدم (الانجلو)[٢]، واحتلوا الساحل الشرقي وكونوا مملكة (الانجل) ثم استقروا في منطقة (ايست أنجليا) بنهاية القرن الخامس . ولم يكن غرض (الانجلو سكسون) التدمير والغزو ، بقدر ماكان الرغبة في الاستقرار والإقامة على أرض الجزيرة في أمان . وكانوا لايتورعون عن طرد السكان الأصليين من (السلت)[٣] إذا لمسوا منهم نفورا وتمردا . وبعد ذلك تعرضت الجزيرة البريطانية للغزو الاسكندنافي الذي جاء في صورة قرصنة . والاسكندنافيون جماعة تسكن شمال أوروبا ، ضاق بهم العيش فغزوا انجلترا طلبا للرزق ونهبوا وسلبوا ، واستمر غزوهم على فترات ابتداء من عام ٧٨٧م إلى أن استقر بهم الحال عام ١٠١٤م . وأصبحت انجلترا تحت الحكم الدانماركي ، بعد نفي الملك الانجليزي . وهؤلاء هم الجماعة التي كان يطلق عليهم (الفلمنج)[٤].

وأخيرا كان الغزو النورماندي عام ١٠٦٦م . والنورماند قوم يعيشون على ساحل القناه التي تفصل انجلترا عن فرنسا . وقد اشتق اسمهم من جماعات من (الشماليين)[٥] (نورذمن) ، الذين استقروا هناك في القرن التاسع والعاشر الميلادي ، وفي الوقت نفسه استقروا في شمال وشرق انجلترا. هذه الجماعة اعتنقت النصرانية ، والثقافة الفرنسية حتى أصبحت لغتهم وحياتهم قطعة من فرنسا ، ونسوا اللسان الاسكندنافي القديم . فأصبح النورمانديون من أكثر شعوب العالم حضارة .

ومما زاد في علاقة النورماند باتجلترا ، أن ملك انجلترا *AEThelred* عندما نفاه الاسكندنافيون (الدنمارك) تزوج امرأة نورماندية ولجأ إلى صهره في نورمانديا . وأنجب منها ولده (ادوارد) الذي عرف ب (*Edward The Confessor.*) . لقد نشأ (ادوارد) في نورمانديا فاكتسب الثقافة واللغة الفرنسية . وفي هذه الأثناء ، أفل نجم (الدانمرك)

---

(١) *Sussex.* (٢) *Angles.* (٣) *Celts.*

(٤) *Flemings.* (٥) *Northmen.*

في انجلترا . فعاد (ادوارد) إليها ، واعتلى عرشها ، وجلب معه الحياة الفرنسية . وفي عام ١٠٦٦ ، توفي (ادوارد) وليس له من ولد . فعادت انجلترا تواجه مشكلة اختيار ملك لها . وكان (ادوارد) في السابق قد أوحى لابن خالته (وليم) النورماندي ، بأن يكون ولي عهده . في هذه الأثناء كان (جودون ، حاكم سكسونيا الغربية)[١] هو أعظم أمراء المقاطعات الانجليزية آنذاك ، والطامع في العرش . فكان هناك إثنان يطمعان في العرش بعد (ادوارد) هما : (وليم) ابن خالته و (جودون) . لذا فكر (وليم) في غزو انجلترا ، وإجبار (جودون) على الاستسلام .

وحصل ما أراد بعد مقاومة كبيرة من قبل (جودون) وجنوده . وهكذا دخل النورماند انجلترا من أوسع أبوابها . وما لبث (وليم) أن جلب معه الجو الفرنسي . واختلط الأصل النورماندي بالأصل الانجليزي بالتزاوج والإقامة والعمل . وبنيت القلاع النورماندية المحصنة . وقد حاول (وليم) اقتلاع الانجلو سكسون بلغتهم من مضاربها ، ولكنه فشل بالطبع ، لأنها كانت لغة الشعب وذات جذور عميقة . وهكذا أصبح النورماند لهم يد في حكم انجلترا . حتى أن (هنري) ورث عن والده مقاطعة (انجو) و (مين)[٢] . وسرعان ما أخذ يحكم أجزاء واسعة من فرنسا تقدر بثلثيها إضافة إلى انجلترا[٣] .

هكذا نرى أن هناك أكثر من عرق كان قد اتخذ من الجزيرة البريطانية موطنا . هذه الأعراق المتفاوتة والمختلفة والتي كانت تتعاقب الاقامة في انجلترا ليصبح (من السلت اضافة إلى الانجلو سكسون ومعهم الاسكندنافيون ثم النورمانديون) هذه الأعراق ، ظل التنافس شديدا بين فروعها التي تركتها في الجزيرة . فالسكسوني يرى أنه أعرق نسبا من النورماندي . والنورماندي يرى أنه أعرق أصلا من الفلمنجي (الاسكندنافي) (والسلت) الذين تأصلوا في (*Britannic division*) وهي (ويلز) *Welsh* و *Cornish* و *Breton* . يعتبرون أنفسهم أكثر أصالة .

---

(١) *Godwin, Earl of West Saxon.* (٢) *Maine.*

(٣) *Baugh, Albert C. and Thomas Cable., The History of English language Third edition, PP. (32-119).*

حرب الأعراق هذه ، امتدت لتستعر نارها وتضطرم إبان الحروب الصليبية وخاصة زمن الملك هنري وابنه ريتشارد قلب الأسد ، حيث أصبحت انجلترا في هذه الفترة يقض مضجعها كابوس مخيف يخيم على صدرها مصدره الأول : إصرار الكنيسة على دفع جميع النصارى للوقوف ضد المسلمين في فلسطين يمثلهم صلاح الدين الأيوبي ، ومصدره الثاني : هذه الضربات التي يسددها سكان الجزيرة بعضهم ضد بعض ، منتهزين فرصة غياب فرسان الفرق المغار عليها في الحرب المقدسة ٠

هذا هو وضع انجلترا في تلك الفترة وفي الفترة التي حددتها الرواية بالذات ٠ كما روى التاريخ ، وكما روت قصة (المخطوبة)٠

هذا التاريخ بأحداثه مجملة هو الأرضية الواسعة التي افترشتها أحداث الرواية ٠ إن هذه الحقبة من الزمن هي "ملعب" أحداث رواية المخطوبة ٠

أما أحداث الرواية الفنية ، كالعلاقات بين الشخصيات ، وتصاعد الأحداث وتشابكها ، والصلات المعقدة بين الحدث والشخصيات في قصة "المخطوبه" ، فإنها تعتمد - إضافة إلى ماذكرنا ، وبشكل رئيس - على عنصر ، الفلكلور الشعبي ، القصص الشعبية التي سادت في تلك الحقبة من الزمن (عصر الحروب الصليبية) وتناقلتها الألسن ، ودونت في الكتب إما في شكل قصصي ، أو في شكل روايات شخصية ، أو في شكل أعمال فنية كالقصائد مثلا ٠ لقد أشير في مقدمة الرواية - صراحة - إلى ذلك ٠ وليس علينا إلا أن نرد كلا إلى أصله ، ونضع كلا في محله من الحبكة حتى نكون على بينة من نوعية البناء الروائي ٠

إن علاقة (هوجو دولاسي) النورماندي ب (سيدة قصر بالدرنجهام) جدة (افيلين) السكسونية ، وعلاقة عمة (افيلين) النورماندية والجدة السكسونية وعلاقة (ريموند بيرنجر) والد (افيلين) النورماندي ب (فلاموك) الفلمنجي ... كل هذه العلاقات المتضادة والمتنافرة تشير إلى الوضع الاجتماعي والسياسي في ذلك الوقت ٠

أما قصة رفض القس الأكبر لطلب (هوجو دولاسي) في تأجيل ذهابه إلى

---

(١) عهد هنري ملك انجلترا ٠

الأرض المقدسة بسبب زواجه ، وتوبيخه إياه وغضبه عليه ، ثم خضوع (هوجو دولاسي) عن اقتناع لأوامر ورغبة القس الأكبر ، وإعلانه التوبة ، وطلب الغفران ، أمام القس ثم المسارعة في الاستعداد للرحيل .... هذا السلوك في هذا الموقف يحمل دلالة : سيطرة الكنيسة على الوضع الاجتماعي والسياسي في ذلك الوقت وتسلطها الشديد .

وقضية ذهاب (هوجو دولاسي) إلى الأرض المقدسة – بعد أن أقنعه القس الأكبر بذلك – وترك خطيبته (افيلين) بعد أن عقد عليها ، خلفه لكي تنتظره ثلاثة أعوام ، إذا عاد خلالها ، يتم زواجها بناء على العقد ، واذا لم يعد ، تكون حرة !! هذه القصة مصدرها القصص الشعبي الذي انتشر في أرجاء أوروبا إبان الحملات الصليبية . ذكر في مقدمة الرواية : أنه ورد في التراث الاسكتلندي ... قصة منسوبة إلى عشيرة (تويدي) أن أسرة كانت معروفة بشجاعتها وبسالتها في الحرب ، منحدرة من سلالة ، معروفة الأصل . حصل أن تزوج أحد نبلائها(1) فتاة مفعمة بالحيوية والجمال ، وكان هذا النبيل متقدما في السن ، وبعد بضعة شهور من الزواج تركها وحيدة في قلعته القديمة التي تقع وسط جبال مقاطعة (بيبلز) . قريبة من مصادر الـ (تويد) .. وعاد بعد سبع أو ثماني سنوات وهي فترة زمنية مألوفة يعود بعدها الحجاج من فلسطين ، فوجد أن عائلته لم تكن وحيدة في غيابه . وجد زوجته وقد استمتعت بوقتها بوصول غريب ، كان متعلقا في إزارها ويناديها بلفظ أمي ... الخ(٢).

وفي قصة أخرى من هذا النوع ، مثل قصة النبيل (مور ينجر) التي وجدت من بين مجموعة من الأغاني الألمانية الشعبية كانت تحت عنوان (Sammlung Deutschen Volkslieder) طبعت في برلين ١٨٠٧م ونشرها السيد Busching والسيد Vonder Hagen والأغنية محتمل أن تكون مقطوعات من وثيقة تاريخية (لنيكولا ثومان) .. وتاريخها ١٥٣٣م . هذه الأغنية التي كانت مشهورة في ألمانيا يفترض أن تكون قد وضعت في القرن الخامس عشر ، : فالنبيل (مورينجر) ، نبيل ألماني شجاع وقوي ، كان على وشك الذهاب إلى الحج إلى أرض (St. Thomas.) ، لانعرف موقعها.

---

(١) Baron.

(٢) Scott, Sir Walter, The Waverley Novels: The Betrothed , P.300.

قرر أن يترك قلعته وأملاكه وزوجته في حماية تابعه الذي أقسم على تأدية هذه المهمة حتى تنقضي السنوات السبع ، التي حددت لتأدية الحج . وقد وضح له أحد كبار موظفيه ، وكان يمتاز بالحصانة والرزانة . أن سبع أيام وليس سبع سنين فترة طويلة جدا للوثوق بوفاء إمرأة . أما تابع النبيل (مورينجر) فقد قبل هذه المهمة التي رفضها كبير الموظفين . وغادر النبيل لتأدية الحج . ومضت السنوات السبع ولم يبق منها سوى يوم واحد وليلة ، في تلك الليلة هبط على النبيل الحاج ملك ، عندما كان نائما في أرض غريبة . وأخبره أن زوجته ستتزوج هذه الليلة من تابعه المخلص . وسترفرف على قلعته راية غير رايته وسيؤول كل شيء إلى تابعه ، بما فى ذلك زوجته التي كانت مخلصة ووفية كل هذا سيتم الليلة في صالة والده .

استيقظ النبيل (مورينجر) مفزوعا ودعى (سانت توماس) أن ينقذه من هذا العار ، .. وقد استطاع (سانت توماس) بمعجزة أداها ، أن يغرق أحاسيس (مورينجر) في بحر النسيان ، وعندما استيقظ وجد نفسه فى مكان يعرفه جيدا ، في أملاكه ، على يمينه تقع قلعة أجداده وعلى يساره الطاحونة التي بنيت في مكان قريب من القلعة .

توجه إلى الطاحونة معتمدا على عصاه . لقد تغيرت ملامحه وسحنته حتى أصبح من الصعب التعرف عليه ، ولما لقي الطحان ، سأله عن الأحوال هنا ، فأخبره الطحان أنه لا يعرف شيئا سوى أن سيدة هذه الأملاك ، ستتزوج الليلة من جديد ، بعد أن توفي زوجها في مكان بعيد . لقد كان وقع نبأ وفاته ، عظيما على نفوسنا ، فقد كان سيدا بحق ، إنى أدين له بهذه الطاحونة التي أعطاني بها حريتي ، غفر الله له وأوسع في قبره .

بعد ذلك تقدم النبيل إلى باب القلعة ، الذي أغلق لمنع المتطفلين من الدخول ، بينما كان داخل القلعة يطن بالاستعدادات لحفل الزفاف . لقد توسل (الحاج) إلى حارس القلعة ، بأن يجعله يدخل ، ولما ناشده باسم النبيل (مورينجر) ، فتح له الحارس ولكن بعد إذن السيدة ، ثم صعد النبيل (مورينجر) ، إلى صالة الاحتفال ، بخطوات حزينة بطيئة ، لقد كان أمرا صعبا ، بالنسبة له ، حيث وجد أن لا أحد استطاع التعرف عليه . واتخذ لنفسه مقعدا متدنيا ، في أسف وحسرة وبعد فترة قصيرة ، أعلن عن انتهاء النهار ، وبداية المساء ، حيث سيكون الاحتفال بعقد القران .

وقد طلب (مساعد العروس الزوج) من الجميع المشاركة بالغناء • وعندها انتهز النبيل الفرصة ، وأنشد أبياتا متغنيا بها أغنية حزينة فحواها: يقول الحاج : لن يحل عقدة لسانه شيء لا كنوز الذهب ولا الفضة • منذ زمن كنت أجلس مثلك ياعروس على المنصة ، كنت في غناك وثروتك وكان إلى جانبي عروس ، حسناء جميلة وكانت لي • ولكن الزمن ترك آثاره على وجهي ، وتغير لون شعري ليصبح رماديا بعد أن كان بنيا ، وبدلا من تلك الخدود الشابة تركت هذا الحاجب واللحية ، وكنت غنيا ، وتركتني حاجا فقيرا ، إنني أدوس على الحياة في فصلها الأخير وأخلط مع فرحة هذا الزواج آثار العصر والمتجمد •••

لقد حركت هذه الكلمات مشاعر السيدة ، فأرسلت إليه ، كأسا من الخمر • أما الحاج فبعد أن أفرغ محتوى الكأس ، أعاده إليها بعد أن أسقط خاتم زواجه ، داخله ، وطلب من السيدة أن تشرب نخب ضيفها المبجل :

> لقد رأت السيدة الخاتم ، فأنعمت فيه النظر ثم أطلقت صرخة مدوية قائلة : النبيل مورينجر هنا ونهضت ، فزعة من كرسيها بينما انهمرت الدموع من عينيها ، ولكن لا أحد يعرف هل كانت تبكي من الفرح أم من الأسى ، ثم شكرت الله وكل ولي في معجزته بأن عاد (مورينجر) قبل حلول منتصف الليل وأقسمت يمينا على يمين أن لا يتم زواج بغير زوجها• ثم قالت الحمد لله لقد حافظت على العهد طوال السنوات السبع ولم أكن أنوي الزواج إلا بعد انقضائها الليلة حينما يئست من العودة •
> ثم بعد ذلك نهض التابع (العروس) واعتذر للنبيل قائلا : لقد خنت القسم والأمانة ، فخذ سيفى ، واقطع به رأسي • ولكن النبيل ابتسم وقال بالحكمة التي أدركها في سنوات غيابة السبع : لقد بلغت ابنتي الخامسة عشرة ، واكتمل فيها النضج والجمال • سأزوجك منها وأجعلها وريثتي بذا حصل العروس الشاب على عروس شابه ، وأخذ

العجوز الكهلة التي حافظت على قسمها إلى أن
انقضت فترته ، ولكن الشكر لحارس القلعة الذي
فتح لي الباب وإلا كنت جئت غدا ، وأكون بذلك قد
تأخرت يوما !! ٠[1]

وهكذا نجد أن هناك تشابها واضحا بين تفاصيل هذه القصة الشعبية وبين قصة (المخطوبة) ٠ فالنبيل (مورينجر) يترك قلعته وأملاكه وزوجته في حماية تابعه الذي أقسم على تأدية مهمته في إخلاص وولاء ، حتى تنقضي مدة السنوات السبع التي حددها النبيل ٠ وفي المقابل نجد أن (هوجو دولاسي) يذهب في مهمة حربية للأرض المقدسة ويترك ـ أملاكه وزوجته وقلعة (بيرنجر) في حماية ابن أخيه (داميان) الذي كان مخلصا ، وتابعا ووليا له ٠ ويقسم بالوفاء لعمه والمحافظة على شرفه إلى أن يعود بعد السنوات الثلاث التي حددها (هوجو دولاسي) فترة زمنية تكون بعدها (افيلين) خطيبته في حل من العقد الذي يربط بينهما ٠

وفي القصة أو بالأحرى الأغنية الشعبية الألمانية ، نجد أن كبير موظفي النبيل وصديق التابع المخلص ، رجل حصيف رزين يرفض هذه المهمة حيث وجدها فترة زمنية طويلة جدا أن يرعى امرأة سبع سنوات ٠ فنجده يقول : إن سبعة أيام فقط وليس سبع سنوات فترة طويلة جدا وذلك لأنه لا يثق في وفاء امرأة ٠
وفي رواية سكوت نجد (فلاموك) الفلمنجي الذي اتصف بالحصانة والتعقل يقول لـ (هوجو دولاسي) مامضمونه الكلام نفسه ، ويرفض مهمة حراسة وحماية (المخطوبة) ٠

وفي الأغنية الشعبية ، يرد خبر قرب زواج زوجة النبيل من التابع في شكل حلم مفزع ، وذلك بعد انتهاء فترة الحج ٠
وفي الرواية يرد خبر رغبة (افيلين) من الزواج بـ (داميان) ـ وهو نبأ كاذب ـ عن طريق الشاعر (فيدال) الذي كان يكن كرها وحقدا لـ (هوجو) وذلك بعد أن أدى (هوجو) الحج ، وهو عائد إلى أرضه ٠

وفي الأغنية الشعبية ، والرواية يتأكد صاحب الشأن نفسه من وفاء

---

(١) *Ibid.*, PP. 301-302.

وإخلاص زوجته أو خطيبته ووفاء وإخلاص القيم الأمين .

وفي كل من الأغنية الشعبية والرواية يكون رد الفعل متشابها بالنسبة للمرأة . فزوج النبيل في الأغنية تفرح وتحمد الله على أن زواجها الأخير لم يتم ، وتعود لزوجها الحاج ، وفي الرواية تسر (افيلين) لعودة خطيبها وتفرح لقراره : إتمام مراسيم الزفاف (قبل أن تعرف نيَّة هوجو في مكافأتها) .

وفي كل من الأغنية الشعبية والرواية يكافيء صاحب الشأن ، القيم على ولائه وإخلاصه . ففى الأغنية يكافيء النبيل تابعه المخلص بتزويجه من ابنته الشابة الجميلة . وفي الرواية يكافيء (هوجو دولاسي) ابن أخيه (داميان) والمدافع عن شرفه بتنازله عن الزواج من (افيلين) وتزويجها بعد موافقتها له .

وفي كل من الأغنية والرواية يعود الحاج وقد شاب شعر رأسه وحنكته التجربة ، فعاد أكثر حكمة وتعقلا .

وهكذا نرى أن حبكة رواية المخطوبة الأساسية مستمدة من تلك الاغنية الشعبية الألمانية . صاغها الأديب في ثوب جديد ووضعها في بلد وظروف اختارها ، لتكون إطارا عاما للعمل الأدبي ، وهذه الظروف هي : العداء القائم بين الانجليز سكان ويلز والنورماند ، ممثلا في عداء (جووين وين) الأمير الانجليزي مع (ريموند بيرنجر) والد (افيلين) وجماعته إبان الحروب الصليبية .

وضمن إطار مصادر السير ولتر سكوت والتي استمد منها بعض مواقف وأحداث في روايته . القصة التي أشير إليها في هامش الرواية وهي قصة مدام فانشو . " إن فكرة *Bahr-Geist.* أخذت من قطعة في مجموعة السيدة فانشو التي كانت قد قدمت للجمهور فاستقبلها باستحسان بالغ . والأصل يمضى كالآتي : السيدة فانشو تكمل قصتها هكذا :

... من هناك ذهبنا إلى السيدة (هونر أو برين) ذهبت بصفة مساعدة ، ولكن لا أحد يصدق ذلك ، فهي صغرى بنات أحد نبلاء (ثوموند) . بقينا هناك ثلاث ليال

أثيرت دهشتي الليلة الأولى حيث نمت في حجرة ، حوالي الساعة الواحدة

سمعت منها صوتا أيقظني . سحبت الستائر ، وعلى حافة النافذة ، رأيت في ضوء القمر ، امرأة منحنية على النافذة من الخارج تطل برأسها على داخل الحجرة ، تلبس رداءً أبيض ، ويكسو رأسها شعر أحمر ، وعليها ملامح شاحبة مخيفة . ردّدتْ بصوت عال ، وبنفخة لم أسمع مثلها قط ، لمرات ثلاث : (فرس) ثم تنهدت بصوت أشبه ، بصوت ريح عاصفة منها بالزفير ثم اختفت . وقد بدا لي جسمها أشبه بسحابة ملبدة ، من أي شيء آخر . كنت خائفة جدا إلى الدرجة التي وقف معها شعر رأسي ، وسقط رداء نومي . سحبت والدك ثم قرصته . كان مستغرقا في النوم لم تصدر عنه حركة طوال تلك الأحداث التي مرت بي . ولكن - على الأقل - أبدى إندهاشا عندما رآني في ذلك الخوف . وأبدى إندهاشا أكبر عندما رويت له القصة ، وأريته النافذة المفتوحة . لم ينم أحد منا تلك الليلة . ولكنه عمد إلى تسليتي عندما ظل يخبرني أن مثل هذه الأشياء والأمور الحاصلة بفعل الجن والعفاريت شيء شائع ، ومألوف في هذا البلد أكثر من انجلترا .

وقد استنتجنا السبب على أنه أحد الخرافات المتعلقة بالعفاريت .

إن الايرلنديين في حاجة إلى ذلك الإيمان القوي الذي لابد أنه سيجنبهم من عمل الشيطان الذي يؤديه بينهم في شكل ملحوظ .

وحوالي الساعة الخامسة صباحا جاءت سيدة المنزل لرؤيتنا قائلة : إنها لم تذهب إلى النوم طوال تلك الليلة لأن ابن عمها (أوبرين) الذي كان أسلافه يملكون المنزل ، كان قد رغب منها المكوث معه في حجرته ، وتوفي في الساعة الثانية . ثم قالت : أتمنى أن لا نكون قد تسببنا في إزعاجكما فالعادة أو الشيء المألوف في هذا المنزل أنه عندما يحتضر أي شخص من العائلة ، يظهر شبح امرأة ، كل ليلة ، في النافذة حتى تزهق روحه . إن هذه المرأة كانت قد وجدت ، منذ سنين طويلة وهي حامل بطفل أبوه مالك هذا المنزل ، فقتلها في حديقته ، ورمى بها في النهر تحت هذه النافذة . ولكن ، صدقيني ، لم يخطر ببالي هذا ، عندما اخترت لكما هذه الحجرة لتسكنا فيها ، فهي أحسن حجرات المنزل جميعا .

لم نتفوه بكلمة إزاء ماقالت ، سوى أننا تركنا المنزل حالا". (١)

---

(١) *Ibid.*, P.395.

فقصة الشبح ، هنا ، والذي يظهر في صورة امرأة كان زوجها قد غدر بها ، وقتلها شر قتلة هي في روحها ومضمونها قصة شبح (فاندا) الذي سبق وأن أشرنا إليه عندما تعرضنا لموضوع الحبكة .

من مجمل المصادر يتضح لنا أن السير ولتر سكوت اعتمد في روايته التي بين أيدينا على مصادر من التراث الغربي في العصور الوسطى . منها المأخوذ من كتب التاريخ والتي تصف حقائق وقعت ، ومنها المأخوذ من القصص والأغاني الشعبية المتوارثة والتى نشأت في العصور الوسطى أيضا . وألّف من مجمل هذه المصادر رواية (المخطوبة) تتفاعل فيها عناصر التراث المختلفة بطريقة متناسقة مقبولة مقنعة ، فتولد عن هذا التفاعل رواية تاريخية تفوح منها رائحة عبقرية السير ولتر سكوت ، وقدراته ، ومواهبه ، التي تعيد صور التاريخ في نسق جديد . فهناك أحداث تاريخية ثابتة وواضحة وعامه لا سبيل إلى التصرف فيها حتى من الناحية الفنية ، مثل وضع الغرب في العصور الوسطى وخاصة الانجليز . هذا هو الخط العام في الرواية . أما بقيه الأحداث والأشخاص والمواقف فهي العوامل التي جعلت من تلك الصورة (صورة الغرب في العصور الوسطى وانجلترا بشكل خاص) التي جمدها التاريخ في الكتب ووضعها التراث في بيوت الآثار في أشكال جامدة لا تتحرك ، استطاع السير ولتر سكوت ، أن يعيد إليها الروح ويبث فيها الحياة ، فجعل منها صورا وأشكالا تتحرك بحرية مفعمة بالحيوية .

بعض الشخصيات في الرواية تاريخية مثل هنري الثالث وابناه ريتشارد وجون . أما بقيتها فهي من وحي وإبداع المؤلف . والمواقف بين هذه الشخصيات التاريخية والموضوعة فنيا هو الشيء الذي أعطى الرواية ما تمتاز به من حيوية .

(٥) **اللغــــــــــــة**

أما عن عنصر اللغة في هذا العمل الأدبي ، فانه قوي وفعال ، ونستطيع أن نصفها بأنها لغة مصوِّرة مجسِّمة ـ صورت لنا الشخصيات بكل صفاتها من خير وشر . وبساطة وتعقيد ، وجمال وقبح ، وشدة وهوادة ، مجسِّمة هذه الصفات أمام عين القارىء . هذه اللغة صيغت في أسلوب قوي متفاعل

مع المواقف والأحداث . مما جعل جميع الشخصيات والمواقف والأحداث تذوب في بعضها البعض مكونة نسيجا فنيا متماسكا وموحدا . كان هذا التماسك وهذه الوحدة ميزة قوية وضعت هذا العمل الأدبي في مقام رفيع .

في هذه الرواية ، تُركّز عنصر اللغة على حالة النفور والبغض بين الأعراق . فنجد الرواية وقد اعتمدت على ألفاظ مثل : (فلمنج) Fleming ، (الولزيين) Welsh و Norman و Saxon و Moslemah .. هذه الألفاظ تمثل في حد ذاتها قوى وعناصر كثيرة متضاربة متنافرة في ذلك الوقت .

فا لـ (نورماند) Norman ضد الـ (سكسون) و الـ (ولزيون) Welsh .
أما الـ (فلمنج) Flemings فهم يمثلون طبقة معينة في المجتمع الانجليزي ذلك الوقت . والمسلمون Moslemah يمثلون أهم ظاهرة في ذلك الوقت نتجت عن احتكاك الغرب بهم في الحروب الصليبية .

إذن هذه الألفاظ في حد ذاتها تمثل عالم المتناقضات والمتنافرات في روايات سكوت ، وهي كذلك ، تمثل روح العصر وقوامه .

وقد أشار السير ولتر سكوت إلى حقيقة تاريخية ، بأسلوب عفوي غير متكلف ، من خلال استخدام كلمة Latin ، يقول القس عندما رمى إليه الأمير (جوين وين) الانجليزي بالرسالة التي بعثها (ريموند) النورماندي :

> أنا لا أقرأ اللاتينية Latin ، سأصيب النورماندي
> الذي يكتب إلى أمير منطقة (بويز)[1] في لغة غير
> لغة بريطانيا . وسوف يحين الوقت الذي سيصبح فيه
> هذا اللسان النبيل هو السائد[2].

وهكذا نجد أن القارىء الذي لا يملك ثقافة تاريخية ، يستطيع أن يحدد لغة النورمانديين الأصلية . وهى اللغة اللاتينية التي دخلت بريطانيا وسكنت فيها مئات السنين . ومع ذلك ظل السكسون -- سكان البلد الأصليين -- يتحدثون لغتهم الأم مهملين هذه اللغة الدخيلة .

* * *

---

(١) Powys.

(٢) Ibid., P. 318.

بوجه عام ، نجد أن تعاون تلك العناصر الأساسية في رواية (المخطوبة) وهي : الحدث ، والمواقف ، والشخصيات ، واللغة ، والأسلوب ، وموهبة الكاتب وقدراته الفنية ...... هذه العناصر مجتمعة ، كونت بناءً روائيا مميزا عن بقية الروايات .

الباب الثاني

الرّواية التاريخية عند جرجي زيدان

الفصـــــــــل الأول

الروايـــة التاريخـــية العـــــربية

ليس من شك في أن للعرب والمسلمين تاريخا حافلا وحضارة عريقة امتدت جذورها في أعماق الزمن ، ولكن السؤال هو : هل استغل العرب والمسلمون هذه الحضارة ، وذلك التاريخ في خلق مايسمى بالروايه؟! ٠

الواقع ، يبدو أن العرب لم يكن يشغل بالهم من الأجناس الأدبية سوى الشعر ٠ فبالشعر يعبرون عن أنفسهم ومشاعرهم ٠ ويمجدون ماضيهم ويعلون من حاضرهم ويفخرون ويمدحون ويرثون موتاهم ٠ أما بقية الأجناس الأدبية فلم يكن لها وجود في حياتهم أبدا !! ٠[1]

وجاء الاسلام ، ونزل القرآن على سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم وفيه الكثير من قصص الأنبياء والمرسلين - الذين تعاقبوا على الأمم - مبشرين ومنذرين ٠ ولكن العرب ظلوا على ماهم عليه من استحواذ الشعر على نفوسهم وحياتهم ، فناصروا الرسول عليه الصلاة والسلام ومدحوه ودافعوا عنه بشعرهم - كما فعلوا بسيوفهم ٠ وهجوا أعداء الاسلام بالسلاح نفسه ، ورثوا موتاهم وأشادوا بدينهم مستخدمين هذه الأداة التي تدربوا عليها في الصغر وأتقنوها في الكبر ٠ وظلت القصص التي وردت في كتاب الله العزيز تتلى في المساجد والبيوت والساحات آيات متتالية في السور القرآنية ، التي يضمها هذا الكتاب المقدس ٠ ومن الغريب أن مثل تلك القصص ، وكانت قد وردت في القرآن أكثر من مرة ، في كل مرة بأسلوب جديد أخّاذ ، الغريب أنها لم تلفت اهتمام هؤلاء العرب الذين نشأوا على الفصاحة والبلاغة وفطروا على الذكاء ٠[٢] فكيف مرت هذه القصص وقد اكتملت فيها عناصر القصة الأصلية ، على أذهان العرب ، دون أن يستفيدوا منها ، في إنشاء جنس أدبي جديد يسبقون به جميع الأمم ؟! وللإجابة علي هذا السؤال نجد أن العرب حتى انتهاء عصر الخلفاء الراشدين وبداية عصر الأمويين كانوا منشغلين بتنظيم حياتهم وتثبيت أمورهم ودعائم دولتهم ونشر الاسلام بالفتوحات الاسلامية التي اجتاحت أصقاع العالم ٠ وفي أواخر العصر الأموي والعصر العباسي اهتم العرب بالترجمة ونقل مآثر اليونان والهنود ، فشغلوا بذلك عن الاستفادة من قصص وأخبار الأمم - والتي ورد ذكرها في القرآن - لخلق جنس الروايــة - وكان من نتيجة تلك التراجم كليلة ودمنه ، وألف ليلة وليلة ، ولكنها كانت تحتوي

---

(١) محمد غنيمي ، الأدب المقارن ، صـ ٦١

قصصا لها مفهوم وهدف يختلف عن مفهوم الرواية ، وإن كانت هذه القصص من ضمن الحوافز والمصادر التي تدفع الذهن إلى وضع رواية ٠

وظل اهتمام العرب منحصراً في الموروث الشعري ونقده فقط ، إلى أن دخل التاريخ العربي أبواب العصر الحديث ، ذلك أن "رواد الحركة الفكرية بصورة عامة ٠٠٠ كانوا يتطلعون إلى الماضي وبصورة خاصة إلى الاصلاح الديني ثم امتدت محاولتهم إلى بعث التراث الفكري و الأدب العربي ، بصورة عامة مما كان له أثره في ظهور المحاولات الأولى لبعث الشعر العربي القديم ٠٠٠ ولكن هذا الاتجاه لم يؤثر كثيرا على الرواية أو المسرحية أو القصة ٠ وذلك لأن أحدا لم يتنبه إلى التراث الأصيل في هذا الميدان والمتمثل بصورة خاصة في الأدب الشعبي – وبذلك لم تمتد حركة الإحياء إلى هذا الميدان وظلت مقصورة على الشعر وحده "[١] ٠

وابتُعِث الشباب المصري إلى دول أوروبا لكي ينهل من ينابيع العلم الحديثة ، واحتك الشباب اللبناني كذلك ، وشباب العالم العربي عامة – بعد ذلك – بالعالم الغربي (الانجليزي والفرنسي) خاصة ، فنفضوا الغبار عن أذهانهم وأجلوا صدأ العزلة عن أفكارهم ، وتفتحت نفوسهم وعيونهم وعقولهم على عالم غريب عن عالمهم ، فيه كل شيء جديد ، فانتشروا عطشى ينهلون من منابعه ، وجوعى يملأون أجوافهم من خيراته ، وكان الشباب من الشوام أكثر ميلا إلى هذا العالم الجديد ، وأشد إعجابا به ٠

وكانت نتيجة ذلك ، أن أفرز أولئك الشباب الذين تمتعوا بتلك القرائح الأدبية ، "جديدا" في أدبهم ٠ وجلبوا هذا الجديد إلى أوطانهم وزرعوه في تراثهم فنمى التراث بسرعة لأن الأدباء كانوا قد استهلكوا جميع طاقته وقوته – فلقِّح باللقاح الجديد وانتعش ثم ترعرع ٠

وبرزت المسرحية في الأدب العربي على يد المهاجرين[٢] الشوام الذين حاولوا : "تقديم العلوم والأفكار الغربية إلى بيئتنا[٣] ، فانهم استمروا في تقديم الأشكال الفنية الغربية مثل المسرحية وتحمسوا لتقديم الرواية "[٤] ٠

---

(١) عبدالمحسن طه بدر ، تطور الرواية العربية الحديثة ، ص ٣٩.

(٢) إلى مصر.

(٣) البيئة المصرية

(٤) عبدالمحسن طه بدر ، مرجع سابق ، ص ٤٣

ثم ترجمت الروايات الأجنبية من انجليزية وفرنسية وروسية - أيضا - إلى العربية ، بجهود أولئك الشباب . وكان كثير منهم قد أتقن تلك اللغات ، فقرأ بشغف شديد تلك الأعمال الروائية . وأعجب بهذا الجنس الأدبي أيّما إعجاب .

وبعد الترجمة بدأ التأليف : فبزغ في الأدب العربي شباب تحملوا مسئولية البدء فى زرع هذا الجنس في تراثهم الأدبي . وجاء موسم الحصاد وجني الثمار وكان سليم البستاني وفرح انطوان وزيدان وغيرهم من الشوام ثم محمد حسين هيكل وبعده نجيب محفوظ وعلى الجارم ومحمد فريد أبوحديد ويوسف السباعي ثم علي باكثير ونجيب الكيلاني ومحمد سعيد العريان ..... ومازلنا نحصد من ثمار هذا الجنس الحلوه كل يوم جديد ومغذ .

وهكذا نجد أن جنس الرواية في الأدب العربي كان وليد التأثر والاحتكاك بالغرب .

وبالرغم من أن الأجناس الفرعية للرواية - مثل الرواية الاجتماعية ، والرواية التاريخية ، والرواية الريفية ، والرواية العلمية ، ورواية الرعب وغيرها من الأجناس الفرعية - نشأت في أوروبا متعاقبة بتعاقب الزمن واختلاف الظروف (السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، والثقافية) إلا أن هذه الأجناس (الفرعية) ولدت في العالم العربي جنبا إلى جنب في وقت واحد ، لأن هذا الجنس وصل إلينا في صورته الكاملة فأخذ منه كل أديب مايتلائم وغرضه ومواهبه ، ولكن ، بشكل عام ، نستطيع أن نقول أن الرواية الاجتماعية سبقت إلى الظهور لأنها أسهل الأجناس الفرعية في الرواية نظما ، فظهر في لبنان من يكتب في هذا اللون مثل سليم البستاني وسعيد البستاني وأليس بطرس البستاني وجرجي زيدان ، وفرح انطوان وغيرهم[1] .

والذي يهمنا الآن بعد هذه المقدمة السريعة هو الرواية التاريخية العربية :

١ - كيف بدأت الرواية التاريخية العربية ؟

٢ - أين وصلت ؟

٣ - ومن هم أعلامها ؟

اختلف مفهوم الرواية التاريخية من مؤلف إلى آخر . وهذا عائد إلى

---

(١) محمد يوسف نجم ، القصة في الأدب العربي ، الفصل الأول ص ٤١ - ١٣٨

الغرض الذي وضعه الكاتب لنفسه عند كتابة الرواية .

ففي حين نجد البعض يقول : إنه كتب الرواية التاريخية من أجل "التعليم" نجد فريقا آخر يقول إنه كتب الرواية التاريخية من أجل الغوص في أعماق الانسان في كل مكان وزمان وبالتالي الخروج بتجربة إنسانية يتنبه لها الانسان المعاصر ويدرك خلفياتها ، ويزداد وعيه بالحياة .

وعلى رأس الفريق الثاني محمد سعيد العريان ، وباكثير ونجيب الكيلاني . وهذا الفريق ظهر في موسم الحصاد المثمر . أي بعد هضم مفهوم الرواية التاريخية هضما جيدا ، ووصل إلى درجة الاقتناع بأن يكون التاريخ شعلة تضيء طريق الروائي ، فيستلهمه في كتابة (رواية إبداعية) يرسمها مستضيئا بأحداث تاريخية ، إلى أن يصل إلى هدف مرسوم تتجلى فيه تجارب إنسانية عميقة صالحة لكل زمان ومكان ، وهذا الفريق نفسه يحترم القاريء ويجله ويقدر فيه نصيبا من الذكاء والفهم . فوصل بعمله إلى درجة رفيعة .

أما الفريق الأول الذي كتب الرواية التاريخية للتعليم فعلى رأسهم جرجي زيدان (١) وهو الذي نحن بصدده . أصدر جرجي زيدان (٢) إحدى وعشرين (٣) رواية تاريخية في مختلف العصور الاسلامية . وأطلق عليها (روايات تاريخ الاسلام) (٤).

وكان جرجي زيدان من أوائل من كتب الرواية في اللغة العربية ، فهو عربي قد أتقن اللغة الانجليزية ، ودرس العبرانية والسريانية وهو يجيد الفرنسية أيضا . وكان لإتقانه هذه اللغات واللغة الانجليزية على وجه الخصوص أهمية كبرى في حثه على كتابة الرواية التاريخية بشكل خاص . وقد سبقه إلى كتابة الرواية سليم البستاني (١٨٤٨ - ١٨٨٤) وسعيد البستاني (١٩٠١م) وكانا قد

---

(١) محمد يوسف نجم ، مرجع سابق ، صفحة ١٥٣ - ٢١٢

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٨٩

(٣) والصحيح اثنتين وعشرين رواية . فقد أغفل المؤلف ذكر رواية جهاد المحبين .

(٤) وقد أخطأ منذ البداية بتسميته سلسلة هذه الروايات بهذا الاسم ، لأنها لا تحكي تاريخ الاسلام منهجا ، فتاريخ الاسلام منهجا اكتمل عقده مع وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم أصبح منهاجا ثابتا لا يتغير ولا يتبدل . أما هذه السلسلة فهي تحكي تاريخ المسلمين في عصور مختلفة وفرق بين كلمتي (الاسلام والمسلمين)

جربا حظيهما في الرواية الاجتماعية والرواية التاريخية أيضا ، ولكن أعمالهما كانت فجة مليئة بالهفوات والفجوات ، ولكن لهما عذرهما في ذلك حيث إنهما افتقدا النموذج الذي يحتذى في اللغة العربية . ومع ذلك فقد ظلا القبس الذي يستضاء به .

وكان زيدان ممن استضاء بما ألقاه ، بالرغم من أنه تمكن من الاطلاع على أعمال الروائيين الانجليز وخاصة السير ولتر سكوت ، وقد ظهر ، آثار ذلك واضحة في رواياته كما سنرى فيما بعد .

فكيف بدأت الرواية التاريخية العربية ؟!

يقول الدكتور محمد يوسف نجم ، إن :

> هذا الاتجاه العام نحو التاريخ الذي كان باعثه الأول ماوصل إليه العرب في عهد العثمانيين وفي عهد الاحتلال من الذله والضعف ، وثوراتهم المختلفة على الظلم في الحجاز والعراق ومصر وسوريا ولبنان وفلسطين ، كان .. عاملا هاما في بعث الأمجاد واستنهاض الهمم وتخفيف الشعور الحاضر بالتعاسة والذل[1].

فظهر الفريق الأول من كتاب الرواية التاريخية أمثال : سليم البستاني وجرجي زيدان ، يعقوب صروف ، أمين ناصر الدين .. وغيرهم ، وكتبوا الرواية التاريخية من أجل التعليم ودفع الهمم بتصوير واستعادة تاريخ الأمم للاستفادة من تجاربها . فكتب سليم البستاني رواية زنوبيا ، أشاد فيها بقوة هذه الملكة ووقوفها بشجاعة للدفاع عن ممتلكاتها أمام الرومان .

في هذا المقام ، فالعبارة الأولى تعني الثبات والثانية تتضمن مفهوم التغير والاختلاف ، وهذا أمر قد أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال مامعناه : "خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" ، وهذا الحديث يحمل مدلول التغير الذي سيصيب المسلمين بعد وفاته . أما الاسلام فسيبقى محفوظا وثابتا . وكان من الممكن وضع هذه الروايات تحت مسمى سلسلة (روايات التاريخ الاسلامي) لأن صفة (الاسلامي) تشمل الاسلام والمسلمين معا .

(١) المرجع نفسه ، ص ١٥٧

وكتب كذلك رواية بدور تحكي قصة عبدالرحمن الداخل وتأسيسه مملكة أموية في الأندلس • وقد كتب هاتين الروايتين :

> للتعليم لا للفن ، ويسوقها للوعظ والتسلية ، لاحبا في هذا اللون الطريف من ألوان الأدب • ولذا نراه يستطرد دائما إلى الوعظ والنصح ، ويبث الحكم والنصائح بما يخرج عن سياق القصة ويخلخل الصياغة ، كما أنه يورد الروايات المختلفة في الموضوع[١] •

كان ذلك هدف جميع أعضاء الفريق الأول من كتاب الرواية التاريخية • فكتب فرح انطوان (١٨٧٤ - ١٩٢٢) رواية أورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس′ وكان يسعى :

> لبث أفكاره الخاصة وليعلم القراء ويعظهم ويمحضهم[٢] النصح • وقد اتخذ هذا الإطار التاريخي الديني ليكون مجال الحديث أمامه واسعا وبخاصة فيما يتعلق بالأديان والمذاهب والطوائف[٣] •

وكتب يعقوب صروف ١٨٥٢ - ١٩٣٧ روايته التاريخية أمير لبنان و :

> غايته التى رمى إليها كانت تهذيبية وطنية في المقام الأول ، إذ كان مؤمنا بالقيمة التعليمية للقصة[٤] • وأسلوبه هو الأسلوب التقريري البسيط ، وهو لا يأبه لتجميله أو زخرفته وحسبه أن يعطي القاريء معلومات صحيحة دقيقة عن حالة العصر[٥] •

وكتب أمين ناصرالدين رواية غادة بصرى′ التاريخية ، وكان هدفه - كالذين سبقوه - تعليميا وعظيا إرشاديا وقد أدخل الكاتب في روايته :

> بعض أوامر الدولة العليه وبلاغاتها الرسمية الطويلة

---

(١) المرجع نفسه ، ص ١٧٤ (٢) هكذا وردت في المرجع

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٠٩

(٤) المرجع نفسه ، ص ٢١٤

(٥) المرجع نفسه ، ص ٢١٦

كما ذكر أسماء الأشخاص الذين نفوا وأعدموا واقتبس مقالا من جريدة "الصفاء" ليبين مدى إخلاص الدروز للدولة العليه . كل هذا أدخله المؤلف في صلب القصة ، مما يدل على أنه كان يجهل شروطها الفنية فيخلط بينها وبين كشكول الأخبار ، أضف إلى ذلك أن الصدفة تلعب فيها دورا هاما[1] .

أما جرجي زيدان فقد وهب نفسه لكتابة تلك السلسلة من تاريخ المسلمين وخص رواياته التاريخية بهذا التاريخ من بداية ظهور الإسلام إلى العصر الحديث .

وكانت السمات الأساسية في روايات هذا الفريق هي الهدف التعليمي الذي وضعه المؤلف نصب عينيه . هذا الهدف جعل هؤلاء الروائيين يغضون النظر عن كثير من الاعتبارات الفنية . فالروايات كانت سجلات تاريخية تتحرى الدقة في نقل المعلومات بتفاصيلها ، ولا تفرقها عن كتب التراث التاريخي سوى قصة عاطفية خيالية يربط بها المؤلف الأحداث في الرواية ، بطريقة ساذجة فجة تعتمد على الصدفة والمغامرات التي لا يقبلها عقل القارىء في معظم الأحيان . وهكذا بدت هذه الروايات وكأنها تاريخ قصصي وليست روايات قصصية . ولكنا نرى أن لهؤلاء الكتاب عذرهم في أنهم هم الذين تحملوا مسئولية التقدم والبدء في هذا المضمار ولم يكن أمامهم من نماذج وأشكال يحتذونها من الرواية العربية .

أما الفريق الثاني الذي أعقب الفريق الأول في محاولاته فإنه يتمثل في كتاب الرواية التاريخية الذين استفادوا من تجارب غيرهم من المؤلفين في هذا المضمار وكان لهم إطلاع ومعرفة أكثر بفن كتابة الرواية التاريخية . فحاولوا جاهدين تلافي نقاط الضعف فى الرواية التاريخية عند الفريق الأول .

وفي البدء كان للحالات السياسية الاقتصادية الاجتماعية، السيئة والتي كانت متأثرة بالحكم الدكتاتوري قبل ثورة ١٩٥٢م في مصر ، كان لهذا الوضع أثره في مجال الصحافة والأدب :

---

(١) المرجع نفسه ، صـ ١٧٤

فقد اتجهت الرواية نحو التاريخ الوطني أو القومي أو العربي أو الإسلامي ، تستلهم الوجه الحضاري للمجتمع . أو الأصول التاريخية له . أو الأبطال الذين عملوا على تغيير الحياة في ماضي أيامه . ... ، وكانت الرواية التاريخية فارسة الميدان ، أقبل عليها الكتاب الذين لم يتحولوا عنها وأسهم فيها الكتاب الذين أصبحوا بعدئذ عماد الواقعية في الرواية العربية في مصر . بدءً بعلي الجارم ، وانتهاءً بنجيب محفوظ وعبدالحميد جوده السحار وعادل كامل[1] .

فنجد محمد فريد أبوحديد يكتب رواياته التاريخية مستعينا بتاريخ العرب قبل الاسلام وانتج منها : أبو الفوارس عنترة و المهلهل سيد ربيعة و الملك الضليل ، و الوعاء المرمري و زنوبيا ... وغيره وكلها روايات تاريخية استمدت أصولها من التاريخ العربي قبل ظهور الإسلام .

أما علي أحمد باكثير فقد كتب رواياته التاريخية مستمدا أصولها من التاريخ الإسلامي . فنجد له روايات مثل : وا إسلاماه و سلامة القس و الثائر الأحمر وهو في هذه الروايات متأثر إلى درجة بعيدة بتربيته الدينية يحاول جاهدا إبراز صور ذات معنى ومشرفة عن المسلمين ، مجسّما فيها صور الكفاح والجهاد ، مستعينا بآيات من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة في توشية عمله الأدبي .

وتعتبر روايات باكثير التاريخية أكثر نضوجا من الروايات التي سبقتها فهي تتجه نحو القوة في بناء الرواية ، والاهتمام برسم الشخصيات وتطورها وإعطائها قدرا كافيا من الحرية تعبر به عن نفسها دون تكلف أو صنعة

وفى رواية وا إسلاماه نلمس :

مقدرة الروائي في دفع الأحداث وتدفقها تبعا لما يطرأ على الشخصية من تغير . أو تغيير ، وقد ترك شخصياته تتصرف بوحي من ضميرها ـ ومسئوليتها ورؤيتها لواقع الأمة الإسلامية وما تردت فيه

---

(١) سيد حامد النساج ، بانوراما الرواية العربية الحديثة ، صـ ٤٥

وما ارتضت من الحياة الدنيا ...[1]

وفي معرض الحديث عن كتاب الرواية من الفريق الثاني نجد محمد سعيد العريان الذي اهتم بتاريخ مصر الإسلامي فكتب روايات تاريخية منها : قطر الندى ، و شجرة الدر و على باب زويلة . وكان العريان من ضمن كتاب الرواية الذين أجادوا وأتقنوا صنعة الكتابة في هذا المجال ، ويبدو أنه من أكثر المتأثرين بالسير ولتر سكوت في هذا المجال ، فشخصياته الروائية تمثل في وصفها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي بيئة معينة وعصرا معينا دون أن يكون لها أهمية تاريخية تذكر في كتب التاريخ . وفي رأيه أن التاريخ هو الإنسان نفسه في بيئته الخاصة وزمانه المحدد . وأن الشخصية الرئيسة في الرواية ليس من المفروض أن تكون هي الشخصية الرئيسة المعروفة في التاريخ . وإنما هي أي (إنسان) يمثل الوضع التاريخي ويجسده بالحركة والقول :

والإحساس بالتاريخ أو (الوعي التاريخي) وفقا لهذا المفهوم يجتهد أن يبعث روح العصر من مرقدها فنتعرف من خلال (العام) على (الخاص) أو من خلال (الأثر) نصل إلى (المؤثر) .[2]

وقد اهتم محمد سعيد العريان باللغة في رواياته وبذل جهدا طيبا في تنقيحها لتناسب النص القصصي .

ومن ضمن من اشتهر بكتابة الرواية ، والرواية التاريخية بشكل خاص : عبدالحميد جوده السحار ، ونجيب محفوظ . إذ تعتبر الرواية التاريخية قد وصلت إلى درجة كبيرة من الاتقان على يد محفوظ ، فكان يستلهم التاريخ من أجل إلقاء مزيد من الضوء على الحياة المعاصرة ، وهو بذلك يعمل على وصل الماضي بالحاضر بصورة تجعل الأحداث ذات وقع أعمق في النفوس .

وكان عبدالحميد جودة السحار ورفيقه في مشوار كتابة الرواية نجيب محفوظ قد تزامنا في كتابة الرواية التاريخية وعملا على اثراء الساحة الأدبية بإنتاجهما الذي امتاز بالجودة والإتقان . فألف السحار روايات : أحمس بطل الاستقلال – ١٩٤٣ و أميرة قرطبة – ١٩٤٩ و سعد بن أبي وقاص ١٩٤٥ و (قلعة الأبطال – ١٩٥٤

---

(١) قاسم عبده قاسم و أحمد ابراهيم الهواري ، الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث ، ص ٩٩

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٢٤

و السهول البيض – ١٩٦٥ وكلها روايات تاريخية ... في الوقت نفسه كتب نجيب محفوظ عبث الأقدار – ١٩٣٩ و رادوبيس – ١٩٤٣ و كفاح طيبه وفيها إشباع بالدعوة إلى الفرعونية وإحياء أمجاد مصر القديمة ... ... وهي روايات تاريخية نعتبرها القمة التي وصلت عندها الرواية التاريخية عندئذ .(١)

بعد ذلك ظهر جيل امتازت كتاباته بالقوة والمتانة والاهتمام بالجانب الفني في الرواية التاريخية أمثال نجيب الكيلاني في روايته التاريخية (اليوم الموعود) تحكي قصة حملة لويس التاسع وهزيمته في المنصوره :

> ويحدد نجيب الكيلاني مفهومه عن الرواية التاريخية من خلال مفهومه عن التاريخ بوصفه علما والرواية بوصفها فنا . وعندما يتلاقى الفن والعلم في عمل أدبي فإن هذا يستلزم درجة من رهافة الإحساس والوعي بما يأخذ ومايدع ، حتى لا يطغى العلم – التاريخ – على الفن – الرواية – فيفقد العمل الروائي متعته ، ويتحول إلى مسخ شائه منبت الصلة بمصدره ، فلا هو تاريخ ولا هو قصة . وهذا ماحاول نجيب الكيلاني أن يتحاشاه وهو يعرض في مقدمته للمصاعب التي تكتنف من يتصدى لكتابة القصة التاريخية .(٢)

كذلك نجد من الكتاب الذين اهتموا بالبناء الفني في الرواية التاريخية ورسم الشخصيات وتعمقوا في مفهوم هذا اللون من ألوان الرواية : محمود شعبان في رواية لقاء عند الفجر ، ومحمد حسن عبدالله في رواية أنفاس الصباح ورمزي مفتاح في رواية أبطال الشعب و عبدالرحمن عجاج في رواية ثمن الحرية .... الخ .

بالنسبة لبقية دول العالم العربي فقد كانت الروايات الغربية والروسية المترجمة التي انتشرت في الأسواق وأصبحت في متناول الجميع ، وكذلك مؤلفات الروائيين المصريين المشهوريين – هذه الروايات متكاتفة كونت الحس الروائي عند أدباء بقية الدول العربية . فظهر من كتاب الرواية التاريخية في سوريا :

---

(١) النساج ، مرجع سابق ، صـ ٤٩

(٢) قاسم والهواري ، مرجع سابق ، صـ ٦٩

عبدالمسيح الانطاكي ١٨٧٤ - ١٩٢٢ وعبدالحميد الزهراوي ١٨٧١ - ١٩١٦ ٠

وظهر معروف الأرناءوط بعد ذلك ١٨٩٢ - ١٩٤٨ فكتب رواية "سيد قريش" في ألف صفحة ، وفي ١٩٣٦ نشر مجلدين من رواية عمر بن الخطاب وكان مقدرا لها أن تتم في أربعة أجزاء ٠ ثم أصدر سنة ١٩٤١ رواية طارق بن زياد وأتبعها سنة ١٩٤٢ برواية فاطمة البتول "[١] ٠ ولكنه لم يصل إلى الدرجة التي وصل إليها من سبقه في مصر من كتاب الرواية التاريخية ٠

وفي العراق نجد جماعة من كتاب الرواية يكتبون الرواية التاريخية وسيلة لبث القيم والتعليم أو للهروب من الواقع مثل يوسف رزق الله غنيمه ، الذي نشر روايته غادة بابل مسلسلة في مجلة لغة العرب ٠[٢]
ولكن الرواية التاريخية في العراق لم تبلغ مستوى عاليا لأنها ظلت ترزح تحت الهدف نفسه وهو : قصد التعليم والوعظ مع إهمال ظاهر للأسس الفنية لكتابة الرواية ٠

وفي تونس ظهر الروائي زين العابدين السنوسي ، فكتب رواية تاريخية بعنوان فتاة ملجم ٠ ومن ثم بدأ كتاب الرواية يميلون إلى تسجيل معاناة شعب تونس تحت الاستعمار الفرنسي وتصوير كفاح الشعب ضده ، فكان من هؤلاء الكتاب : البشير خريف ، ومحمد العروسي المطوي ، وعبدالرحمن عمار ، ومحمد المختار جنان ... الخ ٠

أما في بقية الدول العربية فلم تظهر الرواية التاريخية ٠ وعلى هذا فقد أصبحت مصر وسبقتها لبنان منارتين انطلق منهما صوت الرواية وانتشر في أنحاء العالم العربي ، واجتمع في رحابهما كتاب الرواية التاريخية إلى أن وصلت إلى ماوصلت إليه في العصر الحالي ٠

---

(١) النساج ، مرجع سابق ، ص ١١٨

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٦٣

الفصل الثاني

مفهوم الرواية التاريخية عند جرجي زيدان[١]

يقول الدكتور أحمد علي جويلي في تقديمه لرواية جهاد المحبين لجرجي زيدان

---

(١)هو جرجي حبيب زيدان مطر ١٨٦١ – ١٩١٤ ، وقد اشتهر باسم (جرجي زيدان) .

ولد في مدينة بيروت في ١٤ ديسمبر سنة ١٨٦١ . وتعلم مبادئ العلوم في بعض مدارسها الابتدائية .

درس اللغة الانجليزية في مدرسة ليلية . وكان شغوفا بالقراءة واسع الاطلاع .

في سنة ١٨٨١ فكر في دراسة الطب ولكنه لم يكمل بالرغم من تفوقه بسبب طول فترة الدراسة في هذا الميدان .

تقدم لامتحان في مواد العلوم الصيدلية فنال الشهادة في اللغة اللاتينية والطبيعات والحيوان والنبات والكيمياء ..

تولى تحرير جريدة الزمان مدة سنة . وكان مقيما في مصر .

وفي سنة ١٨٨٥ سافر إلى بيروت فانتدب عضوا في المجمع العلمي الشرقي ، فتلقن هناك اللغات العبرانية والسريانية .

وفي صيف ١٨٨٦ زار لندن . وكان يتردد على المتحف البريطاني ، ثم عاد إلى مصر فطلبت إليه إدارة المقتطف أن يتولى إدارة أعمالها والمساعدة في تحريرها ففعل واستقال منها سنة ١٨٨٨ وعكف على الكتابة .

وفي أواخر سنة ١٨٨٩ انتدبته المدرسة العبيدية الكبرى بمصر ليتولى إدارة التدريس فيها فتولاها سنتين . وأصدر مجلة الهلال في أواخر سنة ١٨٩٢ . وكان يتولى تحريرها بنفسه . وفي سنة ١٨٩٧ انتخب عضوا في الجمعية الأسيوية ببريطانيه . ثم انقطع للتأليف .

فألف اثنتين وعشرين رواية ،ثمان عشره تاريخية . والباقي (اجتماعية) . ونظم رواياته التاريخية في سلسلة أسماها : (روايات تاريخ الإسلام)

وله مؤلفات تاريخية وأبحاث علمية عديدة .

الصادرة عن دار الهلال سنة ١٩٨٥ :

... إذا عدنا إلى تاريخ تأليفه[1] لهذه الرواية ، فإننا نجده هو نفسه ، يحدد التاريخ بسنة ١٩١١ ، وأنه قام على نشرها سنة ١٩١٤ . بينما ألف جرجي زيدان أول رواية له وهي (المملوك الشارد) سنة ١٨٩١ وألف رواية (جهاد المحبين) سنة ١٨٩٣ . إذن زيدان سابق على الدكتور هيكل في هذا المجال ، فهو الرائد الحقيقي لهذا الفن الروائي ، ليس في مصر وحدها ، بل في الوطن العربي .

وقد نسي الدكتور الجويلي سليم البستاني وسعيد البستاني وأليس بطرس البستاني فقد سبق هؤلاء جرجي زيدان في كتابة الرواية بشكل عام ، وبمقارنة رواياتهم الاجتماعية والتاريخية بروايات زيدان نجد أن زيدان متأثر إلى درجة كبيرة ، بهم ، في كثير من جوانب كتابة الرواية ، مثل الاعتماد - بشكل ملحوظ - على الصدفة والمغامرات في تطور الأحداث ، والاعتماد على الأحاجي والألغاز والأسرار عناصر للتشويق .

أما إذا ذهبنا إلى الرواية التاريخية فلاشك أننا نضع جرجي زيدان فى رأس قائمة كتاب العرب في هذا المجال وذلك إذا نظرنا إلى (الكم) الذي أنتجه المؤلف وإلى (الاهتمام) الذي بذله لإنتاج روايات تخص فئة معينة من الناس وهم المسلمون .

وقد سبقه سليم البستاني في كتابة الرواية التاريخية ولكن سَبْقَه كان لمجرد المحاولة لا أكثر ثم توقف بعد ذلك عن إنتاج مثل هذا النوع من الروايات أما زيدان فقد استمر بتصميم وعزيمة في إنتاج سلسلة متتابعة من الروايات التاريخية أطلق عليها (روايات تاريخ الاسلام) .

وعلى هذا استحق زيدان لقب السابق في كتابة الرواية التاريخية في الوطن العربي .

لماذا اختار زيدان الكتابة في تاريخ المسلمين؟؟

---

(١) محمد حسين هيكل لرواية زينب

لم تقتصر محاولات زيدان على روايات تاريخ المسلمين فحسب ، بل نجد هذه السلسلة من تاريخ المسلمين قد رافقها العديد من المؤلفات التي تخص الإسلام والمسلمين ، مثل : تاريخ التمدن الإسلامي - وتاريخ العرب قبل الاسلام - وتاريخ اللغة العربية ، وأنساب العرب القدماء ، وتاريخ آداب اللغة العربية ... ومن الطبيعي أن يتعمق المؤلف في تاريخ هذه الأمة ويدرسه دراسة وافية مستقصيا فيها الحقائق بتفاصيلها ، مستعينا بكتب التراث العربي الاسلامي . وكانت تلك الدراسة العميقة وقودا استخدمه المؤلف لإيقاد فكرة الرواية التاريخية عنده ، أضف إلى ذلك أنه :-

> عندما ترك لبنان واستقر في مصر ، وجد نفسه في بيئة إسلامية ، لها معتقداتها الخاصة وتقاليدها ، فآثر أن يكيف نفسه وفق ماتتطلبه بيئته الجديدة واندمج في أهلها واستنبط عقلياتهم . ... وألف هذه القصص التي اعتمد فيها على تاريخ العرب والمسلمين ، لكي يلفت اليه أنظار العامة الذين كانو يتلهون بالقصص الشعبي وأكثره تافه[١].

أما عن الروائي فهو متهم "بالغرضية" و "التحريف" و "اللافنية" و "التأريخية"[٢] ونحن بدورنا لن نتناول قضيتي الغرضية والتحريف بالتفصيل وسنكتفي بما كتبه الكثير من الأدباء والمهتمين حول هذا الموضوع في الكتب والصحف والمجلات حيث كانت معظم كتاباتهم تسعى إلى الكشف عن نوايا زيدان وأهدافه المغرضة من وراء كتابة سلسلة رواياته التاريخية التي تتحدث عن المسلمين في عصور مختلفة . ونخص بالذكر ، في هذا المقام ، الأستاذ شوقي خليل الذي أفرد كتابا بعنوان ، جرجي زيدان في الميزان[٣]. خصصه لبحث قضية التحريف عند زيدان وتتبع معظم رواياته وأخذ يفند مافيها من عبارات رأى أنها من الدس المقصود الذي هدف إليه زيدان لتشويه صورة الإسلام والمسلمين

---

(١) محمد يوسف نجم ، مرجع سابق ، ص ١٧٦

(٢) جرجي زيدان ، استبداد المماليك (المقدمة)، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٨٥م

(٣) شوقي أبوخليل ، جرجي زيدان في الميزان ، ط١ ، ط٢ ، دمشق دار الفكر ، ١٩٨١ .

والعرب . وهو كتاب يظهر أن المؤلف قد بذل في تأليفه جهدا كبيرا ليصل إلى ماوصل إليه من أن "أي مطلع يقرأ الرواية [١] يستخرج المزيد من التجريح والطعن والدس والتشويه ..." [٢] ثم هو بعد ذلك يدعو العرب والمسلمين إلى ضرورة حماية التاريخ الإسلامي من عبث هؤلاء النصارى فيقول : "فلنحمِ هذا التاريخ من التشويه والطعن فهو من أُسس ذاتياتنا وبقائنا" [٣].

إن المؤلف أبوخليل وغيره ممن تعرض لقضية الغرضية والتحريف دعوا المسلمين تلك الدعوة ولكنهم لم يبينوا كيف ؟ كيف نحمي هذا التاريخ من التشويه ؟ إن مثل هذه المؤلفات التي تناقش مثل هذه الموضوعات لايقرؤها العامة ولا يلتفت إليها سواد الناس ، أما روايات زيدان فهي "معروضة" بصورة جميلة مشوقة محببة إلى النفوس وبلغة سهلة وبسيطة يفهمها جميع الأفراد باختلاف طبقاتهم ومستوياتهم الثقافية . وإذا نظرنا إلى القارئ المثقف الذي "تقدم" إليه مثل تلك المؤلفات النقدية ، نجده يقرأ روايات زيدان التاريخية وهو على معرفة بتراثه الديني ، وعلى ثقة بأن زيدان وإن أخلص في استقصاء الحقائق عن المسلمين ، فلن ينتصر لهم بإعادة سرد ماكتبه المؤرخون في كتب التراث من أخبار المسلمين والاشادة بفتوحاتهم وانتصاراتهم وأخلاقهم ... وإنما سينتقي من الأحداث مايخالف هذه "الحقيقة" ويظهرها جلية أمام العامة الذين لا يصبرون على قراءة كتب التراث .

ولن نقف عند تلكما القضيتين وقفة طويلة - كما أشرنا سابقا - لأن لهما أوجها خاصة من البحوث والدراسات ، أما بحثنا هذا فيهتم بالناحية الفنية للعمل الروائي فقط دون غيره .

---

(١) ويقصد رواية فتاة غسان . وهو قول ينطبق على جميع روايات زيدان في كتاب أبي خليل .

(٢) شوقي أبوخليل ، مصدر سابق ، صـ ٤٩

(٣) شوقي أبوخليل ، مصدر سابق ، صـ ٤٩

*

ونبدأ بقضية "اللّافنيـــــه" التي اتهـم بهـا زيـدان ، فهـو اتهـام النقـــاد الذين قاسـوا أعمـال زيدان الروائـية بمقياس النقـد الحـديث ، وفي هـذا اجحـاف في تقييم قـدرة زيدان الفنيـة . فزيـــدان المؤلف عندما كتب سلسلة رواياتـــــه التاريخـية لم يكن أمامه من النمـاذج التي يسـتفيد منهـا في الروايـة العربية شيء وقد كان سـبـاقا في هـذا المضـمار وتحـمل مسـؤولية (البـدء) في هذا المجـال ، وهـي مسـؤولية ليست بالسهـلة خاصـة ونحـن نجـده يملك الشجاعـة فيكتبهـا منـذ البدايـة باسـمه الحقيقـي ولم يفعـل كما فعـل غيـره من الرواد[1] وإيمانا بأهـمية هـذه الأمـور أسسا ، لابـد من وضعهـا في الاعتـبار عنـد نقد روايات زيدان كـان لابـد من الالتفـات إلى نقـاط أخـرى مهـمه في كتابة الروايـة التاريخـية عـــند زيـدان . وهـذا الروائـي بالرغـم من كل ما يعـتري أعماله الفنيـة من ضعــف إلا أنـه ظـل (البـــادىء) الذي اقتُـدي به ، واسـتنار برواياته الكثير مـــن كتــاب الروايـة بعـــده .

يكفي زيـدان الروائـي أولا : أنه استطـــاع اختـيار موضـوعات رواياته بدقة وبسـابق تصـور ، وهـي موضـوعات جـديدة على القـارىء المسـلم العـادي ، فهـــي تهـمه لأنهـا تتحـدث عن تراثـــه ، وتثـيره لأنهـا تـأتي بـأحـداث تـاريخية (حقيقية)[2] والقـــارىء لا يهـمه أن يكـون زيـدان مسـلما أو نصـرانيـا ، الذي يهـم هـــو أن المؤلـف اســتطاع الوصــول إلى العــامة وبســرعة فائقـــة .

ثانيا : أنه اســتطاع إجـراء مايسـمى بلغـة السـينما (مونتـــاج) لأحداث التاريخ المتسـلسلة . فاخـتار من أحـداث التاريخ(الحـقيقية) المتسـلسلة (حـــلقات) ذات عـلاقة وضمهـا إلى بعضهـا البعـض بواسـطة قصـة عاطـفية مفتعـلة وكون منهـــا (وحـــدة موضـــوعية) لرواياته ، لهـا بدايـة وعـقدة ونهـاية ، وهـذا العـمل فـي حـد ذاته يعـتبر كسـبا لزيدان إذ يعبـر عـن قـدرة فنيـة يمتلكهـا ولا نستطـيع أن نغفلهـا حـتى وان كانت بســيطة .

ونضيف إلى النقطـتين السـابقتين نقطـة ثـالثة فنقـول : إنه استطـاع بما يملكـــه

---

(١) السـير ولـتر ســكوت نفســه ، مثـــلا .

(٢) كمـا كـان يزعم زيــــدان .

من موهبة فنية أن يحول بعض الأحداث التي وردت في كتب التراث ويرتبها لتكون مجالا للحوار بين الشخصيات في رواياته ، ويدخل في هذا الحوار الشخصية التاريخية ، والشخصية الخيالية ، ولم يجعلها وقفا على الشخصيات التاريخية الفعلية فقط ٠

أما قضية اتهامه (بالتأريخيه) أي استخدام بعض النصوص الواردة في كتب التاريخ بنقلها بحرفيتها فى رواياته في كثير من الأحيان ، فهذا أمر راجع أيضا لعدم وجود مثل أو نموذج يحتذيه ويستفيد منه ، بدليل اختفاء هذه التأريخية (والتقيد بالنصوص والتواريخ الحقيقية للولادة والوفاة والأحداث) من أعمال نجيب محفوظ ، والعريان وباكثير وغيرهم ٠ فهؤلاء استفادوا ممن سبقهم في كتابة الرواية التاريخية فتجنبوا زلاتهم ، واستعانوا بتجاربهم[(١)] ٠

ومن خلال ذلك العرض السريع للقضايا التي اتهم بها زيدان ٠ ومن خلال إدراكنا لأهمية التراث الديني في حياة زيدان نستطيع أن نتوصل إلى (مفهوم جرجي زيدان للرواية التاريخية) ، فالرواية التاريخية بالنسبة لزيدان هي تاريخ قصصي ، وليس قصص تاريخي ٠ وبعبارة أخرى هي وسيلة لتوصيل معلومات تاريخية لا تشير إليها كتب الدراسة ، ولا تتوفر ليقرأها العامة ٠ وهي وسيلة من وسائل الوعظ والإرشاد يدس فيها الكاتب أفكاره وآراءه ومواعظه ويقدمها لقرائه مغلفة بقصص غرامية وهمية محببة للنفوس ، فيتقبلها القارئ البسيط بسعة صدر ، ويتجرعها دون أي تردد ٠

الرواية التاريخية بالنسبة لزيدان سلاح ذو حدين أينما وجهه أصاب ، فهي وسيلة للتسلية بما تحتويه من مغامرات وقصص عاطفية وأسرار ، وهي وسيلة للتعليم بما تحتويه من أحداث تاريخية (حقيقية) حدثت في الماضي ٠ وهو لا يتورع عن ارضاء العامة بتغيير نهاية رواية أو حذف شيء فيها ، كي يصل إلى الجمهور[(٢)] ٠ وقد ساعده جمهور القراء في ذلك الوقت ، بما وجده منهم من تحمس وإقبال على رواياته ، ساعده ذلك على المضي قدما في سلسلته عن تاريخ المسلمين ، منتهجا المنهج نفسه

---

(١) وسندرس روايات زيدان مفصلة في الفصول القادمة ٠

(٢) جرجي زيدان ، المملوك الشارد (مقدمه) ، دار الهلال ، ١٩٨٥

الذي اتبعه في روايته الأولى[١] دون أن يكلف نفسه عناء الاهتمام بالناحية الفنية وصقلها ، وذلك بعد أن تحقق له وصوله إلى هدفه المرسوم[٢] .

لذلك نحن لا نتعجب من وجود قطع طويلة من كتب التاريخ ، ملصقة بحرفيتها في رواياته . ولا نتعجب إذا وجدنا معظم رواياته ذات تصميم واحد وبناء واحد لا تختلف عن بعضها البعض إلا باختلاف موضوع الأحداث ، واختلاف أسماء الشخصيات من رواية إلى أخرى ، فكل شخصية في الرواية تجد لها مقابلا في الروايات الأخرى . وكل عقدة يقابلها مثلها في بقية الروايات ، وكل نهاية يقابلها مثلها من النهايات في الروايات الأخرى[٣]... وهذا دليل على استرسال المؤلف في تأليفه ونظمه رواياته على نفس الخط الذي سار عليه منذ البداية دون أن يبذل أي محاولة لتطويرها وهو يعترف صراحة بهذا الأمر حين يقول إنه يعد جزءً من رواياته خلال شهر ثم ينشره في حلقة من سلسلة دار الهلال دون أن يكون عنده سابق تصور لما سيحدث في الحلقة القادمة . ومن ثم يبدأ في إعداد الحلقة الثانية من الرواية وينشره في العدد الذي يلي الأول ... وهكذا يظل يعد الرواية جزءً جزءً وينشر الجزء الأول منها دون أن يعرف مسبقا ماذا سيحدث في الجزء الثاني إلى أن تنتهي الرواية ، وظل زيدان ينتهج هذه الارتجالية في التأليف في كل رواياته ماعدا رواية "ارمانوسه المصرية"[٤].

وباختصار شديد ، ظل جرجي زيدان ، بعد تأليفه اثنتين وعشرين رواية ، ظل معلما بالدرجة الأولى وأديبا بالدرجة الثانية .

---

(١) (المملوك الشارد) ١٨٩١م

(٢) مجلة الهلال ، ج ١٦ ، السنة السابعة ،(١٥ مايو ١٨٩٩) ص ١٥٧ - ١٥٨

(٣) سنتعرض لهذه النقطة بالتفصيل في الفصول القادمة

(٤) محمد يوسف نجم ، مرجع سابق ، ص ١٧٩ - ١٨٠

الفن الروائي عند زيدان

سبق وأن ذكرنا في هذا الفصل أن زيدان يعتبر من أوائل من كتب الرواية العربية والرواية التاريخية بالذات . هذا يعني أنه فقد النموذج العربي الدي يحاكيه ، في هذا المجال ، لذا جاءت معظم رواياته ذات طابع واحد وسمة واحدة ، في جميع جوانبها . وتفتقر إلى الكثير من العناصر الفنية الروائية . وسنتعرض في هذه الصفحات إلى تتبع الخطوط التي اتبعها زيدان في كتابة الرواية التاريخية[1] ، للخروج برؤية شاملة عن فنه الروائي :

---

(١) آلف زيدان اثنتين وعشرين روايه هي :

١ ـ المملوك الشارد ١٨٩١
٢ ـ اسير المتمهدي ١٨٩٢
٣ ـ استبداد المماليك ١٨٩٢ ـ ١٨٩٣
٤ ـ جهاد المحبين ١٨٩٣
٥ ـ أرمانوسه المصرية ١٨٩٥ ـ ١٨٩٦
٦ ـ فتاة غسان ١٨٩٦ ـ ١٨٩٧
٧ ـ عذراء قريش ١٨٩٨ ـ ١٨٩٩
٨ ـ ١٧ رمضان ١٨٩٩ ـ ١٩٠٠
٩ ـ الحجاج بن يوسف ١٩٠١ ـ ١٩٠٢
١٠ ـ فتح الأندلس ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣
١١ ـ شارل وعبدالرحمن ١٩٠٣ ـ ١٩٠٤
١٢ ـ أبومسلم الخرساني ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥
١٣ ـ العباسة أخت الرشيد ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦
١٤ ـ الأمين والمأمون ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧
١٥ ـ عروس فرغانه ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨
١٦ ـ أحمد بن طولون ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩
١٧ ـ عبدالرحمن الناصر ١٩٠٩ ـ ١٩١٠
١٨ ـ الانقلاب العثماني ١٩١٠ ـ ١٩١١
١٩ ـ فتاة القيروان ١٩١١ ـ ١٩١٢
٢٠ ـ صلاح الدين ومكائد الحشاشين ١٩١٢ ـ ١٩١٣
٢١ ـ شجرة الدر ١٩١٣ ـ ١٩١٤
٢٢ ـ غادة كربلاء ١٩٠٠ ـ ١٩٠١

ألف زيدان اثنتين وعشرين رواية منها أربع روايات اعتبرها النقاد روايات اجتماعية والباقي روايات تاريخية . ولكن على أي أساس صنفت روايات زيدان هذا التصنيف ؟

إن القارىء لهذه الروايات الأربع وهي : الانقلاب العثماني[١]، وأسير المتمهدي وجهاد المحبين والمملوك الشارد ، يجد أنها روايات اجتماعية من منظور المعاصرين لزيدان حيث أنها تحكي قصصا واقعية يعيشها المجتمع في تلك الفترة ، وهي تاريخية من منظورنا نحن ، في هذا العصر لأن أحداثها تمثل أحداثا تاريخية منتهية حدثت قبل قرن من الزمان .

ولكن بما أننا تبنينا مفهوما محددا للرواية التاريخية[٢]، وكان لابد من موافقة ذلك التصنيف ، لأن زيدان ـ فيها ـ كان يتفاعل مع أحداث معاصرة .

أما عن فن زيدان الروائي ـ فكما ذكرنا سابقا ـ إن إنعدام وجود النوذج العربي الذي يحاكي ، في الرواية التاريخية ، جعل زيدان يجتر ، من مفهومه القاصر لفن كتابة الرواية ، صورا ومواقف وأحداثا ، وشخصيات وأساليب ، تتشابه إلى درجة النسخ ، حتى أصبح القارىء قادرا على وضع يده على سمات رواياته بكل سهولة ، ونلخص هذه السمات لنفصلها فيما بعد :ـ

١ ـ سمة التقيد بتأريخ الأحداث كما وردت في كتب التراث .

٢ ـ نقل النصوص التاريخية بحرفيتها دون تصرف .

٣ ـ التدخل المقصود الواضح من قبل الكاتب ، بهدف الوعظ والإرشاد والتوجيه .

٤ ـ اضافة القصة العاطفية إلى أحداث التاريخ .

٥ ـ ظاهرة الخادم وصفته .

---

(١) وقد استبدلنا رواية استبداد المماليك برواية الانقلاب العثماني لأن الأخيرة تمثل أحداثا تاريخية معاصرة لزيدان . أما الأولى فهي أحداث وقعت مابين عام ١٧٧٠ ـ ١٧٧٣ ، وعلى هذا اعتبرناها رواية تاريخية بالرغم من أنها تتحدث عن الوضع الاجتماعي في مصر في عصر المماليك ، إلا أن هذا الوضع الاجتماعي، ارتبط بفترة زمنية مضت وكتب عنها المؤرخون وسجلوا أحداثها ، واستنادا إلى هذه الحقيقة خالفنا بقية المصنفين .

(٢) الرواية التاريخية التي نحن بصدد دراستها هي الرواية التي عالجت التاريخ الماضي ، المنتهي ، الذي سطره لنا المؤرخون ووصل الينا في صورته الكاملة ، وحدة متناهية .

٦ ـ ظاهرة عدم الاهتمام بالأسلوب واللغة .

٧ ـ سطحية الشخصيات .

٨ ـ العاطفيه المفرطه في سلوك شخصياته .

* * *

١ ـ التقيد بتأريخ الأحداث كما وردت في كتب التراث : وهذا واضح في أكثر من رواية ، يقول في رواية صلاح الدين ومكائد الحشاشين :

فأصبحت مصر بذلك تابعة لبغداد من حيث الخلافة من سنة ٥٦٧هـ ....[١]

وفي رواية شجرة الدر يقول :

فلما مات[٢] في المنصورة سنة ٦٤٧هـ كتمت أمره وقامت بأمور الدولة ...[٣]

وفي رواية أحمد بن طولون يقول :

خرجت دميانه من منزل أبيها بقرية "طاء النمل" بمديرية الدقهلية ـ في أصيل يوم من أيام سنة ٢٦٤هـ للهجره.[٤]

وقس على ذلك في بقية الروايات حتى لتبدو هذه الروايات أشبه بوثائق تاريخية ، خاصة ونحن نجده يسجل العام بالأرقام الحسابية وهذه السمة لا نجدها أبدا في روايات السير ولتر سكوت . وإذا أشار[٥] إلى العام فإنه يشير إليه في مقدمة الرواية ، ليحدد الفترة الزمنية التي افترض وقوع أحداث الرواية فيها كما حدث في رواية المخطوبة[٦] ولايعود إلى ذكر التواريخ وتسجيلها ثانية أبدا .

٢ ـ أما عن ظاهرة النقل الحرفي للنصوص التاريخية ، فهي ظاهرة شائعة ، وسمة بارزة في روايات زيدان ، يقول في رواية (أبومسلم الخرساني)[٧]:

---

(١) جرجي زيدان ، صلاح الدين ومكائد الحشاشين ، صـ ١٠٨ وانظر بقية الصفحة كذلك انظر صـ ١٣٣ ، وانظر أيضا صـ ١٦٠ من رواية (أبومسلم الخرساني) .

(٢) الملك الصالح زوج شجرة الدر .

(٣) جرجي زيدان ، شجرة الدر ، صـ ٥

(٤) جرجي زيدان ، أحمد بن طولون ، صـ ٣

(٥) سكوت

(٦) Scott., *The Betrothed*, Ch.1.

(٧) جرجي زيدان ، أبو مسلم الخرساني ، صـ ٥٥

ولما كان (حضر) عيد الفطر أمر أبومسلم سليمان
بن كثير أن يصلي به و بالشيعه • ونصب له منبرا
بالمعسكر وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير آذان
ولا إقامة • وكان بنو أمية يبدأون بالخطبة قبل
الصلاة مع الأذان والإقامة • كما أمره بأن يكبر
ست تكبيرات تباعا ثم يقرأ ويركع في السابعة ويكبر
في الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعا ••• الخ النص[1]

وفي الرواية نفسها نص منقول حرفيا امتد ليشغل صفحتي ١٥٦ – ١٥٧ من صفحات الرواية • والتعديل الذي أجري على النص هو إما حذف بعض الألفاظ واستبدالها بما يرادفها، وهو قليل ، وإما زيادة لفظ، وكانت الزيادة في لفظة واحدة فقط[2] •

وكثرت النقول أيضا في رواية غادة كربلاء ففي ص ١٤٤ نص منقول حرفيا :

أما بعد • فانسبوني وانظروا من أنا ثم ارجعوا
إلى أنفسكم وعاتبوها ، فانظروا هل يصلح لكم قتلي
وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم؟ وابن وصيه
وابن عمه ••• الخ النص[3] •

وقس على ذلك نصوصا كثيرة منقولة بحروفها من كتب التراث ، خاصة في هذه الرواية • الصفحات (١٤٢ – ١٤٣ – ١٣٨ – ١٣٩ – ١٤٥ – ١٥٥ – ١٧٥) ، مليئة بنصوص منقولة حرفيا • وإذا أحدث فيها تعديل فهو طفيف لا ينبئ عن أي مجهود بذله الكاتب •

والمؤلف لا يخجل من هذه الثغرة في رواياته بل نراه يفتخر بها فنجده يقول :

أما نحن ، فقد جعلنا حوادث الرواية وسيلة لإلباس

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ٣٥٩ • مع ملاحظة أن التغير الذي طرأ على النص المنقول ، في اللفظ الموضوع بين قوسين فقط •

(٢) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٤١١ – ٤١٢

(٣) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٦١

> التاريخ لباس الطلاوة والفكاهة • فإذا جردت رواياتنا
> من عبارات الحب ونحوه كانت تاريخا مدققا يصح
> الاعتماد عليه والوثوق به والرجوع إليه[١] •

وكأنه يؤمن بأن الرواية التاريخية فرع من جنس أدبي لابد وأن يخدم التاريخ ويكون له عبدا مطيعا في ما كبر وصغر من الأمور • أما عنصر الفن في هذا الجنس فهو عنصر ثانوي من العناصر الموجودة لخدمة هذا التاريخ فقط • وهو يلوم الاسكندر ديماس على اهتمامه بعنصر الفن في رواياته :

> إن الأسلوب الذي اتخذه المرحوم الاسكندر دوماس وغيره
> من مؤلفي الإفرنج في رواياتهم مضر بالتاريخ مخل
> بنظامه ولا غرو إذا لقبوا أحدهم بمشوه وجه
> التاريخ لما قدم وأخر وزاد ونقص من حوادثه وأشخاصه
> لأسباب اقتضاها غرضه من تأليف رواياته وهو تأليف
> الروايات لا تأليف التاريخ فأدخل في بعض رواياته
> ما اشتهر من حوادث التاريخ أو من رجاله ليلبسها
> لباس الحقيقة ، فضحى بالتاريخ لأجل الرواية[٢] •

وهكذا تتضح لنا رؤية زيدان في كتابة الرواية التاريخية ، فهو يريد أن يكتب (تاريخا مرويا) (تاريخا قصصيا) وليس (رواية تاريخية) يريد أن تكون الصدارة للتاريخ في كل أعماله الروائية • لقد كتب زيدان مؤلفات في التاريخ الاسلامي وغيره ، ووجد أن مثل هذه المؤلفات لن يطلع عليها العامة ، فما وجد غير ، وضع التاريخ في قالب قصصي ، وتقديمه ساخنا شهيا بما يحتويه من قصص غرامية • وكانت فكرة جيدة حيث وجد أن العامة من الناس أخذت تقبل على قراءة هذه الروايات بنهم وشغف شديدين • وهذا مايريده زيدان بالضبط ، يريد تعليم التاريخ للعامة :

---

(١) مجلة الهلال ، الجزء السادس عشر ، السنة السابعة (١٥ مايو ١٨٩٩) ص ٤٩٢

(٢) المصدر نفسه ، ٤٩٢

إذا سبكنا ذلك التاريخ في قالب الرواية فإنه[1] يقرأه بشوق ولذة فلا يلبث وهو يظن نفسه يطالع قصة فكاهية أن يتناول شيئا من حوادث الإسلام يزيده رغبة في مطالعة تاريخهم . فنحن بهذا الاعتبار نهيء أذهان الناس لمطالعة التاريخ[2].

٣ - وننتقل إلى سمة أخرى من سمات روايات زيدان وهي : ظاهرة التدخل المقصود من قبل المؤلف بهدف الوعظ والإرشاد والتوجيه . وهي ظاهرة لافتة للنظر وثغرة في البناء الفني لرواياته ، يضاف إلى الثغرتين السابقتين فيعوق العمل الأدبي ، عن التحرك نحو الارتقاء إلى مستوى الأصول الفنية في كتابة الرواية . من تعليقات المؤلف الكثيرة ، وتدخله المباشر الذي يخل بالعمل الأدبي ، نختار بعض نصوص :

ففى رواية الأمين والمأمون يقول :

فأمرت الخدم بأن يعدوا لها ولعباده طعاما - فأكلنا ولاحديث لهما غير بهزاد ... ... ويستغربون تكتمه على أن التكتم زاده رفعة في أعينهم وزادهم تهيبا منه . لأنك لاتزال تخاف المجهول حتى تعلمه . وعلى هذا القياس نرى الصمت يرفع منزلة صاحبه وكثرة الكلام تقلل من هيبته ، فإذا جهلت مافي خاطر المرء حسبت مايكتمه شيئا عظيما ، فإذا تكلم انكشف لك عن شيء تافه . والعقلاء يزين أقوالهم احتفاظهم بالكلام إلى حين الحاجة ، مع تدبر مايقولون فلا يلقون الكلام على عواهنه[3].

فماذا أضاف هذا التعليق إلى النص من الناحية الفنية ؟! إن مثل هذا التعليق لايضيف شيئا إلى العمل الروائي بقدر مايفتح فيه ثغرة تضعف من كيانه وشكله .

ويبدو - من كثرة مايواجهنا من مثل هذه التدخلات والتعليقات - أن المؤلف

---

(١) القاريء العادي من عامة الناس .

(٢) مجلة الهلال ، ج ١٦ ، السنة السابعة - ص ٤٩١

(٣) جرجي زيدان ، الأمين والمأمون ، ص ٣٨ ، وانظر كذلك ص ١٠٩ وغيرها

متأثر كل التأثر بكتابة المقالات الصحفية ، إلى الدرجة التي لم يستطع فيها وضع حد لهذا التأثير .

وفي رواية الحجاج بن يوسف يقول :

فلما سمعت سمية كلام أمة الله أحست بانشراح صدرها وارتاح بالها وعادت إليها الآمال . والانسان سريع الرجوع إلى الأمل لأن طبيعة الوجود تبعده عن اليأس ، وحب ذاته يهون عليه الرجوع عن الانتحار حبا في البقاء ، ويندر أن يرتكب أحد جريمة الانتحار بعد إعمالة الفكرة والتبصر . ومالبثت سمية أن استحسنت رأي جاريتها[1].

وقس على ذلك في جميع رواياته ، فإنه لابد أن يتدخل بمناسبة وبغير مناسبة ، بما يصلح ومالا يصلح ، وبعض الأحيان ليستشهد بأبيات شعرية ليدعم تعليقاته وأحيانا بتعليقات بعض المشهورين ، من ذلك ماورد فى رواية أحمد بن طولون :

فما أن خرجت[2] حتى سارت توا إلى الكنيسة للصلاة ، ملجأ الحزانى وتعزية المنكوبين ، وإذا لم يكن فى الصلاة غير التعزية لكفى بها متسعا لآمال المؤمن فى ساعة ضيقه وحزنه . وقد صدق جمال الدين الأفغاني إذ قال : إن الذين يسلبون العامة إيمانهم إنما يحرمونهم من أكبر أسباب سعادتهم[3].

وفي موقف آخر من المواقف التي شعر فيها الكاتب بضرورة تدخله ليشبع في نفسه ، هذه الغريزة مستعينا بآبيات من الشعر العربي يقول :

وأمسكت عن الكلام . ونظرت[4] إليه فإذا هو يتفرس في عينيها ويتجاهل غرضها والهوى يكاد يشف عن سريرته ومخاطبة العيون أفصح من مخاطبة الألسن :

---

(١) جرجي زيدان ، الحجاج بن يوسف ، صـ ٧٣ ، وانظر رواية فتاة غسان ج ١ صـ ٩١

(٢) دميانه بنت مرقس .

(٣) جرجي زيدان ، أحمد بن طولون ، صـ ٢٦

(٤) لمياء بنت جعفر البرمكي ، وبهزاد .

العين تبدي الذي في قلب صاحبها ∴ من الشناءة أوجب إذا كانـــا
إن البغيض له عين يصدقها ∴ لا يستطيع لما في القلب كتمانـا
فالعين تنطق والأفواه صامتة ∴ حتى نرى في جحيم القلب تبيانـا (١)

ترى ماذا نستطيع أن نقول حيال هذه الظاهرة؟!

إن مثل هذه الظاهرة تختفي في الروايات التاريخية التي ظهرت بعد روايات زيدان . مثل روايات نجيب محفوظ ، والعريان ، وباكثير ، ونجيب الكيلاني .. وغيرهم . هذا دليل استفادة هؤلاء من أخطاء من سبقهم وعلى هذا نرد هذه الظاهرة إلى السبب الأول نفسه وهو انعدام وجود النموذج العربي الذي يحتذى ويحاكى في هذا المجال . ثانيا : التركيز الشديد على التاريخ ، هذا التركيز الذي يفقد معه المؤلف القدرة على الاهتمام بعناصر أخرى في الرواية . إضافة إلى كل ذلك نجد أن هذه الظاهرة كانت متفشية في روايات من كتب قبل زيدان أمثال سليم البستاني وسعيد البستاني فكانت رواياتهما الاجتماعيه بمثابة المثل والنموذج الذي حاكاه زيدان في هذا المجال .

٤ ـ وننتقل إلى سمة أخرى من سمات روايات زيدان وهي عنصر القصة العاطفية في الرواية :

إن القصة العاطفية ـ التي يبتدعها زيدان ليربط بها أحداث التاريخ ، لاتخرج ـ في معظم الأحيان ـ عن القالب الروائي التالي: فتاة مسكينة ، مستضعفة جميلة ومطيعة لوالديها ، يتعلق قلبها بفتى ـ دائما ـ يكون شجاعا قويا ومتسما بجميع الصفات الحميدة . ولكن والدها يكره هذا الفتى ويختار لها زوجا ـ غالبا مايكون ـ متصفا بصفات سيئة تجعل الفتاة تزداد كرها له . ولكن والدها يصر عليه لمصلحة بينه وبين هذا الشاب تقتضي ذلك . قس على هذه القاعدة : قصة جلنار بنت دهقان مرو فى رواية (أبومسلم الخراساني) وقصة ، أسماء بنت مريم ، في رواية (عذارء قريش) وقصة دميانه بنت مرقس فى رواية (أحمد بن طولون) وقصة أرمانوسة فى رواية (أرمانوسة المصرية) ... وغيرها من الروايات .

---

(١) جرجي زيدان ، الأمين والمأمون ، صـ ٨٣ وانظر كذلك رواية العباسة أخت الرشيد صـ ٦٤ ، وانظر شارل وعبدالرحمن صـ ٩١

تقول الدهقانة جلنار لجاريتها في رواية (أبومسلم الخرساني) [(١)] :

.. .. وكيف نستطيع حلها وأنا كحجر بين مطرقتين
أو ثلاث فأبي من جهة قد عقد خطبتي على ابن
الكرماني ، وسيزفني إليه قريبا ، وأرى نفسي من جهة
أخرى مقيدة القلب ولا أدري إذا كانت المحبة متبادلة .
فكيف الخلاص ؟ وماذا أصنع .. .

أما نهاية هذه القصص العاطفية فهي - في معظم الأحيان - اجتماع القلوب ، وزواج الأحبة عقب مرورهم بصعوبات وعقبات تستمر مع طول الرواية وتنتهي بانتهائها . وفي بعض الأحيان وعندما تكون النهاية مأساوية تنتهي القصة العاطفية نهاية مأساوية كما هو الحال في رواية عذراء قريش حيث نجد (أسماء بنت مريم) تلقي بنفسها في النار التي اشتعلت في محمد بن أبي بكر عقب وضعه في جوف الحمار ، وتموت معه .

٥ - أما الخادم (ذكرا كان أم أنثى) فإن زيدان لا يستطيع أبدا التخلي عنه في رواياته . فالخادم أو الوصيفة هما وسيلة الاتصال بين أطراف القصة الغرامية . وبواسطتهما يستطيع القارئ التوصل إلى مكنونات قلب الأحبة . فالفتاة المحبة ، تبوح بسرها - بعد تردد - لخادمتها ، وتبدأ - من ثم - تتلقى من خادمتها أو وصيفتها النصح والإرشاد . وعن طريق الخادم نتعرف على وضع الفتاة في تلك العصور .

ففي رواية أرمانوسة المصرية نجد (باربارة) وصيفتها والمهتمة بها والناصح الأمين ، وهي وسيلة الاتصال التي كانت تتم بين (أرمانوسه) ابنة المقوقس حاكم مصر وبين (أركاديوس) ابن الاعيرج الذي تعلق قلبها به .

وفي رواية أبومسلم الخرساني نجد الخادم (ريحانه) لها نفس الصفات وتقوم بالمهمة نفسها .

وفي رواية أحمد ابن طولون نجد الخادم (زكريا) يقوم بدور الأم والأب المخلص الذي تهون عليه حياته من أجل أن يجمع سيدته (دميانه) بمن تحب وهو (سعيد الفرغاني) وإنقاذها من شر والدها وصديقه (اسطفانيوس) .

---

(١) جرجي زيدان ، أبو مسلم الخرساني ، ص ٣٣

وفي رواية العباسة أخت الرشيد نجد (عتبه) وكانت مثالا للخادمة المخلصة التي تحاول بكل ما أوتيت من جهد إنقاذ سيدتها من خطر الموت . وكانت الحافظة لسرها ، ورسولها الأمين إلى جعفر البرمكي .

وقس على ذلك جميع روايات زيدان التاريخية إذ لابد من وجود عنصر الخادم ، يخدم القصة الغرامية ، ويدفع بأحداثها إلى الأمام عن طريق جمع أطراف القصة بالمراسلة والمساعدة في تعقيد الحدث ثم تسهيل المهمة للوصول إلى حل .

والاستعانة بالخادم ـ بهذه الصورة ـ دليل افتقار المؤلف إلى روح الاحساس بالفن الروائي ، وهو متأثر في ذلك ـ على مايبدو ـ بالقصص الشعبي العربي .

٦ ـ وننتقل إلى سمة أخرى من سمات روايات زيدان التاريخية وهي : عدم إعطاء عنصر اللغة والأسلوب الأدبي حقهما : وهي ظاهرة واضحة في رواياته . ولكن يبدو أن المؤلف قد أراد للغته وأسلوبه أن يكونا بهذا المستوى وذلك ـ كما أشرنا سابقا ـ أن رواياته هذه موجهة إلى العامة من الناس بصفة خاصة ، لذا كان لزاما عليه أن يقدم لهم هذه الأعمال في هذه الصورة اللغوية الأسلوبية البسيطة التي تتناسب مع مستوى العامة الذهني والثقافي .

فلا أدري هل نلومه على اتباعه هذا المنهج أم لا ؟ وكيف نلومه إذا كان هو يعترف صراحة بأنه ماكتب هذه السلسلة إلا من أجل تعليم ، سواد الناس ، التاريخ ، هؤلاء العامة الذين تعودوا على قراءة القصص الشعبية أمثال الزير سالم ، وعنتره بن شداد وعلي الزئبق .. وغيرها ، والتي كانت تكتب بلغة بسيطة أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى؟!

وإذا أخذنا على زيدان هذا المأخذ في اللغة والأسلوب وطالبناه بضرورة الارتقاء بأذواق العامة ومستواهم الثقافي اللغوي ، نجد أن أعمال زيدان مقارنة بالقصص الشعبية ولغة من سبقه من كتاب الرواية الاجتماعية أرقى مستوى من الناحية اللغوية والأسلوبية ، وإن اعتراها هذا الضعف الذي سنشير إليه بنصوص من بعض رواياته .

وعلى هذا فمسألة اللغة والأسلوب في روايات زيدان لايمكن قياسها

من مفهوم اللغة والأسلوب ، في الوقت الحاضر لأسباب كثيره أولها : البون الشاسع بين ثقافة الفرد في وقتنا الحاضر وثقافته قبل قرن من الزمان . إضافة إلى الفرق الكبير بين طرق النقد الأدبي في الوقت الحاضر ومثيلها قبل قرن من الزمان – هذا إن وجد – . وكل ماعلينا الآن هو وضع صورة شاملة – بقدر الإمكان – عن فن زيدان الروائي ، ونسعى جاهدين إلى أن يكون نقدنا للمؤلف نقدا موضوعيا مبنيا على وضع اعتبار لجميع الظروف التي نشأت فيها الرواية التاريخية . حتى يأخذ زيدان حقه ، بوصفه سباقا في كتابة الرواية التاريخية في العالم العربي .

في موقف من المواقف في رواية الحجاج بن يوسف يقول المؤلف :

> أما هو فبعد أن تمشى هنيهه عاد فوقف أمامها وقال لها : لو كنت تحبين أباك . مارضيت أن يكون لمثل هذا الغلام فضل علينا ، كيف نعيش ولهذا الغلام منة علينا ؟ وتقولين ذلك جهارا !؟ لاشك إنك تحبينه أكثر مما تحبيني[1] .

وفي رواية صلاح الدين ومكائد الحشاشين يقول في وصف عماد الدين :

> وهو شاب في مقتبل العمر قلما يفارق ركاب صلاح الدين إلا لأمر مهم ولم يكن يراه أحد إلا أحبه لجماله وبسالته مع ذكاء وفصاحة[2] .

فعبارة (لم يكن يراه أحد إلا أحبه لجماله) تحمل روح القصص الشعبي . لأن هذا النوع من القصص يضرب على ظواهر الأمور التي يفهمها العامة ، لذا فهو يقدم جمال عماد الدين الظاهر على ذكائه غير المرئي .

وفي مكان آخر من الرواية نفسها يقول عن سيدة الملك :

---

(١) جرجي زيدان ، الحجاج بن يوسف ، ص ٢٩ .

(٢) جرجي زيدان ، صلاح الدين ومكائد الحشاشين ، ص ١٤

وهي لا تقدر أن تتصوره[(١)] بل هي تكرهه كرها شديدا
لغير سبب سوى الشعور الذاتي • فإنها تتصور فيه
الخبث والخيانة ، ثم هي منصفه لاترى صلاح الدين يستحق
القتل لأنه لم يعمل عملا يستوجب ذلك[(٢)] •

فعبارة "الشعور الذاتي" عبارة لا تنتمي إلى القاموس الأدبي في كتابة الرواية إنما هي عبارة من العبارات التى تجري في الحديث العادي • إضافة إلى قوله (لم يعمل عملا) فهي عبارة ضعيفة ركيكه عاميه ، نجدها بكثره في القصص الشعبي وخاصة ألف ليلة وليلة •

أما في رواية العباسه أخت الرشيد تقول زبيدة لزوجها :

مثلك يا أمير المؤمنين مع البرامكة مثل رجل سكران غرق
في بحر عميق ، فإن كنت قد صحوت من سكرتك وأنقذت
من غرقك أطلعتك على ماهو أعظم من ذلك بكثير[(٣)] •

وفي مكان آخر تقول له :

هذه إرادتك عمدت إلى شاب جميل الوجه حسن الثياب
طيب الرائحة ، جبار في نفسه وأدخلته على ابنة
خليفة من خلفاء الله وهي أحسن منه وجها وأنظف
ثوبا وأطيب رائحة (لكن هذا جزاء من جمع بين
النار والحطب)[(٤)] •

فهاتان الفقرتان تحملان تشبيهات ضعيفة ركيكة بعيدة عن الحس الأدبي • وقس على ذلك في جميع روايات زيدان • فالمؤلف لم يحد عن هذا الأسلوب وتلك اللغة • ولكن كيف له أن ينقح من أسلوبه ولغته إذا كان يقول : إنه يعد الجزء من الرواية وينشره قبل أن يعرف ماذا سيعقب ذلك الجزء من أحداث !!؟ •

٧ ـ ننتقل إلى سمة أخرى وهي رسم الشخصيات :

لكل شخصية من شخصيات زيدان الروائية مفتاح تعرف به منذ البداية •

---

(١) أبو الحسن
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٣
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٢٦

وتستمر الشخصية طوال الروايه ، تتقلب في مختلف الأحداث ، بالسمة نفسها التى طبعها المؤلف بها منذ البداية • فبطلة الرواية - دائما - فتاة جميلة وذكية وشجاعة ، متصفة بصفات حميدة تجعلها محبوبة إلى القراء، وهي لا تحيد عن هذا الشكل الذي رسمه لها المؤلف أبدا • وبطل الرواية أيضا فتى جميل الطلعة ، ذكي ، شجاع ، مخلص في حبه ، يخاطر بحياته من أجل الحصول على محبوبته وتظل صفته حتى النهاية • أما الطرف الثالث المكون من الوالد (والد الفتاه) والشخص الذي اختاره زوجا لابنته فيتصفان - في معظم الأحيان - بصفات سيئة تجعل بطلة الرواية والقارىء يكرهانهما وتستمر هذه صفتهما حتى النهاية • بمعنى أن زيدان يصنف شخصياته تصنيفا فيه تطرف واضح فهناك الحسن وهناك السيء ، وهناك الطيب يقابله الخبيث ، أي الأبيض ، يقابله الأسود ولا مجال لتماذج الألوان في شخصياته •

وفي هذا التقسيم دليل على افتقار المؤلف إلى الوعي والاحساس بالطبائع البشرية التي لا تثبت على حال ، وتتلون بتلون الظروف وتغيرها •

يقول المؤلف في وصف سلمى ابنة حجر بن عدي في رواية غادة كربلاء :

> أما الفتاة فلم يتمالك الرئيس عند النظر إليها من الإعجاب بجمالها ، إذ لم يسبق له أن رأى فتاة مثلها فى عمره الطويل الذي قضاه في دمشق وضواحيها ، على كثرة ما شاهد من بنات الروم والعرب والنبط والسريان واليهود ، ولم تقع عينه من قبل على فتاة في وجهها من الجمال والهيبة مافي وجه هذه الفتاة ... ...

ويكمل : فقد كان في محياها شيء لايعبر عنه إلا بالسحر فلايراها أحد إلا شعر بميل إليها ، ولا يكلمها حتى يقع تحت سلطانها ، فلا يقوى على جدالها ، فضلا عما يبدو عليها من مخايل الذكاء وحدة الذهن ، وأصالة الرأي ، مع ما يتجلى في نفسها من عزة النفس والأنفه •(١)

وتظل هذه هي صفات سلمى منذ بداية الرواية حتى نهايتها • وقد

---

(١) جرجي زيدان ، غادة كربلاء ، صـ ٩ - ١٠

مهد المؤلف لمواقف سلمى بتلك الصفات، حيث نجد عبيدالله بن زياد يقع في غرامها من أول نظرة ومن مسافة بعيدة ، ويقع الخليفة يزيد بن معاوية في غرامها من أول نظرة كذلك ، ويعزم على ضمها إلى نسائه . ويقع في غرامها شمر بن ذي جوشن ويساومها على حياتها بالقبول به زوجا فيكون رفضها سببا في التنكيل بابن عمها وخطيبها عبدالرحمن . ... وتستمر هذه صفاتها إلى أن يجمعها الله بخطيبها بعد كثير من العقبات وجم الصعوبات . وتكاد تكون تلك صفات معظم بطلات روايات زيدان .

ويصف المؤلف عرفجه والد سمية في رواية الحجاج بن يوسف :

> رجل في نحو الخمسين من عمره ، قصير القامة نحيف البدن يكاد جلده يلصق بعظمة ، وهو أشمط شعر اللحية .. .. .. وكأن خداه حفرتان ، ووجنتيه أكمتان ، وأنفه كتلة بارزة في منتصف وجهه . وله عينان غائرتان ، ولو تفرس فيه حسن لتبين من اختلاج أجفانه وعدم استقرار نظره أنه من أهل الرياء والخبث .(١)

ويلاحظ من الوصف أن (عرفجه) - وهو يمثل العزول الذي يحاول إبعاد ابنته سمية عن حسن الذي تحبه من أجل أن يزوجها للحجاج - يلاحظ أنه شخص قبيح المنظر مكروه لخبثه وسوء خصاله وأخلاقه ، وظلت هذه سمته إلى نهاية الرواية . أراد الغدر بحسن وقتله بالرغم من حُسْن صنيع حَسَن معه ، ووقف حجر عثرة في سبيل سعادة ابنته وحسن بسبب طمعه وريائه . ولكنه نال جزاء عمله فى نهاية الرواية كما هي حال مثل هذه الشخصيات في روايات زيدان حيث قتله الحجاج شر قتله .

* * *

٨ - إضافة إلى تلك المظاهر هناك ظاهرة تكاد تشمل جميع روايات زيدان وهي العاطفية المفرطة في سلوك شخصياته : فالبكاء ، والدموع ، حالات تصيب شخصياته جميعا إناثا وذكورا ، ضعفاء وأقوياء ، كذلك حالات الإغماء

---

(١) جرجي زيدان ، الحجاج بن يوسف ،ص ٢١

التي كثيرا مانشاهدها في رواياته ، فالبطلة والبطل - خاصة - يبكيان لأقل الأسباب مدعاة لذلك ، وينصدع فؤادهما لأتفهها .

يقول المؤلف في رواية فتاة غسان معلقا على موقف من مواقف حماد بطل الرواية ، الفتى الشجاع :

وبعد أن كان على أمل من لقاء أبيه مع أبي سفيان في مكة ، يئس من لقائه ، فتصور نفسه مغلول اليدين مقصوص الجناحين . واشتد به اليأس حتى تناثرت الدموع من عينيه[1] .

وفي موقف آخر في الرواية نفسها يقول عن حماد :

وكان هو يراقبها ليرى ما يبدو منها ، فلما رآها نهضت وأسرعت نحوه ، لم يبق عنده ريب في شأنها ، فأسرع لملاقاتها وقد نزع العمامة عن رأسه . فلما التقيا وقعت هند وقد أغمي عليها[2] .

وقس على ذلك في معظم رواياته .

* * * * *

تلك كانت أهم السمات التى اتسمت بها روايات زيدان بشكل عام والتي جعلت رواياته ذات طابع واحد ، وقالب معروف ، وشكل مألوف . وبمعرفة تلك السمات استطعنا الوصول إلى صورة لهذا الفن الروائي ، الممثل للرواية التاريخية ، عند زيدان .

وفي الفصول القادمة ، سنعمل بإذن الله على تحليل روايتي صلاح الدين ومكائد الحشاشين ، وشجرة الدر ، تحليلا وافيا مفصلا نستخرج بعدها أوجه الشبه ومظاهر التأثر بمؤلفات السير ولتر سكوت على هاتين الروايتين وغيرهما .

---

(١) جرجي زيدان ، فتاة غسان ، ج ٢ ، ص ١٧٨

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٦٢

الباب الثالث

أثر روايات سكوت على روايات زيدان التاريخية

الفصـــــــــل الأول

عـــلاقـة جـــرجي زيـــدان بالسـير ولـتـر سكـوت :

لكي ندرك علاقـة زيدان بسكوت لابد لنـا أولا أن نعرف شيئا عن حياة زيدان :

ف (جـرجي زيدان) (١٨٦١ – ١٩١٤) عربي ، نصرانـي ، وعاش حياته نصرانيـــا .. ولد في مدينـة بيروت في ١٤ ديسمبر سنة ١٨٦١ وتعلم مبـاديء العلوم في بعض مدارسهـا الابتدائية ، حتى اضطرته الظـروف لترك المدرسـة صغيرا ومساعدة والـده في أشغـالـه . وكان لشدة رغبته في العـلم يطـالع ماتصـل إليه يـده من الكتب . وقـد درس اللغـة الانجـليزية ....

وفي صيف سنة ١٨٨٦ زار عاصمة بلاد الانجليز وكان يتردد على المتحف البريطاني .[1]

ويهمنا من حـياة زيدان كلهـا في هـذا المقـام هـو ماذكرناه في الفقـــرات السـابقة . فزيـدان طـموح طرق أبـواب العـلم والمعـرفة دون كلل أو ملل ، وواصل جهـوده لكي يصل إلى مـاوصل إلـيه من شهـرة وذيوع صيت . وقد نشـأ في فتـرة الانتعـاش العـلمي ، وفي عصر ظهـور الجـرائد والمجلات وتشجيع البعثـات إلـى دول أوروبـا ، وعـاش معظـم سـنوات عمـره في مصـر يرأس تحـرير عدد من المجـــلات كـالمقطـف والهـلال . وفي هـذه الفـترة وقبلهـا بسـنوات ظهـر كثير من المهـتمين بالتراجـم ، فترجمت الروايات الانجـليزية والفرنسـية والروسـية وانتشرت في الأسواق وكـــان :

> للمترجـمين من أدبـاء الشـام – على وجـه الخصوص جهـــد لا ينكـر في هـذا المجـال . ونذكر منهـم مارون النقـــاش ونجـيب حـداد ونقـــولا رزق اللـه وطانيـوس عبده . وكان لهـؤلاء ولغيرهم إسهـام عظـيم في الحـركة الأدبية المسرحـية والقصصيـة . بل ربمـا انفـرد نجـيب حـداد باهتمامه بترجمة القصص التاريخي وعنايته بقصص سير ولـتر سـكوت رائـد القصـة التاريخـية .[2]

وهكذا نجد أن الروايات الانجليزية وغيرهـا من الروايات والمسرحيات الأوروبيـة

---

(١) جـرجي زيدان ، تـاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٢ ، صـ ٦٤٥ – ٦٤٦

(٢) جـرجي زيدان ، الأسـير (المقدمـة) ، دار الهلال ١٩٨٥

قد أصبحت في متناول الجميع . وحري بجرجي زيدان وهو الشاب الذي ولع بالقراءة واهتم بتثقيف نفسه ، حري به أن يطلع على هذه الروايات وخاصة ماله علاقة بمواهبه وميوله التاريخية في التأليف . فلا بد والحالة هذه أن يطلع زيدان على روايات السير ولتر سكوت التاريخية المترجم منها وما كتب بلغته الأصلية ، خاصة ونحن نعرف أنه يجيد اللغة الانجليزية ، وقد عرفنا كذلك أنه كان كثير التردد على مكتبة المتحف البريطاني وغيرها من المكتبات .

وقد كتب الدكتور / ناجي نجيب في تقديمه لرواية المملوك الشارد ، نقلا عن جرجي زيدان قوله في مجلة المقتطف (٦/١٦) :

> ... ولا أخفي على حضرات المطالعين أني حاولت أن أبعث هذا العبد[١] غير مرة ، غير أني خشيت الوقوع بما وقع فيه السيد ولتر سكوت عندما أقام (أثيل) من القبر إجابة لطلب صاحب المطبعة فعرض نفسه للانتقاد والتنديد[٢].

وبهذا يتضح أن زيدان قد قرأ رواية (ايفانهو) للسير ولتر سكوت بالفعل . و (اثيل) هو (ايثلستين) خطيب (راوينا) في الرواية.

وقد ظهر لنا بعد الدراسة أن زيدان كان قد قرأ بالفعل روايات سكوت الخاصة بالحروب الصليبية وعصر الفروسه ، وسنشير إلى مايوجد من تشابه في المواقف ورسم الشخصيات بينها وبين العديد من روايات زيدان في الباب الثالث .

وعلى هذا لم يبق هناك شك في اتصال زيدان بالسير ولتر سكوت عن طريق ماقرأ له من روايات تركت أثرا في رواياته المسلسلة تحت عنوان (روايات تاريخ الاسلام) وقد استطعنا الوصول إلى ذلك الأثر بعد الدراسة والبحث والمقارنة .

وقد كان تأثر زيدان بسكوت ظاهرا في بعض المواقف التي تخللت بعض رواياته وفي رسم الشخصيات في روايات مختلفة ، إلا أنه لم يستطع الارتقاء إلى منزلة سكوت في استغلال المادة التاريخية لخلق عمل فني متميز .

---

(١) هو سعيد خادم غريب ووالدته في رواية المملوك الشارد .

(٢) جرجي زيدان ، المملوك والشارد (المقدمة) دار الهلال ، ١٩٨٥م .

الفصل الثاني

صلاح الدين ومكائد الحشاشين[1]

بعد دراسة روايات زيدان ، وجدنا أن المؤلف قد تأثر بروايات سكوت التاريخية وخاصة تلك التي تحت عنوان :
(قصص الصليبيين) . منها (ايفانهو) و (الطلسم)[2]
وكانت الروايات التي ظهر فيها هذا التأثير بشده هما روايتي :
(صلاح الدين ومكائد الحشاشين) ، و (شجرة الدر) .
أما بقية الروايات فقد ظهر فيها أثر سكوت متمثلا : إما في موقف ، أو في رسم شخصية ، لذلك رأينا أن نقصر دراستنا النقدية التفصيلية على هاتين الروايتين[3] ، أما بقية الروايات التي ثبت فيها التأثر ، فسنكتفي بالإشارة إلى مواطن التأثير مستشهدين بالنصوص لاثبات ذلك .

البناء الروائي :

١ - العمل الروائي :

يشير إلى انتقال الحكم في مصر من الفاطميين إلى الأيوبيين على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي . مع وصف لطائفة الحشاشين في ذلك الوقت .

٢ - الحبكة :

تحكي الرواية قصة بدأت في آخر عهد الخليفة الفاطمي العاضد في مصر . وتبتدىء بإشارة إلى عنصر الأكراد ودخوله مصر واستفحال أمره فيها ، وذلك بعد أن استغاث الخليفة العاضد ، بالسلطان نورالدين زنكي سلطان الشام في ذلك الوقت ، مرسلا خصلات من شعر نسائه ليدفع

---

(١) صدرت عام ١٩١٢ - ١٩١٣ .

(٢) وأضفنا اليها المخطوبة .

(٣) صلاح الدين ومكائد الحشاشين وشجرة الدر .

السلطان لإغاثته ضد الصليبيين . ومن هؤلاء الأكراد صلاح الدين بن أيوب الذي عين وزيرا لنورالدين زنكي في مصر .

صار صلاح الدين ذا نفوذ قوي في مصر ، حتى أصبح الجميع يهابه بمن فيهم الخليفة العاضد نفسه . وكان العاضد شابا لايتجاوز سنه الواحد والعشرين عاما .

قدم نجم الدين ، وهو والد صلاح الدين ، لزيارة ابنه في مصر ، فخرج الخليفة في موكب حافل ، ومعه صلاح الدين لاستقبال نجم الدين الكردي . وكان هذا الاحتفال خوفا من هؤلاء الأكراد وبطشهم . وقد عرف نجم الدين بالدهاء والذكاء القوي ، وبعد النظر .

تنبه صلاح الدين ، وهو في مجلس الخليفة ، لأحد أقرباء الخليفه الذي كانت له ملامح مريبة ، وقد تنبه لذلك ، قبله ، والده نجم الدين فحذره منه . وعرف أنه من العلويين واسمه أبوالحسن ، ويدعي نسبا في الدوله العبيديه ، والأكراد سنيون وقد حذر نجم الدين ولده من هؤلاء ، خاصة وقد أعلم بأنه من طائفة الاسماعيلية أي طائفة الحشاشين الذين يكنون عداءً للأكراد .

يصاب الخليفة العاضد ، بالحمى ، من فرط غيظه من تدخل الأكراد في شئون دولته . ويظهر تذمره منهم أمام أبي الحسن . فينتهز أبوالحسن هذه الفرصة ويعرض مساعدته ، لقاء أن يتزوج أخت العاضد ، سيدة الملك وأن يوصي له العاضد بولاية العهد من بعده . ويوافق العاضد على طلب أبي الحسن ، ولكن ، سيدة الملك تكره أبا الحسن وترفض الزواج منه . يصل هذا الخبر الى أبي الحسن فيزداد غيظا وحقدا وينوي الانتقام منها بأية وسيلة .

أما سيدة الملك فترفض أباالحسن ليقينها بخبثه ونفاقه وحقده ، وظنها غدره . وتتذكر حادثة أو موقعة العبيد ، التي وقعت بين جند العاضد ، وجند صلاح الدين ، حيث رمى فيها جنود صلاح الدين بقوارير النفط وانتهزها أعداء الخليفة ، المنافقون ، فرصة فأخذوا يرمون قوارير النفط بعد أن يشعلوها . هذا بعد أن أمر صلاح الدين جنده بايقاف رمي

قوارير النفط.[1] وأراد اثنان من الخائنين اختطاف سيدة الملك ، في تلك الآونة ، حيث الجميع مشغول بإطفاء الحريق . فأخذت تصرخ وتستغيث ، فتقدم شاب من الأكراد ، من خواص صلاح الدين ، وأنقذها منهما . وهي تشك في أن أحد ذينك الخائنين هو أبوالحسن . وقد عرفت أن الكردي الذي أنقذها هو : عماد الدين ، أحد أقرب خواص صلاح الدين إليه . وهي تفكر فيه منذ تلك الحادثة ، وتود مقابلته ومحادثته .

وبعد أن رفضت سيدة الملك الاقتران بأبي الحسن ، أخذ هو يدبر حبيلا ، من أجل إجبارها على الزواج منه . وذهب إلى ضياء الدين عيسى الهكاري وهو فقيه من مستشاري صلاح الدين ، المقربين ، رجل مطلع ، يقضي جل يومه في تحصيل العلم . وبحيلة ماكرة ، أوحى أبوالحسن إلى ضياء الدين – وهو يعلم بحب ضياء الدين لصلاح الدين – بزواج صلاح الدين من أخت العاضد ، وذلك ليكون صلة قربى بالخليفة تجعله أهلا للخلافة . راقت الفكرة لضياء الدين ، فبادر من فوره بطرحها على صلاح الدين . فأوعز إليه صلاح الدين ، بطرح طلبه – بطريق غير رسمي – على الخليفة .

أحس الخليفة العاضد بالغم ، خاصة وهو في موقف لايسعه فيه الرفض ، فاعتذر ، وطلب مهلة . واجتمع بأخته ، وأخبرها أنه من الأوفق لها أن تقبل بأبي الحسن زوجا لها ، وبذلك يعتذر العاضد لصلاح الدين ، وتنتهي القضية . وهذا بالضبط مافكر فيه أبوالحسن . حيث أنه ، يعرف جيدا أن سيدة الملك العربية لن توافق على الزواج من أعجمي حتى ولو كان صلاح الدين نفسه . ولكن سيدة الملك خيبت ظنه فرفضتهما معا . حيث كانت لا تفكر إلا بعماد الدين .

دبرت سيدة الملك ، مع خادمتها ياقوته ، طريقة أرسلت بها أحد غلمان القصر إلى عماد الدين (في ليلة سفره)[2] ، وأرسلت معه خصلة الشعر ، التي ردها إليها بعد أن أنقذها من أولئك الخائنين ، والتي كان

---

(١) وكان قد أمر جنده برميها دون إشعالها ، وغرضه من ذلك التهويب وإثارة الخوف في نفوس العبيد .

(٢) حيث أقسم على السفر إلى جبل السماق من أجل القضاء على جذور طائفة الحشاشين الذين حاولوا اغتيال سيده ، صلاح الدين ، الليلة السابقة .

قد أخذها من السلطان نورالدين زنكي ، بحجة غيرته على نساء الخليفة الحرائر ، ورغبته في ردها إلى صاحبتها بنفسه. وعندما رأى عماد الدين خصلة الشعر ، تأكد من صحة قول المرسول ، وذهب معه بعد كثير تردد بين تأدية الواجب وهو : سفره الذي كلف نفسه به ليقتل زعيم طائفة الحشاشين الذي أراد أن يبطش بسيده ، صلاح الدين ، ليلة تعيينه[1] ليكون أحد أقرب خواص صلاح الدين ومرافقيه ، وبين عاطفته ، إذ تستدعيه سيدة الملك المرأة الجميلة التى رآها يوم أنقذها في وقعة العبيد ، فوجد فى نفسه عاطفة وميلا إليها !! .

وكان عماد الدين قد علم بأمر خطبة صلاح الدين لسيدة الملك ، وقد آلى على نفسه تلك الليلة أن يثبت حبه وإخلاصه لسيده ويذهب قبل بزوغ الفجر لأداء مهمته الصعبة بعد أن أخذ ميثاق صلاح الدين ووالده بعدم إعلان هذا النبأ .

ظل عماد الدين مترددا ، ثم بعد ذلك لحق بالغلام بعد أن تخفى في عباءة ودخل مع الغلام القصر عن طريق سرداب قديم وقابل سيدة الملك برفقة خادمتها ، وتحدث معها ، وأعلمته بحبها له ، وتفكيرها فيه ، وهو يشعر بالخجل ، وبالعجب أن تقع أخت الخليفة في غرامه وهو أحد خدم صلاح الدين ! إضافة إلى أنه كردي . ثم هو بعد أن علم بخطبة صلاح الدين لها أحس أنه غير أهل لها ، فكان شديد التحفظ فى حديثه معها .

علم أبوالحسن بقدوم عماد الدين إلى قصر النساء فجاء بنفسه في تلك الليلة إلى بهاء الدين قراقوش ، وهو حامي قصر النساء ؛ وأعلمه بذلك ، فبادر قراقوش — اعتقادا منه بحسن نية أبي الحسن ، وقربه من الخليفة — إلى مقصورة سيدة الملك لتفتيشها ولكن عماد الدين تمكن من الفرار والعودة إلى مقصورته في قصر صلاح الدين قبل صلاة الفجر ، ولم يتمكن قراقوش من القبض عليه .

في تلك الليلة ، وقبل بزوغ الفجر سافر عماد الدين لأداء مهمته . وترك سيدة الملك حزينة لفراقه .

---

(١) عماد الدين

اشتد المرض بالخليفة العاضد ، وأحضر له الأطباء من كل صوب ، إضافة إلى طبيبه الخاص ولكن لا فائدة • ازداد أبوالحسن اندفاعا ورغبة في الحصول على عهد يمكنه من ولاية العهد بعد وفاة الخليفة • فأوحى مرة أخرى إلى ضياء الدين عيسى الهكاري بضرورة مبايعته خليفة ، بعد وفاة العاضد ليساعد صلاح الدين ويكون له عونا • ولكن نجم الدين أيوب أشار على ابنه بعدم تولية أحد ، خليفة بعد موت العاضد ، وأن من الأسلم له أن يمسك هو زمام الأمور ، يقضي على جذور الخلافة الفاطمية • ويدعو للخليفة العباسي على منابر المساجد ليكسب رضى نور الدين زنكي ، الذي كان يلح في ذلك ، ويقبض هو بالتالي على زمام الأمور كلها بدل أن يتعب نفسه بتولية خليفة آخر •

عندما ازدادت الحمى اشتدادا على الخليفة العاضد ، وتأكد من عدم إخلاص رجاله ، بمن فيهم أبوالحسن ، طلب من جميع أقربائه وأبناء أخيه وأخته الحضور بعد أن طلب حضور صلاح الدين • وفى تلك الجلسة ، أوصى صلاح الدين باخته وبجميع أولاده ونسائه خيرا ، لأنه كان يثق بشهامة وكرم صلاح الدين ونبله • قبل صلاح الدين الوصية ، بعد أن ألمح لسيدة الملك أنه لم يعد يريدها زوجا إذا كانت لا تريده • حدث ذلك دون علم أبي الحسن •
فرحت سيدة الملك بهذا الخبر • وبعد فترة وجيزة توفي العاضد • فأحاط جنود صلاح الدين بالقصر واستولوا على جميع مابه من جواهر وأثاث وعبيد وجوار ونساء • أما سيدة الملك ونساء الخليفة وأولاده فقد خصص لهم قصرا بجواره وأقام عليه حراسا •

وكان في خطة صلاح الدين القبض على أبي الحسن ، ولكن الأخير تمكن من الهرب بمساعدة الغلام جوهر الذي أخبره بالقصة من أولها • غضب أبوالحسن وقرر أن ينتقم - بأية وسيلة - من صلاح الدين ومن سيدة الملك •

كان عماد الدين قد وقع أسيرا في بيت المقدس ، وسجن ، وهناك تعرف بعبدالرحيم أحد الفدائيين الذين ينتسبون إلى طائفة الاسماعيلية ، وكان قد أرسله راشد الدين زعيم الاسماعيلية لقتل صاحب بيت المقدس • وكانت بينهما صداقة متينه شجع فيها عبدالرحيم عماد الدين على الانتماء إلى طائفته دون أن يعلم بسره • وانتهزها عماد الدين فرصة ، وقبل هذا

التشجيع ، وحول اسمه ليوافق هوى هذه الجماعة وأصبح اسمه عبدالجبار واتفق أن آخرج عبدالرحيم من سجن بيت المقدس قبل عماد الدين ، مقابل أن يذهب في قيادة وفد مرسل إلى صلاح الدين[1] فحمَّله عماد الدين رسالة إلى صلاح الدين وأخرى إلى سيدة الملك . وقد عرفت سيدة الملك بما يكنه لها عماد الدين من محبة وود .

وقد اتفق عبدالرحيم مع عماد الدين أن يساعد الأول الثاني للخروج من السجن ، وساعده . وخرج عماد الدين متوجها إلى جبل السماق في حلب من أجل مقابلة راشد الدين للانضمام إلى جماعته . وقد أعطاه عبدالرحيم كتاب توصية - يوصي فيه بعبد الجبار خيرا .

أما راشد الدين فبعد أن وضع عبدالجبار في أكثر من موقف ، ليمتحن شجاعته ، قبل به ليكون من طائفته . ثم مالبث أن أسند إليه مهمة قتل أحد أصدقائه الذي جاء مؤخرا في زيارته . واسمه سليمان . وتم قتل سليمان هذا[1]، على يد عبدالجبار ليكتشف بعد ذلك أن سليمان هذا ماهو إلا أبوالحسن . وكانت برفقته امرأة كان يعذبها ليل نهار فأنقذها ليعرف بعد ذلك أنها سيدة الملك[3]. اختطفها أبوالحسن ، لينتقم منها . والتقى عمادالدين بسيدة الملك ، بعد أن أنقذها للمرة الثانية ، ثم غادرا المكان برفقة عبدالرحيم الذي خرج عن طائفة الحشاشين . وفي القاهرة استقبلهما صلاح الدين استقبالا حارا . وأقيمت الاستعدادات لزواجهما ، زواجا يليق بالأمراء ، بعد أن أتم عماد الدين المهمة التي كلف نفسه بها . أما عن عدم قتله لزعيم طائفة الحشاشين ، راشد الدين ، فلأن الأخير تنبأ بوفاته في السنة التى يتوفى فيها صلاح الدين ، لذلك ، فهو حريص على حياة صلاح الدين حرصه على حياته . ومادام الحال كذلك فلا خوف منه على صلاح الدين .

* * * * *

---

(١) وهو وفد ظاهره تحميل الهدايا إلى صلاح الدين ، وباطنه اجتماع الصليبيين بجماعة الاسماعيلية والاتفاق معهم ضد صلاح الدين .

(٢) ذروة الأحداث Climax.

(٤) طريق النهاية Final Stage.

تلك كانت حبكة رواية (صلاح الدين ومكائد الحشاشين) . نجد أن ثلثي الرواية يدور حول عماد الدين أحد خواص صلاح الدين والمقربين إليه . فارس من الأكراد المخلصين لصلاح الدين . ونجد عماد الدين ، في هذه القصة ، بطلا مغوارا شهما ينقذ سيدة الملك من العار والاختطاف . ويرد إليها خصلة شعرها التي أرسلها أخوها من ضمن بقية خصلات شعر نسائه ، إلى السلطان نورالدين زنكي ، يستغيثه ، لينقذه من الصليبيين ، الذين أرادوا غزو مصر . ونرى عماد الدين وقد أعجبته سيدة الملك لجمالها ، ولكنه ما تجرأ على البوح باعجابه . ثم بالتالي نرى سيدة الملك وقد أعجبت به إعجابا ، يجعلها ترفض كل من يتقدم لخطبتها من أجله . كما نرى نجم الدين أيوب ، يقترح على ابنه زيادة الاهتمام به لشجاعته ونبله . ونراه وقد وهب نفسه وروحه لخدمة سيده فيخاطر بها ويقسم أن يقتل بيده ، زعيم الحشاشين ، الذي أراد قتل سيده ، ونراه وهو يتعرف على عبدالرحيم الفدائي ، فيطريه الأخير ويعجب بشجاعته وشهامته فيدعوه للانضمام إلى طائفة الحشاشين ، فيمهد له الطريق لأداء مهمته التى خرج من القاهرة من أجلها . وأخيرا ينضم إلى طائفة الحشاشين التي تمكنه من قتل أبي الحسن الذي اختطف سيدة الملك ، وعذبها ، وينقذ للمرة الثانية سيدة الملك . ثم في النهاية ينجح في جميع المهمات التي أسندت إليه ، ويفوز برضى صلاح الدين ، وبالزواج من سيدة الملك .

لاحظنا أن الحبكة تدور حول عماد الدين . وشخصيته في بوّرة أحداث الرواية ولكن لماذا سميت الرواية باسم صلاح الدين ؟

يبدو أنها سميت بذلك ، لأن أحداثها تدور في عصر السلطان صلاح الدين وكان عماد الدين من خواص صلاح الدين . وكانت المهمة التي أقسم على أدائها بسبب صلاح الدين[1]. فكل هذه الأسباب تجعل الرواية تسمى باسم صلاح الدين .

وكما ذكرنا سابقا فإن ثلثي الحبكة تدور حول عماد الدين . وإذا كان

---

(١) حيث وجد صلاح الدين ، في ليلة ترقية عماد الدين ، خنجرا مغروسا في وسادته داخل غمده رسالة تهديد ، غرسه أحد الفدائيين من طائفة الحشاشين الذين يكرهون الأكراد .

الأمر كذلك ، فخطوط الحبكة واضحة ، ولكن المؤلف ضخمها ، بتداخل الأحداث المهمة بغير المهمة ، بطريقة ساذجة . فاخترع قصة أبي الحسن : وعلاقته بضياء الدين ، وعلاقته بالخليفة ، وعلاقته بقراقوش ، وعلاقته بنور الدين زنكي ، ثم علاقته براشد الدين ... كل هذه العلاقات تتداخل في الحبكة ، وهي لاتضيف جديدا ذا بال للقضية ، لأنها علاقات وأحداث شديدة الشبه بعضها ببعض . فكان تركيب الأحداث المتعلقة بأبي الحسن تركيبا ساذجا لا يؤخر ولا يقدم في تطور الرواية .
كثير من الحوارات القائمة بين ياقوته وسيدة الملك ، حوارات ساذجة أيضا ، ما أضافت شيئا لتطور الرواية .

وبشكل عام ، فإن الحبكة بسيطة جدا ، تكاد تشبه قصص الروايات الشعبية وقصص ألف ليلة وليله ، بالرغم من كثرة الأحداث فيها . خصلة الشعر هي كلمة السر . تنتقل خصلة الشعر من شخص إلى شخص وفي النهاية تعود إلى صاحبتها ، فيفتح باب للعاطفة . وتقف الصعاب . وتطول الأيام ، ثم يجتمع القلبان ، بعد طول غياب وكثير معاناه ، في عمل بطولي . وتقام الأفراح والليالي الملاح .

٤ ـ الشخصيات :

إن الشخصيات في رواية (صلاح الدين ومكائد الحشاشين) ، ليست كلها ذات أهمية . وجميعها سطحية لاترهق القارئ في فهمها وتتبعها . والقدرة الذهنية في إدارة الحوار ، لكل شخصية ، أيضا بسيطة . وجميع الشخصيات متساوية في هذه الصفة ، فليس هناك فرق بين نجم الدين الذي اتصف بالذكاء والدهاء وبين بهاء الدين قراقوش مثلا ، ولا بين سيدة الملك وياقوته ولا بين أبي الحسن والهكاري ... الجميع سواسية في هذا المضمار .

لقد رويت الرواية على لسان شخص يعرف كل شيء عن الأحداث ، وعن دخائل نفوس الشخصيات في الرواية[1] . وهو المؤلف نفسه . والراوي في روايته لأحداث الرواية ـ ينتمي إلى نفس فئة الشخصيات في الرواية .

---

(1) Omniscient Auther.

وذلك لبساطته المتناهية في سرد الأحداث والتعليق عليها ، وعدم إجهاد نفسه في اختيار ألفاظ أدبية قوية تجعله في منزلة مختلفة عن الشخصيات . لذلك ترى شخصيته تختلط ببقية الشخصيات وتضل فيها .

وسنفصل القول في ثلاث من الشخصيات المهمة في الرواية :

عماد الدين :

في رأيي أن شخصية عماد الدين هي الشخصية الرئيسة في العمل الأدبي الذي بين أيدينا . وكما أشرنا سابقا ، نجد أن ثلثي الرواية متعلق به شخص نبيل شهم ، شجاع ، كردي الأصل . أحد أهم وأقرب رجال صلاح الدين إليه :

وهو شاب في مقتبل العمر ، قلما يفارق ركاب صلاح الدين الا لأمر مهم . ولم يكن يراه أحد الا أحبه لجماله وبسالته مع ذكاء وفصاحة .

هكذا أراد المؤلف أن يمهد للأحداث التي تعرض لها عماد الدين . فهو شاب شجاع مخلص - إلى درجة الفداء بالروح - لسيده وولي نعمته صلاح الدين . لهذا لم يتردد لحظة في أن يقسم بالانتقام من طائفة الحشاشين ، عندما علم أنهم أرادوا الفتك بسيده . وقد أعجب به نجم الدين أيوب كثيرا . ونصح ولده بتقريبه والاهتمام به من اللحظة الأولى التي رآه فيها . ونجد - كذلك - سيدة الملك تقع في غرامه اعجابا بجماله وبسالته !! .

وتستمر شخصية عماد الدين متمتعة بهذه الصفات إلى النهاية ، فهو مثال الشهامة والشجاعة والكرم والاخلاص ، لم يتغير أبدا . وجاءت جميع الأحداث لتؤكد هذه الصفات فيه :

ونادى(٢) عماد الدين - فأتى مسرعا وخفة الروح ظاهرة في وجهه ، والشجاعة تتجلى في عينيه والنشاط ظاهر

---

(١) جرجي زيدان ، صلاح الدين ومكائد الحشاشين ، ص ١٥

(٢) صلاح الدين .

في انتصاب قامته وامتلاء عضله[1] .

وكانت تلك الصفات سببا في ترقيته ليكون أقرب الناس إلى صلاح الدين . وينال شرف دوام مرافقته وحراسته . وتزداد أهميته عند سيدة الملك . وتزداد تفكيرا فيه . وترسل إليه خادمها ليلة سفره إلى جبل السماق في حلب . ويأتي عمادالدين مدفوعا بشهامته وتلبية نداء سيدة الملك التى تحتاج إليه في أمر مهم ، كما زعم الغلام .

وعند سيدة الملك يظهر من العفة والاخلاص لسيده ، بالرغم من تصريح سيدة الملك بحبها له . ولكنه يحب سيده . ويعرف أن سيده قد طلبها لنفسه . لذا فهو يتعفف عنها إكراما لسيده ومنزلته :

> وكيف إذا رأيت مهارته فى ركوب الخيل وخبرت أخلاقه الحميدة ؟ يكفي تفانيه في سبيل خدمتي . إنه يحبني حبا مفرطا ، فلو قلت له ألق بنفسك في النار لفعل[2] .

نعم هذا مافعله . لقد ذهب ليقتل زعيم طائفة الحشاشين وهو يعرف ماهو مقدم عليه من خطر ، في سبيل إرضاء سيده :

> ياعماد الدين ، ستكون رجلا مقدما ويسرني أنك حائز إعجاب سلطانك[3] .

كل هذه العبارات ، والأوصاف تمثل مفتاح شخصية عماد الدين . وجميع ماوقع من أحداث جاء ليؤكد فيه هذه الصفات .

فهو ينقذ سيدة الملك ـ المرة الأولى ـ من يد بعض الخائنين . ويرد إليها خصلة شعرها . ويكسب محبتها . وهو يخلص لسيده صلاح الدين ، ويقدم له بالغ الولاء والطاعة . ويكسب بذلك محبته ومحبة نجم الدين حتى أنه اقترح على ولده قائلا :

> أحب أن يلازمك ولا يفارقك ليلا ونهارا وأن يكون له دالة الصديق فيدخل عليك بلا استئذان[4] .

وهو يقدم روحه فداء لسيده ، حين أقسم على تتبع طائفة الحشاشين ،

---

(١) جرجي زيدان ، صلاح الدين ومكائد الحشاشين ، ص ٧٥

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٧

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٨

(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٨

والقضاء على زعيمها معرضا نفسه للأخطار ، مدفوعا بشهامته وشجاعته وإخلاصه .

ثم هو يقضي على أبي الحسن . وينقذ سيدة الملك من براثن ذلك الخائن الغادر وعلى هذا فكانت هذه الأحداث تصديقا لما وصف به من خصال استحق عليها في النهاية المكافأة والثناء ، ممازاد في مكانته فتزوج بمن يحب .

هكذا رسم زيدان شخصية عمادالدين . إنه مثال أو نموذج للخير وجمال النفس الخالص الذي لا تشوبه شائبة . وهكذا هي - دائما - صورة شخصيات رواياته الرئيسة . فهم يمثلون غاية مايمكن أن تمثله صور الخير . أو بالأحرى مثال ماينبغي أن تكون عليه صور الخير . إنه لايعرف اللون الرمادي في رسمها . وقد اختار لها اللون الأبيض الناصع حتى يزداد قوة أمام اللون الأسود الذي يعطيه للطرف الآخر في الصراع . وبذا يستمد اللون الأسود قوته من اللون الأبيض . ويستمد الأبيض قوته من اللون الأسود . أما اللون الرمادي فلا مجال للاهتمام به . وهذا التوزيع فى رسم الشخصيات مبني على عدم إدراك سليم للفطرة الانسانية . فلا يوجد إنسان مركب من خصال الشر فقط وآخر مركب من صفات الخير فقط . إنما الانسان موقف . خليط من هذا وذاك .

سيدة الملك

هي الشخصية التي تلي شخصية عماد الدين في الأهمية . إذ ارتبطت بعماد الدين بعاطفة قوية جعلتها ترفض غيره من أجله . ويخطبها أبو الحسن ابن عمها فترفضه فتثير غضبه وحقده . ويخطبها صلاح الدين فترفضه لأنه أعجمي ثم هي لا تريده وإنما تريد عماد الدين لتعلق قلبها به بالرغم من كونه أعجميا وهي عربية وهنا سر الإشارة في قصة غرامها به . فهو خادم من خدم صلاح الدين . وهو كردي . أما هي فأخت الخليفة الفاطمي . وهي عربية . وارتباطها بالزواج أمر يثير العجب والاستغراب !! .. :

وكانت عاقلة حازمة يرتاح العاضد لحديثها ويستأنس بآرائها .(1)

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢١

فكيف بهذه العاقلة الحازمة تختار عماد الدين الكردي زوجا لها ؟!
هكذا أرادها زيدان أن تكون . عاقلة حازمة لا تهتم بأن يكون زوجها
أميرا أو وزيرا ، إنما تريده شهما كريما يدافع عن العرض . وإن كان
دون منزلتها . فهي تقيس الرجال بشجاعتهم وقوتهم وشهامتهم ولاتقيسهم
بلباسهم وزخارفهم !! .. :-

وكانت سيدة الملك جميلة الخلقة طويلة القامة صبوحة
الوجه ذهبية الشعر جذابة المنظر إذا نظرت في
وجهها شعرت بهيبة تتجلى في عينيها . وهي أكبر
من أخيها الخليفة ببضع سنين إذ أنها في الخامسة
والعشرين من العمر .(١)

نعم كعادته في الوصف ، اتخذ لها زيدان جميع الأوصاف التى تضعها في
الكفة الأخرى في ميزان التكافؤ مع عماد الدين ، فكل واحد منهما يمثل
خير مايمكن أن يتصف به جنسه .

وهذه الصفات هي الصفات التي تتحلى بها جميع بطلات روايات زيدان .
وبتلك الصفات يمهد زيدان لما سيقع من أحداث . فتلك الفتاة العاقلة
الرزينة التى اختارت عماد الدين الكردي ، تستمر على ما اختارته بالرغم
من جميع المغريات . فهاهو صلاح الدين يتقدم إليها ولكنها ترفضه
ويتقدم لخطبتها ابن عمها وترفضه أيضا ، تقول لأخيها :

تهددني بمالك من السلطة علي وبأنك ولي أمري؟
إن هذا لا يغير شيئا من عزمي وإذا شئت أن تنفذ
هذه السلطة من نفسك فافعل . وأما أنا فمستحيل
علي قبول ذلك المنافق المرائي (أبوالحسن) ، وربما
فضلت صلاح الدين عليه عند الضرورة ولكنني لا أريد
هذا ولا ذاك .
وكانت سيدة الملك قد تعلق قلبها بعماد الدين .(٢)

وتستمر شخصية سيدة الملك على هذا المنوال . لا تتغير ولا تتبدل .
يستمر كرهها لأبي الحسن ويزداد تعلقها بعماد الدين :

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٢

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٣

> منذ رأيت عماد الدين وما آتاه من المروءة شعرت بشيء اجتذب قلبي نحوه وكنت أتوقع أن أراه مرة أخرى يأتي فيها إلي يطلب مكافأة على صنيعه ، فلما لم يأت ازددت إعجابا به وارتفعت منزلته في قلبي وتحول الاعجاب إلى حب شديد .(1)

وبما أن عماد الدين كان يشاطرها الإعجاب والحب ، كان لابد للمؤلف أن يجمع هاتين الشخصيتين ليكونا نموذجا للشخصيات الرئيسة في رواياته . وتتحقق آمالها . ويتزوجان !! وهي النهاية التقليدية التي عرفت بها معظم روايات زيدان .

أبو الحسن :

تمثل هذه الشخصية العنصر الثالث من العناصر المتنافرة في الرواية ، فهو أحد زعماء طائفة الحشاشين المناوئين للسلطان صلاح الدين ، وجنس الأكراد السنيين . من اللحظة الأولى التي رأيناه فيها في مجلس الخليفة استطعنا أن نحدد نوع شخصيته :

> وكان في جملة الحضور في تلك القاعة كهل ربعة دقيق العضل ممتقع اللون قاعد في مجلس أقارب الخليفة قعود من يريد الاستتار ويود ألا ينتبه إليه أحد ، لكن صلاح الدين لمحه فعلم من مجلسه أنه من بعض الأمراء ولم يكن رآه من قبل .(2)

فلماذا يحاول أبوالحسن الاستتار؟ ولماذ لايود أن ينتبه إليه أحد؟ خاصة صلاح الدين ؟ إذن في الأمر سر؟ وسنعرف هذا السر مع تطور الأحداث :

> وكان أبو الحسن صفراوي المزاج لمغاويه ، لايبدو في سحنته شيء من التأثرات مهما يبلغ من تأثيرهما في قلبه . أو لعل قلبه لا يتأثر إلا مما يريده ، أو هو قادر على التظاهر بما يشاء من غضب أو فرح أو حزن

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٧

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣

بغير أن يكون ذلك ناتجا عن تأثر قلبي[1] .

هكذا رسم زيدان شخصية أبي الحسن . هو رجل منافق مراء . ولكن ماذا يريد أبوالحسن ؟ ومن هو أبوالحسن هذا؟ ولماذا يظهر بهذا المظهر؟ . أبوالحسن هو أحد رجال طائفة الحشاشين . ويهمه الفتك بصلاح الدين ، وهو يدعي نسبا بالأسرة العبيدية ولكن نسبه مشكوك فيه . وهو يطمع في الخلافة من بعد العاضد ، لذا نجده يتقرب إلى العاضد :

يرى أبوالحسن يا مولاي أن العقده التي يطلب حلها إنما
هي يوسف صلاح الدين هذا . فإذا ذهب تخلصنا من
كل هذه الشرور . وأبوالحسن يسعى في إنقاذنا[2] .

والحقيقة هي : إنه يحاول التمهيد لنفسه بالخلافة . ويتخلص من صلاح الدين الذي يمثل عقبة كؤودا في طريقه إليها :

فقال الخليفة : يشترط أن يكون ولي عهد الخلافة بعدي؟
قال : أطال الله عمر أمير المؤمنين . إن الرجل لايرجو
أن يتولى الملك ولكنه يحب أن يتمتع بولاية العهد
فقط على مايظهر[3] .

وهذا مايظهر ، أما مايسعى إليه أبوالحسن فهو ولاية العهد . إنه داهية ومنافق . ولكن كيف يوطد نفسه في هذا الأمر؟ لقد فكر في طلب الزواج من أخت العاضد سيدة الملك . وبذلك تسهل مهمته في القبض على زمام الأمور في مصر . ولم يكن يسعى إلى الزواج من سيدة الملك حبا فيها . إنما حبا في الارتقاء إلى مطامع دنيوية وأهداف رخيصة يود الوصول إليها . ولكن سيدة الملك ترفضه .

وكان أبو الحسن من أولئك الصيادين ، وهو من أهل
الدهاء والذكاء قوي الحجة لايبالي بما قد يرتكب في
سبيل الوصول إلى غرضه من قتل أو كذب أو تملق

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢١

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٥

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦

أو تزلف[1] .

ولكن سيدة الملك تكره أبا الحسن كرها شديدا ، وتمقته إلى أبعد حد ولا تطيقه . خاصة وهي تشك في أنه أحد الخائنين اللذين أرادا بها سوءًا يوم وقعة العبيد . إضافة إلى ذلك هي تشك في نسبه . ولذلك أصرت على رفضها له مما زاد حقده عليها .

وتستمر أحداث الرواية لتؤكد صفات النفاق والخيانة في شخصية أبي الحسن . ولتؤكد صفة الحقد الذي أضمره لسيدة الملك ولصلاح الدين . ولم تتغير شخصيته حتى النهاية .

ولكن المؤلف لم يتركه بغير عقاب . لقد كلف صديقه راشد الدين ليحرض عماد الدين على قتله . وقتل جزاء ما صنعه ضد صلاح الدين وضد سيدة الملك .

وكانت شخصية أبي الحسن تمثل عنصر الشر في الرواية . هذا العنصر الذي ازداد وضوحا بمقارنته بعنصر الخير المتمثل في شخصية عماد الدين وسيدة الملك .

* * *

أما بقية الشخصيات مثل شخصية صلاح الدين ، نجم الدين ، العاضد ، ضياء الدين عيسى الهكاري ، بهاء الدين قراقوش ، الجاسوس جوهر ، ياقوته ، جرجس .... فكلها شخصيات ثانوية تدور حول الشخصيات الثلاث – السابقة الذكر – من أجل خدمتها لتطوير الحدث .

فشخصية صلاح الدين ، ونجم الدين ، ونور الدين زنكي ، والعاضد ، وضياء الدين الهكاري ، قراقوش : شخصيات دورها الأساسي هو تجمعهم سويا من أجل إعطاء صورة شبيهة بالصورة التاريخية الأصلية . وهؤلاء ارتبط ذكرهم – من الناحية التاريخية – بعضهم ببعض لانتمائهم إلى فترة زمنية قصيرة معينة وهي فترة خلافة العاضد ، الخليفة الفاطمي .

أما شخصية جوهر فقد وجدت لتساعد قوة الشر في نفس أبي الحسن

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٥

وتدفع بها ـ قليلا ـ إلى الأمام في لحظات معينه في العمل الروائي ٠

وشخصية ياقوته ، وردت في الرواية لتمنح القاريء صورة لحياة المرأة في ذلك العصر ، وخاصة قريبات الخليفة ونساؤه حيث لاشاغل لهن ولا عمل ٠ وقد كان دورها فى الرواية هو : تدعيم شخصية سيدة الملك ومساعدتها على الثبات باعتبارها جزءاً في العمل الفني ٠

أما جرجس (عبدالرحيم) فكان دوره : إلقاء الضوء على طائفة الحشاشين وحياتهم وأهدافهم وأعمالهم التخريبية ٠

٤ ـ الحقيقة التاريخية ومعالجتها :

لم يكن جرجي زيدان يهتم بأي عنصر فني في الرواية قدر اهتمامه بالحدث التاريخي[١]٠ لقد بلغ اهتمامه بالحدث التاريخي ، وتغليبه على العنصر الأدبي الفني فى الرواية ، أنه كان يؤرخ للأحداث مستخدما الرموز الحسابية مما يعطي الرواية صفة الكتب التاريخية يقول :

فأصبحت مصر بذلك تابعة لبغداد من سنة ٥٦٧هـ ٠٠٠[٢]٠

ويقول في مكان آخر :

ولكن صلاح الدين كان كثير العناية بسيدة الملك والاحترام لإرادتها قياما بعهده لأخيها ٠ وكان ذلك من أكبر أسباب تعزيتها على مصائبها ٠ على أنه اشتغل عنها مدة بالحروب في الشام وتوفي في أثناء ذلك أبوه سنة ٥٦٨هـ[٣]٠

ونراه في مكان آخر لايتورع عن نقل نص بكامله من كتب التاريخ مستعينا به في توضيح بعض الأحداث يقول :

ونكتفي هنا بنقل عبارة مؤرخ الدولتين في كتاب الروضتين قال : وأخلى دوره (دور العاضد) وأغلق قصوره ، وسلط جنوده على الموجود ٠٠٠ الخ النص[٤]٠

---

(١) وهذا لايعني الصدق وتحري الصحة في نقله للمعلومات التاريخية دائما ٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٨

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٨

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٠٧ ، وانظر ص ١٣٣

ولم يكن هناك داع أبدا لنقل مثل هذه النصوص . فالقارئ لا يهتم بمن عالج الخليفة العاضد أثناء مرضه سواء أكان الشيخ السديد شيخ الأطباء أم غيره . ولايهمه - كذلك - أن يعرف بالضبط ماذا أخذ صلاح الدين من كنوز خزائن الخليفة . كم من الجواري أو العبيد أو الأحجار الكريمة وعددها أم الخواتم المرصعة بالياقوت والمرجان ... كل هذه أمور يهتم بدقة تدوينها (التاريخ) وليس الأدب . ولكن زيدان حرص كل الحرص على تدوين هذه الأمور كما وردت في كتب التاريخ التي اعتمد عليها في تدوين رواياته .

وقد بلغ اهتمامه بعنصر التاريخ وتحقيق الأهداف أنه كان يصدر رواياته بصفحة يدون فيها المراجع والمصادر التي اعتمد عليها في تأليف روايته[١] . وكأنه مقدم على كتابة بحث في التاريخ لاعمل أدبي[٢] . إن هذا الالتزام بالصدق التاريخي في العمل الأدبي هو الذي مقته لوكاش ونقاد الأدب[٣] باعتباره ثغرة واسعة في العمل الأدبي تقلل من قيمته الفنية .

٥ - اللغة :

وكما ذكرنا سابقا فإن الرواية تكاد تخلو من العناصر الأسلوبية الأدبية البلاغية . والشيء الواضح أن المؤلف متأثر إلى درجة بعيدة باللغة البسيطة التي شاع استخدامها في القصص الشعبي ، وهو متأثر كذلك بالأسلوب الصحفي في طرح آرائه ومواعظه .

بهذه اللغة البسيطة التى لا يخاطب بها سوى العامة من الناس ، والتي لانجدها إلا في القصص الشعبي يقول :

> وإذا به صاح بهما صيحة الجبارين ، وخنجره مسلول
> في يده وأوشك أن يقتلهما . فلما رأياه خافا
> وتركاني وعمدا إلى الفرار وظل هو واقفا كالأسد
> ونظر إلي بلطف ..[٤].

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢

(٢) وهو الخيال في تضليل العامة .

(٣) جورج لوكاش ، مرجع سابق ، ص ٧٤

(٤) جرجي زيدان ، صلاح الدين ومكائد الحشاشين ، ص ٢٩

لغة بسيطة خالية من أصول البلاغة والفصاحة .

ويقول في مكان آخر على لسان سيدة الملك :

قالت : إني لا أطلب كفوءا ولا غير كفء ، قلت لك
من قبل إني لا أطلب الزواج . دعنا من هذا الآن .
وليطلب النصيب من طريق آخر[1] .

لغة أقرب إلى العاميه منها إلى الفصحى .

وفي مكان آخر يصف أباالحسن فيقول :

فقعد أبوالحسن من تلقاء نفسه ، وأخذ يظهر الأسف
على حال العاضد ، ويفرك يديه ويعصر عينيه ويهز
رأسه وهو مطرق ثم قال : هل أنت متأكد أنه شديد
المرض[2] .

وقس على هذه اللغة في كل الرواية . أما الأسلوب الصحفي ، والتعليقات التي لا لزوم لها فهي تملأ صفحات الرواية . يقول معلقا على موقف من من مواقف سيدة الملك :

فاستجمعت سيدة الملك قواها . واسترجعت رشدها
وأطرقت وهي تتأمل في عبارة حاضنتها فرأت الحق معها .
ولكن الحب سلطان مستبد لا يذعن للحق ولا يعرف الصواب
وإنما يلذ له الاستبداد بلا سبب والفتك بلا حساب .
ولا يحلو الحب إلا أن يكون مستبدا لأنه متى أذعن للأحكام
العقلية والأقيسة المنطقية أو الاعتبارات الاقتصادية
صار معلما أو تاجرا أو فقيها[3] ... .

الفقرة السابقة هي مجموعة عبارات صحفية مقاليه بعيدة من الأصول الأدبية في كتابة الرواية . ويقول أيضا في وصف سيدة الملك :

وأفاقت وقد هدأت أعصابها وهان عليها ماهي فيه
بالنسبة إلى ماكانت عليه من التعب - لأن تعب الأعصاب
يزيد صاحبه قلقا ولايريه الأمور إلا من وجهها

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٣

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٥

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٨

الأســـــود[1] .

والرواية مليئة بمثل هذه التعليقات التي تفقد العمل الأدبي قيمته .

وقد ظهر كذلك عنصر تطرف العاطفية[2] والمبالغة في التعبير عنهـــا ، بشكل ملحوظ ، فالدموع والبكاء لأقل الأسباب ، ظاهرة في روايات زيدان ومن ضمنها الرواية التي بين أيدينا . فهو على سبيل المثال - يصـف عماد الدين البطل الشجاع ، الذي يرمي بنفسه في المهالك بقوله :

بات عماد الدين[3] في تلك الليلة كالتائه في البحـر وتوالت عليه الأحلام وأفاق في الصباح على نقر بـاب حجرته . فذعر وجلس فإذا بصديقه عبدالرحيم واقـف بين يديه فشعر عند رؤيته بارتياح عظيم وقد خف قلقه واطمأن باله كأنه لقي أباه أو أخاه واستأنس بـه كثيرا فأكب عليه وعانقه وأوشك الدمع أن يتساقط من عينيه لشدة التأثر ... الخ[4].

ولم يكن هناك داع لكل هذا القلق والخوف خاصة ونحن نتابع بطـلا مغوارا لايخاف ولا يهاب وليس إنسانا عاديـا .

وفي مكان آخر يصف موقفا لسيدة الملك :

ولم يكد[5] يلفظ باسمه[6] حتى صاحت سـيدة الملك : عماد الدين وأغمي عليهـا[7] .

وتساقط الدمع وحالات الاغماء صور لاتخلو منها روايات زيدان أبـدا . وهذه الرواية مليئة بهذه الصـور .

وواضح أن المؤلف قد تأثر بقصص ألف ليلة وليلة سواء في استخدام اللغة - وقد استشهدنا على ذلك - أو الصور الخيالية[8] . لقد نقلنـا

---

(١) المصـدر نفسـه ، صـ ٤٩ (٢) الرومانتيكيـة

(٣) بعد أن تركه عبدالرحيم

(٤) جرجي زيدان ، صلاح الدين ومكائد الحشاشين ، صـ ١٤٥

(٥) صـلاح الديـن (٦) عمـاد الديـن

(٧) جرجي زيدان ، صلاح الدين ومكائد الحشاشين ، صـ ١١٥

(٨) المصـدر نفسـه ، صـ ١٥٣ - ١٥٧ . حيث انتقل بنا إلى الجنة التي هي موعد المخلصين من الفدائيين ووصف مافيها .

المؤلف إلى عالم آخر ، عالم من صنع الخيال ، لاتجد له شبيها إلا في ألف ليلة وليلة • وليس من شك أبدا في تأثره بهذه القصص •

بتلك العناصر مجتمعة تكوّن البناء الروائي لرواية (صلاح الدين ومكائد الحشاشين) التي كتبها زيدان ١٩١٣م • فهي تمثل نهاية ما توصل إليه من تجارب في فن كتابة الرواية التاريخية ، حيث توفاه الله بعد تأليفها بعام فقط (١٩١٤م) •

أثر سكوت على رواية صلاح الدين ومكائد الحشاشين :

للسير ولتر سكوت أثر كبير على روايات زيدان وخاصة الرواية التي بين أيدينا • وليس هناك شك في اطلاع زيدان على روايات سكوت خاصة تلك التي صنفت تحت عنوان : (قصص الصليبيين)

وقد استطعنا الوصول إلى هذه العلاقات وإثباتها بالنصوص • وانحصرت علاقات الشبه في بعض المواقف وفي رسم بعض الشخصيات • وكان تأثير رواية الطلسم للسير ولتر سكوت هو الظاهر على هذه الرواية •

في البداية نشير إلى الفرق بين سكوت وزيدان في ميدان الرواية التاريخية على اعتبار أن كليهما يعتبران من السابقين في هذا النوع من في عالمه الأدبي فإذا كان سكوت (والد الرواية التاريخية الأوروبية) ، فقد اعتبر زيدان (أول من كتب الرواية التاريخية العربية) • وكلاهما كان له السبق في هذا المضمار • ولكن يظل الفرق في ظروف المؤلفين مختلفا • ففي حين نجد سكوت قد استفاد كثيرا من المحاولات الجادة التي سبقته في مجال الرواية بشكل عام ، نرى زيدان يفتقر إلى النموذج العربي الذي يحاكيه في هذا المجال ، بعبارة أصح ، نجده غير قادر على الاستفادة من المحاولات الروائية التي سبقت ظهور رواياته لأنها لم تكن جادة • لذا ظهر الفرق شاسعا بين الأديبين •

فهذا سكوت وقد غدا ملما بفن الرواية وأصولها • نجده يهضم الحدث التاريخي بعد قراءة مستفيضة واطلاع واسع ، ثم يخضعه لفكره الذاتي ويقدمه في ثوب جديد ، في قالب رواية تاريخية • فجاءت أعماله أدبية خالصة يمكن

انتشالها من بين آلاف كتب التاريخ لتميزها بطابعها الأدبي الخاص ، الذي تحرر من الأرقام والتواريخ ، وقيود التاريخ الدقيقة المحددة التي تحد من حركة العمل الأدبي . تحرر من كل ذلك ووضع أصل الفكرة التاريخية ، بساطا واسعا أقام عليه بناء رواياته فجاءت كما أراد أن تكون ، أعمالا فنية .

ولكن زيدان جعل من الأرقام والتواريخ والنصوص التاريخية المسجلة في كتب التراث التاريخي أساسا لبناء رواياته ، حتى غدت رواياته أشبه ماتكون بوثائق تاريخية لولا القصص العاطفية الخيالية التي تضمها رواياته .

واعتمادا على تلك القاعدة وجدنا سكوت مهتما بجميع العناصر الفنية للرواية من حوار ورسم شخصيات وحبكات وأسلوب ... الخ . أما زيدان فقد كان اهتمامه بالتاريخ سببا في إهماله بقية عناصر الرواية الفنيه . وهذا فرق جوهري واضح بين المؤلفين .

وقد قرأ زيدان رويات سكوت . وحاول الاستفادة منها في رواياته . ولكنه للأسف لم يستفد منها كثيرا . إذ أنه كان مقتنعا بفكرة معينة ، أعمته عن الاستفادة الجاده من أعمال سكوت وديماس وغيرهما من كتاب الرواية التاريخية - فهو يقول :

> ولا ننكر من الجهة الثانية أن الأسلوب الذي اتخذه المرحوم الاسكندر دوماس وغيره من مؤلفي الأفرنج في رواياتهم مضر بالتاريخ مخل بنظامه ولا غرو إذا لقبوا أحدهم بمشوه وجه التاريخ لما قدم وأخر وزاد ونقص من حوادثه وأشخاصه لأسباب اقتضاها غرضه في تأليف الروايات لاتأليف التاريخ فادخل في بعض رواياته ما اشتهر من حوادث التاريخ أو من رجاله ليلبسها لباس الحقيقة فضحى بالتاريخ لأجل الروايه . وأما نحن فقد جعلنا حوادث الرواية وسيلة لإلباس التاريخ لباس الطلاوة والفكاهه . فإذا جردت رواياتنا من عبارات الحب ونحوه كانت تاريخا مدققا يصح الاعتماد عليه ...[1]

واعتمادا على اختلاف أهداف كل من الأديبين وتباينها ، جاءت النتيجة مختلفة ومتباينه .

---

(١) قاسم والهواري ، مرجع سابق ، ص ١٥٩ ، مع العلم بأن قوله "فإذا جردت رواياتنا ... الاعتماد عليه" قول يبعد في كثير من الأحيان عن الصدق والصحة

أما الاستفادة التي استطاع زيدان الحصول عليها فهي - كما أشرنا سابقا - فى رسم بعض الشخصيات ، والمواقف • وهي شيء لايذكر أمام تفوق سكوت وشهرته ورسوخ قدمه في مجال الرواية التاريخية •

اتفق موضوع رواية (الطلسم) لسكوت ، وموضوع رواية (صلاح الدين ومكائد الحشاشين) ، في الحديث عن صلاح الدين ، وإن اختلف أصل القضية فى الروايتين •

ومن مواطن التأثير والتأثر في الرواية : علاقة الشبه في الموقف الذي تقدم فيه صلاح الدين لخطبة سيدة الملك • حيث نجد سيدة الملك - وأخاها قبلها - يرفضان زواجها من صلاح الدين ، حتى وهو السلطان العظيم والسبب : كونه كرديا أعجميا وهي عربية الأصل • إضافة إلى كل ذلك كانت سيدة الملك على علاقة عاطفية بعماد الدين حارس صلاح الدين والفارس الكردي المتواضع النسب • وقد تغاضت سيدة الملك عن نسب عماد الدين لتغلب العاطفة تجاهه على سلوكها • وقبل ذلك - فى رواية الطلسم - رأينا أن الأميرة (أديث بلانتاجينيت) قريبة الملك ريتشارد ، ترفض الزواج من السلطان صلاح الدين لكونها تعتبر نفسها انجليزية عريقة الأصل - كما يزعم الكاتب - والسلطان عربي مسلم ينحدر من أصل أقل من أصلها عراقة • وفوق كل ذلك هي على علاقة عاطفية مع السير كينيث الليوباردي ، الفارس الاسكتلندي المتواضع •

في رواية الطلسم تقول الأميرة (اديث بلانتاجينيت) للملك ريتشارد حين عرض عليها طلب صلاح الدين في الزواج منها :

> إن الانسان يقدم الحملان والشياه أضحيات ، وليس الشرف ولا الضمير • لقد سمعت أن دخول المسلمين أرض أسبانيا كان بسبب خيانة امرأة نصرانية • ولا أعتقد أن عار أخرى سيكون سببا في طردهم من فلسطين •

ثم تتابع قائلة :

> إننى أعتبره[1] عار وخيانه أن ندنس قدسية العقيدة النصرانية بالدخول في عقد (زواج) مع كافر ، لايمكن لدين النصارى أن يثق فيه • وإنني لأسميه منتهى الاخلال بالشرف

---

(١) زواجها من صلاح الدين •

أن أكـون – أنا سليلة أميرة نصرانية – وبكامل
إرادتي على رأس قائمة من نساء (حريم) وثنيات[1] .

ثم في رواية صلاح الدين تقول سيدة الملك في حوارها مع أخيها الخليفة العاضد ، حين تقدم صلاح الدين لخطبتها :

فأطرقت سيدة الملك وأعملت فكرتها فى كلام أخيها فخافت
أن يصح ظنها فقالت : ماذا تعني يا أخي بالمصيبة الصغرى
وهل هناك مصيبة أكبر منها .
قال : أكثر منها يا أختى أن يطلبك رجل أعجمي من غير
أهلك لاقبل لنا برد طلبه .
قالت : ماذا تعني ؟ من يتجاسر على هذا الطلب ؟

ثم أكملت :

هل تعني صلاح الدين ؟ قال : نعم إياه أعني فما قولك ؟
فتراجعت وقد اصطكت ركبتاها وارتعدت فرائصها ولم
تتمالك فجلست على المقعد وقد امتقع لونها وأوشك الدم
أن يجمد في عروقها[2] .

* * *

ونجد أيضا أن الأسباب التى دعت السلطان صلاح الدين إلى التقدم ، للاقتران بالأميرات – في كلتا الروايتين – تكاد تكون واحدة ، ففي حين ، نجد في رواية (صلاح الدين ومكائد الحشاشين) صلاح الدين يطلب الاقتران بسيدة الملك لغرض سياسي وهو : أن ينجب منها ذرية يصبح لها الحق في اعتلاء كرسي الخلافة ، كذلك لتصبح لديه فرصة أكبر ليصبح هو نفسه خليفة .

نرى فى رواية (الطلسم) أن السلطان صلاح الدين يتقدم بطلب يد الأميرة (أديث بلانتاجينيت) وذلك لغرض سياسي أيضا وهو : إنهاء الحرب بين طائفة الصليبيين

---

(١) Scott., The Talisman, Ch.26, P.234.

إن هذه الألفاظ التى وردت في حديث الأميرة (اديث بلانتاجينيت) من قولها (كافر) (Infidel) و (Hareem) حريم ، و (Heathen.) .. تعبر عن الفكر الصليبي في ذلك الوقت . والفكر الأوروبي بعامه .

(٢) جرجي زيدان ، صلاح الدين ومكائد الحشاشين ، ص ٥٢ ومابعدها .

والمسلمين ، وحقن الدماء ، وإرساء قواعد السلم بين الطرفين ٠

يقول الحكيم[1] وهو يخاطب السير (كينيث) الليوباردي ، الفارس الاسكتلندي :

إن صلاح الدين سيعقد معاهدة سلام[2] مع الملك ريتشارد فقط ٠ وسيعامله الأمير أو يبارزه مبارزة الأبطال ٠ وسيقدم لريتشارد تنازلات بمحض إرادته لا تقوى على إحرازها سيوف أوروبا كلها ٠

ولكن لم كل هذه التنازلات ؟ إن صلاح الدين يريد أن يحقن الدماء بمعاهدة السلم هذه ولكن كيف يدعم أقواله ويطبقها :

٠٠ إن صلاح الدين سيضع ضمانا مقدسا لهذا الاجتماع السعيد بين أشجع (الفرسان) وأرفع الناس شرفا من الفرنجة وآسيا ٠ بأن يرفع إلى مقامه السامي فتاة نصرانية تنحدر من أصل الملك ريتشارد نفسه وتعرف باسم الليدي(اديث بلانتاجنيت)[3]

وبالمقابل نرى أبا الحسن يحتال على الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري ، وهو يفتح أمامه بابا يسهل للسلطان صلاح الدين أمورا كثيرة :

أعني لو أنه طلب أن يتزوج أخت الخليفة أو إحدى بنات أعمامه مثلا لا أظنهم ينتبهون لغرضه ٠ فإذا ولدت له ولدا ذكرا كان فيه من الدم العباسي[4] مايكفي لادعاء حق الخلافة ٠[5]

---

(١) وهو السلطان صلاح الدين متنكرا في زي طبيب مسلم ٠

(٢) إن المؤلف جعل صلاح الدين يعرض رغبته في وضع معاهدة سلام مع الملك ريتشارد - الذي عز عليه أن يطلب مثل هذا الطلب من صلاح الدين بالرغم من أن غيره من أمراء وملوك أوروبا قد حاول ذلك مع السلطان بطريق سري ٠ والتاريخ يقول العكس ، حيث إن الملك ريتشارد هو الذي طلب مثل هذه المعاهدة وقدمه عربونا لها أخته جوانا عروسا لأخ صلاح الدين العادل ، أبوبكر بن أيوب ٠ وقد ناقشنا هذه النقطة في الفصل الثالث من الباب الأول ٠

(٣) *Scott.*, *The Talisman*, PP.132-133.

(٤) يتحدث عن خطبه طغرل بك لابنة الخليفة القائم بأمر الله العباسي ، لتكون تمهيدا وتلميحا لضياء الدين الهكاري ٠

(٥) جرجي زيدان ، صلاح الدين ومكائد الحشاشين ، ص ٤٠

وذهب الهكاري إلى صلاح الدين ، واقترح عليه خطبة سيدة الملك أخت الخليفة العاضد ، من أجل تحقيق تلك الأغراض السياسية السابقة الذكر :

فاستحسن صلاح الدين رأيه واستمهله ليشاور أباه[1] ...

وكان ماكان من أمر خطبة صلاح الدين لسيدة الملك .

بعد ذلك نرى أن الذي أوحى للسلطان بذلك[2] في كلتا الروايتين يكاد يكون واحدا . إذ نجد أن هناك شخصا يثق صلاح الدين فيه ويأخذ بنصيحته في الاقتران بالأميرات .

ففي رواية (صلاح الدين ومكائد الحشاشين) نجد أن القاضي والفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري ، الرجل الذي يثق فيه صلاح الدين ويجله ويقدره ، هو الذي يعرض على السلطان فكرة الزواج من سيدة الملك من أجل الأسباب التي ذكرناها سابقا .

وفى رواية الطلسم نجد أن الذي أوحى للسلطان بالاقتران بالأميرة (اديث بلانتاجينيت) هو ناسك انجادي . كان النصارى يعتبرونه نبيا . ويقصده – كما يزعم المؤلف – السلطان صلاح الدين للمشورة . وذلك لأن الناسك تنبأ أن أحد الفارسين[3] اللذين باتا معه في الكهف ، أمير سيتزوج من الأميرة أديث ، وسيجلب زواجهما السلم بين طائفته – أي طائفة الأمير – وطائفة ريتشارد وهذا الأمير نصراني . فخيل للناسك أن الأمير الذي أري له هو السلطان صلاح الدين . لأنه باقترانه بالأميرة (أديث) سيجلب السلم بين المسلمين والصليبيين . وبما أن الناسك يعرف أن صلاح الدين مسلم فقد تخيل أنه سيرتد عن دينه ويصبح نصرانيا كما تنبأ . لذلك حرص على تشجيع السلطان على الزواج من (اديث)[4] . وقد كان ناسك انجادي قد اشتهر بين الناس إلى درجة :

أن صلاح الدين قد أصدر أوامره باستبقائه وتقديم الحماية له ، وكان هو نفسه وغيره من المسلمين أصحاب المنازل الرفيعة قد زاره أكثر من مرة في كهفه ، بدافع الفضول

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٦

(٢) بالخطبة

(٣) وكان الفارس الاسكتلندي ، السير (كينيث) الليوباردي ، وشيركوف ، الذي عرف الناسك حقيقته .

(٤) Scott., The Talisman, P.259.

أولا ثم بدافع مايتوقعون من رجل عالم مثل النصراني
هاماكو[١] ، من قدرته على استظهار المستقبل...[٢]

ونظرا للمعرفة القائمة بين صلاح الدين وناسك انجادي ، وتقدير صلاح الدين لما يتمتع به هذا الناسك من قدرة على استطلاع الغيب ، ورغبة الناسك في نصرة دينه فقد أشار على صلاح الدين بضرورة زواجه من الأميرة أديث . للأسباب التي ذكرناها سابقا . وبعد أن اكتشف صلاح الدين الحقيقة يقول :

إنه لعالم غريب وغامض ، ذلك الذي يدعي قدرته على رفع
حجاب الغيب ويضل أولئك الناس الذين يفترض أن يهديهم ،
ويظلم المكان الذي يفترض أن ينيره . من ذا الذي كان
يعتريه شك في أني أنا أشد الناس عداوة وخطرا على
ريتشارد ! والذي ستنتهي عداوته بزواجه من قريبته !! .[٣]

وهذا يعني أن صلاح الدين كان قد تلقى النبوءة[٤] من ناسك انجادي واعتقدها ثم استحسنها ، وبادر إلى تنفيذها .

يقول زيدان في روايته ، عن ضياء الدين عيسى الهكاري ، الفقيه ، القاضي الذي يثق فى رأيه صلاح الدين :

فلما سمع[٥] كلام أبي الحسن انتبه إلى أن صلاح الدين يقدر
أن يفعل ذلك[٦] بالتزوج من أخت العاضد وكان يسمع بجمالها
وتعقلها ، والعاضد أضعف من أن ينكر على صلاح الدين طلبه.
وبذلك تصير الدوله إليه حتى نورالدين قد يدخل في سلطانه
فأشرق وجهه لهذه الفكرة وصمم أن يفاتح صلاح الدين
بها في ذلك اليوم[٧].

ويكمل زيدان كلامه حول هذه القضية :

وأسرع في مقابلته[٨] على انفراد في خلوة ، وتطرق في

---

(١) وهو الاسم الذي أطلقه الأتراك على ناسك انجادي شيودريك ـ كما ورد في الرواية

(٢) Scott., The Talisman, P.38, P.259.

(٣) Ibid., P.260.

(٤) Ibid., P.259.

(٥) القاضي ضياء الدين عيسى الهكاري

(٦) يدعي حق الخلافة .

(٧) مصدر سابق ، ص ٤١

(٨) صلاح الدين

الحديث إلى خطبة أخت الخليفة وأقنعه بما تقدم من الأدلة السياسية ، فاستحسن صلاح الدين رأيه.[(١)]

وعلى هذا نجد أن زيدان قد اقتبس الموقف من رواية سكوت بجميع أبعاده وسجله في روايته ، بطريقة تلائم الأحداث.

* * *

وهناك علاقة شبه أخرى بين المواقف فى رواية (الطلسم) أيضا ورواية (صلاح الدين ومكائد الحشاشين) :

حيث نجد فى رواية (الطلسم) أن الملكة (بيرنجاريا) زوجة الملك رتشارد — التى أرادت أن تمزح وتمرح مع وصيفاتها على حساب الأميرة (اديث بلانتاجينيت) التي تحب الفارس الاسكتلندي السير (كينيث) الليوباردي — هذه الملكة ترسل إلى الفارس الاسكتلندي — في الليلة الأولى التي كلف فيها ، من قبل ملك انجلترا ، بحراسة الراية الانجليزية — ترسل خادمها القزم (نكتابنس) ، إلى الفارس الاسكتلندي على لسان الأميرة (أديث) تطلب منه القدوم لكي تراه وتحدثه في أمر مهم ، وترسل معه برهانا يثبت صحة كلامه وهو : الخاتم الذي رآه الفارس الاسكتلندي في إصبع الأميرة (أديث) ليلة أن رآها في معبد انجادي. ويصدق[(٢)] الرسالة لحظة أن رأى البرهان. وظل يتردد بين واجبه متمثلا في حراسة الراية ، وبين عاطفته متمثلة في الاستجابة لنداء السيدة التي يكن لها عاطفة قوية. وبعد أن سأل الرسول عن طول المسافة ، وأخبره الأخير أنها بسيطة. ذهب معه مستجيبا لعاطفته.[(٣)]

وبالمقابل ، نجد في رواية (صلاح الدين ومكائد الحشاشين) الموقف نفسه بين سيدة الملك وعماد الدين :

فسيدة الملك أخت العاضد ، التي تحب عماد الدين وتفكر فيه ، ترسل إليه ، الليلة التي كلف نفسه فيها بالسفر للقضاء على جذور طائفة الحشاشين ، ترسل إليه خادمها برسالة تطلب منه فيها ضرورة القدوم إلى قصرها. وترسل مع الرسول برهانا يثبت صدقه ، وهي خصلة الشعر التي أعادها إليها يوم وقعة العبيد. ويحتار عماد الدين. ويتردد — أيضا — بين واجبه الذي وعد

---

(١) مصدر سابق ، ص ٥٦

(٢) الفارس الاسكتلندي

(٣) *Scott., The Talisman, PP.119-121.*

بالخروج لتنفيذه مع الصباح الباكر وبين عاطفته وهي حبه واحترامه لسيدة الملك . وبعد أن يسأل المرسول عن المسافة ، ويخبره الأخير أنها ليست بالبعيدة . يقرر عماد الدين الاستجابة لنداء سيدة الملك . ويرافق الخادم إلى حيث الأميرة[1] .

يقول (نتكانبس) في رواية (الطلسم) وهو يوصل الرسالة المزعومة من سيدته الأميرة (اديث) :

إنها تطلب حضورك الساعة . بدون إضاعة مزيد من الوقت ...

وهو يقول للقزم مستغربا لهذا الاستدعاء :

ألا تعرف سيدتي أين وبأي مهمة كلفت ؟!

ثم يعود ويسأله وهو في أشد الحيرة :

هل السيدة التى أرسلتك قريبة من هذا المكان ؟

ويكرر سؤاله قائلا :

نكتابنس ، أناشدك ، مرة أخرى ، أن تقول لي : هل ستقودني بعيدا عن هنا؟

يجيب نكتابنس : بل هو في الجانب القريب .

عندها يقرر الفارس الاسكتلندي الاستجابة لنداء عاطفته ، ويقنع نفسه بقرب المسافة وقال مغمضا عينيه عن جميع العواقب :

أستطيع أن أعود بسرعة . أستطيع أن أسمع من هنا نباح كلبي لو اقترب أي أحد من المكان ...[2]

ثم أسرع فى رفقة (نكتابنس) إلى تلبية نداء الأميرة (أديث) .

بالمقابل نجد الموقف نفسه بجميع أبعاده في رواية زيدان (صلاح الدين ومكائد الحشاشين) : فبعد أن أرسلت سيدة الملك غلامها حاملا معه خصلة الشعر برهانا عن صدق كلامه . أخذ عماد الدين يفكر :

وتحير في أمره واستغرب وجود هذه السراديب[3] وفكر هل يجيب الدعوة أم يعتذر لأنه على وشك السفر . والتفت

---

(١) جرجي زيدان ، صلاح الدين ومكائد الحشاشين ، ص ٦٦ - ٦٨

(٢) Scott., *The Talisman*, PP.119-120.

(٣) التي أرشده إليها الغلام للوصول إلى مقصورة سيدة الملك .

إلى نافذة الغرفة فرأى الشمس دنت من المغيب وهو لابد له من مغادرة القاهرة في تلك الليلة كما أقسم ووعد ، فنادى الغلام إليه وقال : كم يقتضي لنا من الوقت لنصل إلى القصر؟ قال : لا يستغرق سيرنا إلا دقائق معدودة . فقال في نفسه : أجيب الدعوة وأعود سريعا فأسافر. والتفت إلى الغلام وقال : هلم بنا (١) .

* * *

وهناك تشابه آخر في موقف بين الروايتين ، وهو مواقف أبي الحسن – أحد زعماء طائفة الحشاشين – الشريرة في رواية زيدان (صلاح الدين ومكائد الحشاشين) وبين مواقف ماركيز مونت زيرات (كونراد) : حيث كان الاثنان يهدفان إلى إفساد الأمور بين الأمراء والملوك من أجل تحقيق أغراض شخصية ومطامع دنيوية.

فنجد أباالحسن يعمل كل مايمكنه عمله من أجل الانتقام من صلاح الدين ومن أجل أخذ الخلافة لنفسه . فيذهب إلى السلطان نورالدين زنكي سلطان بلاد الشام ويدعي أن الفاطميين ثائرون على صلاح الدين ، في بلاد مصر . وأراد أبو الحسن بذلك أن يضعضع ثقة نورالدين في صلاح الدين ، فينتقم الأول من الثاني ويستفيد هو (٢) .

وبالمقابل نجد (كونراد) ماركيز مونت زيرات ، يسعى بنفس الهدف فيوحي إلى الأمير النمساوي ، بأن يضع رايته النمساوية إلى جانب الراية الانجليزية بعد أن أقنعه ونفخ في رأسه بكلمات معسولة في أنه لا يقل أهمية عن ملك انجلترا ولا ينقص شجاعة عنه . بعد ذلك ذهب إلى الملك ريتشارد – وفي الليلة نفسها – ووشى بالأمير النمساوي ، مختلقا رواية على لسان الأمير النمساوي . وكان له ما أراد وهو ضعضعة صفوف الصليبيين (٣) .

أما ردود الفعل عند الملك ريتشارد ، وعند السلطان نور الدين ، عندما وصلتهما الوشاية ، فكان واحدا . وهو الغضب والانفعال والثورة ، ثم زيادة المرض عليهما حيث كان كلا الاثنين يعانيان من مرض معين . فبينما كان الملك

---

(١) جرجي زيدان ، صلاح الدين ومكائد الحشاشين ، ص ٦٨

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٠ – ١٣٢

(٣) Scott.; The Talisman, PP. 100-114.

ريتشارد يعاني من الحمى في تلك الآونة ، كان السلطان نورالدين يعاني من مرض الخوانيق ! ٠

* * *

وهكذا ، وجدنا أن هناك كثيرا من المواقف في رواية (الطلسم) استطاع زيدان أن يستفيد منها في رواية (صلاح الدين ومكائد الحشاشين) وسجلها بكل أبعادها بما يتوافق مع أحداث الرواية ٠

الفصـــل الثـــالث

شجـــرة الـــدر[1]

البنـاء الروائـي :

١ ـ العمل الروائي :

يتضمن مقتل طوران شاه ، وتولية شجرة الدر ، ثم هجوم التتر على بغداد وتخريبها بعد أن ضعف شأنها في عهد الخليفة المستعصم بالله .

٢ ـ الحبكة :

تتحدث رواية (شجرة الدر) عن أهم الأحداث التي وقعت في مصر والعالم الاسلامي منذ مقتل طوران شاه إلى هجوم التتر على بغداد .

تبدأ أحداث الرواية في مصر : حيث تقيم شجرة الدر عقب وفاة زوجها الملك الصالح . ويخلفه ابنه غياث الدين طوران شاه ، الذي استقدمه المماليك من حصن كيفا لهذا السبب . ويستمر دفاع المماليك عن مصر ضد هجمات الصليبيين . ولكن طوران شاه زاد احتقاره للمماليك البحرية . الأمر الذي جعل شجرة الدر تتفق مع عزالدين أيبك التركماني ـ الذي كانت تربطه علاقة عاطفية بشجرة الدر ـ وغيره من جنود المماليك ويقضون على طوران شاه جهارا .

ويأتي ركن الدين بيبرس . وهو من القواد البواسل ، الذين أبلوا بلاءً حسنا في الوقوف ضد الصليبيين وهجماتهم على مصر ـ يأتي هذا القائد حاملا خبر مقتل طوران شاه . ويخبر شجرة الدر بقدوم عزالدين أيبك التركماني بعده وهو يحمل لها بشرى أخرى .

أما البشرى التي حملها عزالدين فكانت موافقة جميع الأمراء والمماليك البحرية على تولية شجرة الدر ملكة على المسلمين في مصر عقب وفاة طوران

---

(١) صدرت عام ١٩١٣ ـ ١٩١٤

شاه ، لأنها كانت أقرب نساء الملك الصالح إليه ، وأم ولده الخليل ، وفوق ذلك ، ما تمتاز به من حكمة وتعقل تفوق فيها أعظم الرجال .

وتنصب شجرة الدر ملكة على مصر في احتفال بهيج . وتكون بذلك أول ملكة للمسلمين .

بعد أن يتم تنصيب شجرة الدر ملكة للمسلمين في مصر . تبدأ الأحداث في اتخاذ صفة التعقيد . إذ كان لشجرة الدر مغنية جميلة الصوت وبارعة الجمال اسمها شوكار . تستأنس بها سيدتها وتحبها .
وكانت شجرة الدر قد عرفت في ركن الدين بيبرس روح الشجاعة والولاء ، فأحبت استبقاءه على هذا الولاء لها . فقربته إليها ، بأن وعدته بالزواج من أحب الناس إليها ، وهي المغنية شوكار . وتم التعارف بين ركن الدين وبين شوكار . وربطت المودة بين قلبيهما .

وكان في قصر الملك الصالح جارية هي القيِّمة على قصره اسمها سلافه . وكانت سلافة هذه كردية . لم ينجب منها الملك الصالح ولدا . لذلك لم تكن لها نفس منزلة شجرة الدر في نفسه . ولهذا السبب كانت سلافه تكره شجرة الدر ، وتحقد عليها . وقد ساءها جدا أن تنصب شجرة الدر ملكة للمسلمين . وأحست بنار الغيرة تشتعل في نفسها . وشعرت بأن هذه النار لن يطفئها إلا تجريد شجرة الدر من منصبها . ومنذ ذلك اليوم وهي تفكر وتدبر الحيل للوصول إلى هدفها .

في هذا اليوم ، يظهر سحبان وهو تاجر أقمشه وملابس وحلي . وكان سحبان هذا ، رجلا غامضا . وهو شيعي بغدادي . ولكنه لا يحلو له العيش في بغداد لاضطهاد العباسيين لطائفة الشيعة وتعذيبهم لهم . لذا اتخذ التجارة بين مصر وبغداد سبيلا للحياة . هذا ما أخبر به سلافه ، عندما رآها . وكان هذا التاجر الغامض يتردد على قصر الملك الصالح في حياته . ويعرض مالديه من بضائع على نسائه . وقد عرف سلافه . وتعلق قلبه بها . وعندما علمت سلافة بخبر تردده على بغداد استأنست وأحست أنها وصلت إلى بغيتها ، فأظهرت لسحبان هذا ، اهتمامها به ، وميلها إليه ، وعاطفتها نحوه لتكسب وده . ثم طلبت منه أن يخدمها في نقل رسالة هامة إلى قيِّمة قصر الخليفة المستعصم بالله

- وكانت لها عليها دالة . وقد أوحت إلى سحبان أن جواب الرسالة لن يأتي إلا بخلع شجرة الدر .

أما سحبان فطار بالرسالة إلى بغداد وأوصلها كما طلبت منه . وتستمر سلافه في نصب شباكها للايقاع بشجرة الدر . فتذهب إلى عزالدين آيبك وتظهر له غمها ، وعدم رغبتها في الإقامة في قصر الملك ، الذي أصبح امرأة ، تكره أن تخضع لها . ثم تكيد له وتظهر له عاطفة . مما يجعل عزالدين يميل إليها ، ويطلب منها الإقامة في أحد قصوره . ويهمل شجرة الدر ويهجرها ، خاصة وقد كانت سلافه تحرضه عليها ، وتظهر له أنه أحق منها بهذه السلطة ، وأنه كان من الأصلح له ، لو أنه أصر على تنصيب موسى بن صلاح الدين بن صالح الكامل - وهو طفل لا يتعدى الثامنه - ويكون هو وصيا عليه فتكون له السلطة . بهذه الأقوال استطاعت سلافه إيقاظ طموحات عزالدين آيبك ، وتحريضه على شجرة الدر التي كانت تشعر بتغير عزالدين نحوها .

عقب ثلاثة أشهر ، يأتي رسول الخليفة بخلع شجرة الدر - كما ذكرت قبل ذلك سلافه - وتنصيب الأمير موسى سلطانا على مصر على أن يكون عزالدين آيبك التركماني وصيا عليه . فيزداد عزالدين ايبك تقديرا لسلافه واهتماما بها ، لأنه عرف أنها هى السبب في ذلك . ولكن الرسول جاء بأمر آخر وهو : إحضار شوكار مغنية شجرة الدر إلى الخليفة لأنه سمع عن حسن غنائها . وكان ذلك أيضا بتحريض من سلافه عن طريق قيّمة قصر الخليفة التي لها دالة على الخليفه . وبتنفيذ هذا الأمر تكون سلافه قد أطفأت شيئا من حقدها على شجرة الدر إذ تحرمها من أحب الناس إليها كما حرمتها من عزالدين آيبك والسلطه .

وجاء عزالدين آيبك - بالحاح من سلافه - إلى شجرة الدر عقب خلعها ، وطلب إليها تنفيذ أمر الخليفة . وذهبت شوكار رغم إرادتها إلى بغداد . وكان تجريد شجرة الدر من السلطة ومن مغنيتها شوكار وإهمال عزالدين لها سببا فى إثارة حقدها وكرهها على الخليفة العباسي المستعصم بالله وعلى عزالدين .

وعندما علم ركن الدين بيبرس بخبر تغير السلطة عاد من دمياط

مسرعا - ليقف على الأمور بنفسه[أ] . خاصة وهو يجد في نفسه طموحا نحو السلطة أيضا . وعلم بخبر خطيبته شوكار . وكانت شجرة الدر تحاول أن توغر صدره ضد الخليفة . وضد عزالدين أيبك . وتزرع في نفسه الأمل في استحقاقه للسلطة في مصر أكثر من عزالدين . ولكن ركن الدين كان عاقلا حكيما غير متسرع في تقدير الأمور .

وهنا نشاهد سحبان للمرة الثانية . نشاهده عند شجرة الدر . حيث جاء هذه المره في صفها ، انتقاما من سلافه التي خانته واستغلت عاطفته بمكرها ودهائها . وكانت شجرة الدر قد أدخلت سحبان ليقف أمام ركن الدين ، ويخبره بما يجرى في بغداد . وما حل بها من ضعف بسبب انغماس الخليفة في اللهو وغير ذلك من أمور الدنيا . تريد بذلك أن توغر صدره ضد الخليفة وهي تعلم أنه قائد باسل قوي . ولكنه - كما أشرنا سابقا - كان عاقلا ولا يقيس الأمور بظواهرها .

خرج ركن الدين بيبرس من عند شجرة الدر ، يريد مقصورته للراحه . ولكنه كان قلقا متوترا . فخرج من مقصورته ليلا وهو مشغول البال . وسمع - بطريق الصدفه - حديثا جرى بين سحبان وأحد أصدقائه ، يطلعه على المؤامرات التي دبرتها سلافه من أجل الانتقام من شجرة الدر . ومنها تحريض قيِّمة قصر الخليفة في بغداد ، الخليفة باستقدام شوكار المغنية . وبذلك عرف سرا من الأسرار سيوصله إلى خطيبته . فقرر استغلال سحبان لانقاذ شوكار .

وكان سحبان داهية . مازال يحرض شجرة الدر ، وركن الدين ، ضد الخليفة ويشجعهما على إعادة مجد الفاطميين . ولكن ركن الدين لم يكن ساذجا ، لتؤثر فيه مثل هذه الأقوال . وعندما علم بسر سلافه ، أراد ركن الدين أن يستغل سحبان لإنقاذ شوكار . ففي صباح اليوم التالي أظهر ركن الدين ، اهتماما بما قاله سحبان ، ليدفعه لمساعدته . ثم طلب منه السفر إلى بغداد من أجل تتبع أخبار شوكار والاطمئنان عليها . فحسب سحبان أن ركن الدين يوافقه أفكاره . وسافر إلى بغداد لخدمة ركن الدين إلى أن يأتي الأخير بنفسه .

(أ) إذ كانت شجرة الدر قد أرسلته على رأس فرقة لصد هجوم الصليبيين على دمياط .

ظل ركن الدين يتردد على شجرة الدر أملا في تعزيتها في مصابها ، وظلت هي تحرضه على الخليفة وعلى عزالدين . وفي هذه الفترة ترسل سلافه رسولا إلى ركن الدين تطلب رؤيته . ويذهب ركن الدين ليعرف سر هذه المرأة وكان قد عرف بمكرها ودهائها . وهناك تخبره سلافة بحبها له ، وميلها إليه . وإنها فعلت ما فعلته من أجل أن يكون لها . أما استئثارها بعزالدين ومساعدتها له فكان من أجل الانتقام من شجرة الدر لاغير . ولكن ركن الدين لم يعبأ لها ولا بأقوالها المعسولة تجاهه . وقد زاده اعترافها بما فعلته مع شوكار تعلقا بالأخيرة . وخرج من عندها وهو حاقد عليها بدلا من أن يبادلها العاطفة . ولكن موقف ركن الدين لم يغير من عاطفة سلافه نحوه كثيرا إنما ظل لديها أمل في استدراجه إلى وكرها من جديد .

وكان ركن الدين عند شجرة الدر عندما ورد خطاب يحمله عبد اسمه عابد البصري ، من شوكار تخبر فيه ركن الدين بأنها قد اختطفت أثناء سفرها إلى قصر الخليفة في بغداد ، ولا تدري عن مختطفها شيئا ولا تعرف اسمه . وأخبرته في الخطاب ، أنها على حبها له لم تتغير . أما ركن الدين فقد ثارت حميته ، وقرر السفر إلى بغداد لإنقاذها . وأرسل مع رسولها خطابا يطمئنها فيه ويعلمها باهتمامه بها .

إلى هنا تنتهي صلتنا بمصر . وينتهي دور شجرة الدر . ويبدأ دور بغداد ، والخليفة المستعصم بالله . ومن هنا تأخذ الأحداث في الصعود نحو القمة .

ونلتقي بسحبان للمرة الثالثة في دار مؤيد الدين ابن العلقمي وزير الخليفة . إنه صديقه ومن شيعته . ويدور الحديث عن استهتار الخليفة وانغماسه في اللهو ، والظلم الواقع على الشيعه وخاصة في الكرخ والكاظمية ثم مايلبث أن يعلو الضجيج في الخارج ، وداخل قصر ابن العلقمي . ويكون ذلك بسبب عويل وبكاء أسرة سحبان التي تعرضت مع غيرها من الأسر في الكرخ للسلب والنهب والقتل ، من قبل جند الخليفة .
وكان سبب هذه الأحداث : أن أحمد (أبوبكر) ابن أمير المؤمنين ، قد هربت من قصره جارية ، خبأها أحد الشيعة في منزله بالكرخ . فأرسل أبوبكر جندا باسم الخليفة ، فتشوا البيوت ولما لم يجدوا الجارية ،

سلبوا ونهبوا وارتكبوا المحرمات . وقد سمع ابن العلقمي ذلك فخرج من فوره إلى الخليفة ، وأنبأه بما حدث لأهل الكرخ الشيعة .

أما الخليفة فلم يفعل شيئا يشفي الغليل حتى بعد أن عرف أن المصيبة التي حلت بأهل الكرخ كانت بسبب ابنه . وفي الوقت نفسه ألح على ابن العلقمي في البحث عن شوكار ، المغنية التي أرسلتها شجرة الدر ولم تصل إلى ذلك الوقت .

وخرج ابن العلقمي وهو مكدر مغموم للحال التي وصلت إليها بغداد ، وكان سحبان لايمل من إشارة ابن العلقمي ضد الخليفة من أجل تكوين خلافة فاطمية تعيد العدل إلى نصابه . ولكن ابن العلقمي كان حكيما عاقلا غير متسرع . وعندما عاد ابن العلقمي إلى قصره وجد فيه سحبان ومعه امرأة ، عرف بعد ذلك أنها شوكار التي خبأها عابد البصري في أحد البيوت بالكرخ . وقص سحبان قصة شوكار ، وأنها هي المغنية التي أرادها الخليفة ، وهي الجارية نفسها ، التي يبحث عنها ابنه أحمد (أبوبكر) بعد ذلك أخرج سحبان شوكار وخبأها في أحد بيوت أقاربه بالكاظميه . هذا بعد أن علم ابن العلقمي بتفاصيل قصتها .

في اليوم نفسه يلتقي ابن العلقمي بدرويش،وهو في طريقه إلى مقره عقب أدائه الصلاه . ويعترض الدرويش طريق ابن العلقمي ويخبره بمصير الدولة العباسنية إذا استمرت على حالها هذا . ويطلب منه أن يضع يده في يد هولاكو التتري ليخلص بغداد مما هي فيه من وضع سيء . وهو بهذا العمل يضمن حياته وحياة أهله . ثم تركه بعد أن أعطاه كتابا طلب منه أن يفتحه عقب خروجه . ولما فتحه ابن العلقمي . عرف أن الدرويش الذي كان يحدثه ماهو إلا هولاكو التتري نفسه . وكان هولاكو قد راسل ابن العلقمي للسبب نفسه - قبلا - ولكن ابن العلقمي لايعيره أهمية . أما هذه المرة ، وبعد أن آلمه ماشاهده من استهتار الخليفة وابنه ، وحرص هولاكو وحذره ، ازداد احتقارا للخليفة وميلا إلى هولاكو . ولكنه لم يكن قد ثبت على رأي بعد .

وكان سحبان كثير التردد على ابن العلقمي لأنه من شيعته . وكان الأخير قد أطلعه على خبر هولاكو . فوقع هذا الخبر على نفس سحبان موقعا حسنا . ولكن ابن العلقمي اقترح خلع الخليفة المستعصم بالله ،

وتنصيب عمه الملقب بالإمام الظاهر ، والمسجون في قصر الفردوس بأمر المستعصم بالله ، لتقواه وعدله . فوافق سحبان على هذا الرأي .

وفي اليوم التالي يأتي سحبان برفقة رجل ملثم إلى قصر ابن العلقمي ويندهش ابن العلقمي حين يميط الرجل اللثام ليظهر أنه الإمام الظاهر ، أحضره سحبان لأخذ موافقته على تنصيبه خليفة للمسلمين إذا خلع المستعصم بالله . ثم يعيده إلى سجنه بمساعدة أحد كبار الحراس . ويكون خروج الإمام الظاهر سببا في نقلة إلى سجن آخر بالقرب من قصر كلواذي .

ولسوء حظ ابن العلقمي يختفي الكتاب الذي أعطاه إياه هولاكو . ويقع في يد أحمد (أبوبكر) ابن أمير المؤمنين وهو فتى طائش يكره ابن العلقمي أشد الكره . وكان اختفاء الكتاب سببا في إثارة رغبة ابن العلقمي في مساعدة هولاكو لدخول بغداد . وتستمر الأحداث في تشابكها وتعقيدها تمهيدا للوصول إلى الذروة .

وفي اليوم التالي يستدعي الخليفة ابن العلقمي . ويريه خطابا جاء من هولاكو يهدده فيه بالغزو ، إذا لم يرسل وزيره أو قائد جنده أو يأتي بنفسه للاعتذار . وكان هولاكو قد أرسل إلى المستعصم بالله من قبل يستنجده على الاسماعيلية فلم ينجده . فبعث إليه يعاتبه . ولكن المستعصم بالله لم يجبه إجابة شافية ، إنما أرسل إليه هدية ليست من مقامه . ولم يرسل له رسولا ذا مكانة يخفف من غضبه . وكان هذا التصرف سببا في إثارة هولاكو .

وفي هذا المجلس أخذ أحمد (أبوبكر) يلمح بالعلاقة التي بين ابن العلقمي وبين هولاكو . ثم أظهر الكتاب الذي سرق من ابن العلقمي ، ليكيد له . وليوغر صدر والده عليه . وبعد ذلك لمح لوالده بعلم ابن العلقمي بالجارية التي اختطفت ومعرفة مقرها . وكان قد عرف هو مقرها فجلبها إلى مقره بواسطة جنده ، وإنما أراد بهذه الأخبار أن يوغر صدر والده على الوزير ، وحصل ما أراد .

وكان تطاول ابن أمير المؤمنين سببا قويا في إثارة حقد ابن العلقمي وغضبه فقرر في نفسه أن يجيب طلب هولاكو ولكن بعد أن يكشف سر هذا الشاب العاق . إذ كان يعرف أن الجارية هي نفسها المغنية التي يطلبها الخليفة .

فطلب من الخليفة أن يرسل في طلب الجارية . وجاءت الجارية بأمر الخليفة دون علم ابنه . وعرف الخليفة قصة شوكار . ونقلها إلى قصره (قصر التاج) بعد أن ثار على ابنه وغضب منه . ويرسل ابن العلقمي برسالة إلى هولاكو .

وفي قصر التاج تتعرف شوكار على سلافه التي قدمت من مصر لتقيم في بغداد ولتتابع أمر ركن الدين الذي سمعت بقدومه . وكادت سلافه لشوكار وأخرجتها بحيلة من قصر التاج إلى قصرها بالقرب من قصر كلواذي . وفي الطريق أوعزت إلى النوتية بإغراقها بعد قص شعرها دليلا على موتها . وجاء النوتية بشعر شوكار بعد أن أخبروا سلافة بغرقها .

وعندما جاء ركن الدين إلى بغداد يبحث عن شوكار . عرف بأمر نقلها من قصر التاج إلى مكان مجهول . وعرف كذلك بقدوم التتر بقيادة هولاكو لتدمير بغداد . وتستدعيه سلافة إلى مقرها . وهناك تحاول أن تبث فيه طموحات للوصول إلى السلطة في مصر . وتخبره برغبة استاذ الدار بأن يتولى[1] قيادة الجند لصد هجمات المغول . وتخبره بموت شوكار . ويوافق الخليفة على تعيينه قائدا للجند . ويأتي ابن العلقمي الذي بعثه الخليفة إلى هولاكو للتفاوض معه ـ ويخبر الخليفة أن هولاكو لن يبرح مكانه إلا إذا أتى الخليفة بنفسه إليه معتذرا . لم يجد الخليفة جدوى من المماطلة . ووافق ـ على مضض ـ على الذهاب إلى هولاكو . بعد أن اقتنع بإقامة فسطاط بالقرب من قصر كلواذي يجمع فيه آل العباس ويقابل فيه هولاكو . وذلك ليقينه بعدم قدرة جنوده على الوقوف ضد جنود هولاكو . ويبدأ خط الأحداث في الانحدار نحو النهاية .

عاد ركن الدين ـ مرة أخرى ـ إلى سلافه يسألها عن شوكار . فاعترفت صراحة بما فعلته لقتلها . فقتلها ونزل من القصر . بعد أن عرف عابد البصري من أحد خدم سلافه ، من أن شوكار مازالت على قيد الحياه .

وجاء ركن الدين إلى قصر كلواذي لمقابلة الإمام الظاهر ، فوجد عنده سحبان . وكان سحبان ـ يحاول أن يقنع الإمام الظاهر للخروج مع بقية آل العباس إلى الفسطاط ، لعلمه بهدف هولاكو : وهو التخلص من آل العباس جميعا . وبذا يستفيد في إعادة الخلافة إلى الفاطميين ـ كما يزعم .

---

(١) ركن الدين

ولكن هذا الأمر لايوافق هوى ركن الدين بيبرس ، لذا نجده يعترض على ذلك ، لمعرفته بهدف هولاكو . الأمر الذي أوغر صدر سحبان عليه .

استطاع ركن الدين أن ينقذ الإمام أحمد الظاهر من الموت ، بعد أن كشف له هدف هولاكو وسر سحبان . واقترح عليه التخفي ، وعدم الظهور إلا عند الحاجة فى مصر لاسترداد مجد العباسيين هناك . وافق الظاهر ووعده بتوليته سلطانا على مصر لو تم له ما أراد ، وهذا مايريده ركن الدين .

وقد اعتبر الظاهر مافعله ركن الدين معه من خير ، ردا على خير فعله في فتاة أنقذها من الغرق ليلة انتقاله إلى سجن كلواذي . وعرف ركن الدين من القرائن ، أن تلك الفتاة ماهي إلا شوكار خطيبته . ولكن الظاهر بعثها إلى سحبان بناء على طلبها ، إذ لم يكن يعرف قصتها مع ركن الدين .

وبعد قليل جاء سحبان ومعه جنود من التتر من أجل أخذ الإمام الظاهر غصبا . ولكن ركن الدين رفض تسليمه لهم . فهدده سحبان بشوكار التي لجأت إليه . ولكن عابدا أنقذ الموقف حين أبلغ ركن الدين ، أن شوكار معه . عندها أخرج ركن الدين راية كان هولاكو قد بعثها مع عدد آخر ، إلى ابن العلقمي ، يعلقها على داره ودور أهله للحفاظ على حياتهم إذا هجم التتر على بغداد . وكان ابن العلقمي قد سلم ركن الدين واحدة منها يستخدمها عند الحاجة . وما أن رأى التتر الراية حتى انسحبوا جميعا ـ وانسحب معهم سحبان خائبا من قصر كلواذي .

والتجأ الإمام الظاهر بعد ذلك إلى إحدى القبائل العربية ، بينما ذهب ركن الدين إلى مصر واحتفل بزواجه من شوكار . وفي تلك الفترة ثار المصريون على نورالدين ابن عزالدين ايبك الذي تولى السلطنه عقب وفاة والده ، وقتلوه[1] . وتولى بعده سيف الدين قطز الذي حارب الصليبيين وانتصر عليهم . وفي سنة ٦٥٨هـ قتل قطز على يد ركن الدين . وتولى ركن الدين السلطة في مصر وتحقق حلمه ، فأرسل إلى الإمام أحمد الظاهر، ولقبه بالمستنصر بالله ، ونصبه خليفة وأصبح مقر الخلافة في مصر

---

(١) بعد أن قتل هو شجرة الدر بتحريض من سلافه أيضا . إذ كانت شجرة الدر هي التي قتلت والده قبل ذلك .

بدلا من بغداد .

تلك كانت حبكة رواية زيدان المسماه (شجرة الدر) . وقد لاحظنا أن أحداثها تنقسم إلى قسمين : قسم وقع في مصر والآخر في بغداد . أما الرابط بين البلدتين فكان سحبان الشيعي البغدادي ، وشوكار ثم ركن الدين . وكان هؤلاء الثلاثة من أكثر الشخصيات حضورا في الرواية . وكان الأولى تسمية هذه الرواية باسم (ركن الدين بيبرس)لأنه أقوى شخصية في الرواية وأهمها ، فحضوره مازال قائما منذ البداية ، حيث أعلن مشاركته في تخليص مصر من طوران شاه إلى النهاية حيث ساعد في إنقاذ الإمام أحمد الظاهر الذي لقبه بعدئذ بالمستنصر بالله ونصبه خليفةً عباسيا ، مقر خلافته مصر .

أما سحبان فتأتي أهميته بالدرجة الثانية ، لأنه كان همزة الوصل بين البلدتين ، فكان هو السبيل إلى كشف كثير من الأسرار في مصر ، إضافة إلى ذلك بواسطته استطعنا التعرف على كثير من الشخصيات المهمة من الناحية التاريخية .

أما شوكار فكانت هي الطرف الثاني في القصة العاطفية التي تعد حجر أساس في روايات زيدان . وكانت هي الطعم الذي جر ركن الدين إلى بغداد .

وماذا عن شجرة الدر؟ ولماذا سميت هذه الرواية بشجرة الدر ؟ لم يكن لشجرة الدر دور يذكر في الرواية . اللهم إلا نقل الحقيقة التاريخية القائلة بشجاعة وتعقل وحكمة هذه المرأة التي خبأت خبر موت زوجها من أجل حرصها على تماسك الجنود أمام الصليبيين .

ولكن لماذا سميت هذه الرواية باسمها؟! الاجابة على هذا السؤال واضحة من خلال الأحداث . فالمؤلف يود أن يشير إلى حدث تاريخي مهم في الاسلام وهو : تولية أول ملكة للمسلمين وهي شجرة الدر ، وأسبابها .

والمؤلف في روايته ، يتعرض مرة أخرى لموضوع في تاريخ المسلمين وهو سقوط الدولة العباسية على يد هولاكو التتري وأسباب هذا الانهيار!! إنه يتعرض لمرحلة من مراحل الخلافة الإسلامية ضعف فيها أمر الخليفة وحكومته إلى الدرجة التي يتآمر فيها شعبه عليه ، ويتعاونون

مع الغرباء ضده .

توزعت الأحداث بين مصر وبغداد لتشير إلى أن العالم الاسلامي في ذلك الوقت أصبح عرضة لكثير من الهجمات . فالصليبيون يضربون مصر ، ويقف المماليك ضدهم بقوة . والتتر يتربصون ببغداد ولا أحد يهتم بهم ولا يقف أمامهم لانشغال الخليفة بأمور الدنيا . فهل هناك ضعف أشد من هذا ؟!! .

وبانتقال الأحداث من مصر إلى بغداد ، يضع المؤلف أمام القارئ صورتين من صور المسلمين . فالمماليك في مصر ومنهم شجرة الدر المرأة التي تعتبر أضعف من الرجل في كل الأحوال ، تقف صلبة قوية ضد الصليبيين تدافع عن مصر والإسلام . وتخبيء خبر موت زوجها الملك الصالح حتى لا تضعف من همة الجنود وقوتهم .

والعباسيون في بغداد يعرفون بتربص هولاكو بهم ورغبته في الهجوم على بغداد وتدميرها ، ولكنهم لا يعبأون . منغمسون في اللهو والملذات وشهوات الدنيا . ويضيعون مجد آبائهم وقوتهم أمام هجمات التتر التي تلتهم في شراهة وغضب .

وإذا أمعنا النظر في أهداف القواد سواء من المماليك مثل عزالدين وركن الدين ، أو العرب سواء سحبان أو الإمام الظاهر ... وجدنا أنها أهداف دنيوية يحاول بها هؤلاء القواد والأمراء الوصول إلى السلطه ، وتجريدها من أيدي غيرهم ! .

أما القصة العاطفية التي نسجها المؤلف - فهي قصة مهلهلة . تلعب الصدفة دورا كبيرا في دفع أحداثها . فيعرف ركن الدين - بالصدفة - خبر تدبير سلافة في إرسال شوكار إلى بغداد . ويعرف بالصدفة خبر نجاتها على يد الإمام أحمد الظاهر ... وتنتقل شوكار من مشكلة إلى أخرى ومن عقبة إلى أشد منها لخلق نوع من الإثارة في الأحداث . وهي إثارة مفتعلة غير مقنعة .

والراوي في الرواية هو المؤلف نفسه العالم بكل الخفايا ، وكل الأحداث . والنهاية هي النهاية التقليدية . زواج شوكار من ركن الدين . وموت سلافة على يد ركن الدين . وسقوط الخلافة العباسية بسبب ضعفها . وتولي ركن الدين السلطة في مصر بسبب شجاعته . وعودة سحبان خائبا

بسبب أطماعه غير المحدودة .

٣ ـ الشخصيات :

سبق أن ذكرنا أن هذه الرواية بالرغم من تسميتها بـ (شجرة الدر) إلا أن شجرة الدر لا تعتبر الشخصية الرئيسة فيها . بل تعتبر من الشخصيات الثانوية .

وقد اخترنا من الشخصيات للدراسة تلك التي شعرنا بأهميتها ، فكانت أهم شخصية في العمل الروائي ـ كما ظهر لنا ـ شخصية ركن الدين بيبرس ، تليه في الأهمية شوكار وتليها شخصية سحبان . فحول هذه الشخصيات الثلاث تدور معظم أحداث الرواية ، لذا سنقوم بدراستها بالتفصيل .

ركن الدين بيبرس

"شاب جميل الخلقه صبوح الوجه عليه هيبة الشيوخ ونضارة الشباب لم يتجاوز عمره يومئذ ٢٣ سنة"(١) هكذا وصفه المؤلف . حين قدم إلى مصر ، بعد أن تم القضاء على طوران شاه ، وقابل شجرة الدر لإعلانها بهذا النبأ . إنه أحد القواد البواسل الذين ساهموا مساهمة كبيرة فى رد هجمات الصليبيين على مصر . وكان أحد الذين ساهموا في القضاء على طوران شاه (الملك المعظم) لتطاوله على المماليك البحرية والتقليل من شأنهم وهم الذين أبلوا ذلك البلاء في المحافظة على مصر من ضربات الصليبيين:

"لم تخبرني عن القواد الأبطال الذين فتكوا بالملك المعظم
هل أنت منهم؟
قال : نعم إني أصغرهم شأناً . وقد فعلت ذلك بأمر
الأمير عزالدين"(٢) .

هكذا بدا ركن الدين لأول وهلة . ذلك القائد الباسل شديد الولاء لقومه ولبلده ولجنسه . هذه الهمة دفعت شجرة الدر إلى الاهتمام به وتقريبه

---

(١) جرجي زيدان ، شجرة الدر ، ص ١١

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣

عندما تأكدت من تحول السلطة إليها . فهي تبحث عن مثل هذا الولاء والوفاء وستحتاجهما في إدارة مملكتها الجديدة . ولم تر أحسن من إكرامه بهدية لاتقدر بثمن . فقدمت له أحب الناس إليها وهي شوكار مغنيتها ، لتكون زوجة له . وكانت بارعة الجمال ، جميلة الصوت . وسر ركن الدين بهذه الهدية القيمة . وقدر لشجرة الدر أهتمامها به .

"قد أنبأني عزالدين ببلائك ، وأنا طالما توسمت فيك البسالة والاقدام ، وسيكون لك شأن عظيم"(٣) .

هذا ماتنبأت به شجرة الدر لركن الدين . سيكون له شأن عظيم !! وستكشف بقية الأحداث عن هذه النبوءة ! .

وتكلفه شجرة الدر بمهمة عظيمة هي قيادة الجند للدفاع عن دمياط ضد هجمات الصليبيين . ويذهب ركن الدين مسرورا بهذه المهمة . وفي غيابه تخلع شجرة الدر وينصب موسى بن صلاح الدين سلطانا لمصر ، ويكون عزالدين أيبك التركماني وصيا عليه والقابض على زمام الأمور !! هنا يستيقظ شيء فى نفس ركن الدين ، اسمه الطموح إلى السلطة ، فهو ليس أقل شأنا من عزالدين ، ولم يكن أقل شأنا من شجرة الدر نفسها .

"وهو يرى نفسه أهلا لأكبر المناصب . فانه كبير مطاع عالي الهمة ، والدولة في اضطراب"(٢).

وكانت هذه المقدمات التي وضعها المؤلف في وصف الشخصية بمثابة تمهيد لما سيحدث مستقبلا . فالاضطراب يزيد في مصر وغيرها من مناطق العالم الإسلامي . و الضعف ينخر في جسم الدولة الاسلامية . والأعداء يتربصون من كل جانب . وهو قائد عظيم شجاع لايهاب الموت ولا يخاف الأعداء وحري به أن يتقلد السلطة . فهو أجدر إنسان بها . هذه هى الفكرة التي أخذت تترسخ في ذهنه كلما توغلت الأحداث نحو النهاية .

"ولكنه كان رابط الجأش واسع الصدر حريصا على سره "(٣).

نعم وهذه هي الصفات التي أوصلته إلى بغيته . لقد تعامل مع جميع الأحداث بالحكمة والتعقل والكتمان . لايستخف بالأمور ولا يستهين بها

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٣

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٧

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٢

مهما كانت صغيرة • ولا تزعزعه الأحداث مهما كانت كبيرة •

وتخبره شجرة الدر بخبر أخذ شوكار خطيبته منها إلى الخليفة في بغداد • وتحاول أن توغر صدره ضد الخليفة وضد عزالدين ايبك • أما هو فظل كما كان رابط الجأش حكيما • وتثور حميته عندما يصله خطاب من شوكار ، تطلب منه النجده ، وتخبره ببقائها على وداده • ولكن هل يندفع نحو إنقاذها كما يندفع العاطفيون ؟ لقد تعامل مع هذا الحدث بعقل وحكمه • فاستغل سحبان لخدمته في البحث عن خطيبته بعد أن عرف سر سلافه معها • ويلتقي بسلافه • وتبثه غرامها • وتخبره بمكيدتها ضد شجرة الدر وضد شوكار • ولم يعبأ ركن الدين بكل هذا ، إنما يهمه هو كيف يستغل هذه المرأة للوصول إلى السلطه • ويترك مصر • وتنتقل الأحداث إلى بغداد • وينتقل معها ركن الدين ، ليبحث عن شوكار خطيبته ويقف بنفسه على وضع بغداد ، وتدهور الأحوال فيها ، وانقسام الناس وسخطهم على الخليفة وابنه ، وخاصة الشيعة •

> فتحقق ركن الدين أن حماسته للعباسيين لا تجدي نفعا ، ولم يبق له من هم الا أن يعثر على شوكار ويخرج بها من بغداد ، ويرجع إلى إمارته ويسعى في نيل السلطنة في مصر (١) •

نعم أصبح هذا همه • وبدأ بحثه عن شوكار التي كانت تتعرض لمصاعب شتى ، وعقبات كثيرة مثيرة • تدبرها تارة سلافة وتارة أحمد (أبوبكر) ابن الخليفة • وفي أثناء ذلك يعرف بوجود الإمام أحمد الظاهر في سجن قصر كلواذي ، وأنه هو العباسي المرشح للخلافة عقب خلع المستعصم بالله ، فيعود إليه طموحه في السلطة ، وفي نقل الخلافة العباسية السنية إلى مصر بدلا من إعادة الخلافة الفاطمية الشيعية إليها • وينقذ الإمام الظاهر من مكيده دبرها سحبان للقضاء على جذور آل العباس. وساعده على الهرب والالتجاء إلى إحدى القبائل العربية • وكان قد وجد شوكار بعد طول بحث • وسافر معها إلى مصر ، وتزوجها • وكان على اتصال بالإمام الظاهر المتخفي • وطموح السلطة في مصر مازال يداعبه •

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٣٢

> وخطر له بعد ماشاهده من اضطراب أحوال بغداد ومايحدق بها من الخطر ، أن ينقل الخلافة فيها إلى مصر فتصير تلك الأهمية إلى مصر بدلا من بغداد وتصير القاهرة مركز العالم الاسلامي لا يستغني عنها أمير أو سلطان .[1]

وهذا ماتحقق في آخر الرواية ، فبعد إنقاذ الإمام أحمد الظاهر من موت محقق . وبعد أن سهل له الأمر في أن يكون خليفة على المسلمين في مصر واقتنع به ، يقول الإمام الظاهر لركن الدين :

> إذا شاء الله سبحانه وتعالى أن يحدث ماتقوله وتصير الخلافة إلي فالسلطنة في مصر لاينالها سوى الأمير ركن الدين بيبرس .[2]

والسؤال - هل تحقق فعلا حلم ركن الدين كما مهد لذلك المؤلف ؟ نعم تحقق حلم ركن الدين . وظل الإمام أحمد مختبئا عند إحدى القبائل العربية . وعين سيف الدين قطز سلطانا على مصر ولكنه لم يستمر طويلا في الحكم حيث :

> "اغتنم ركن الدين فرصة في أثناء رجوعهم[3] وقتل قطز وكان قد تواطأ مع رفاقه الأمراء ورضوا أن يتولى هو مكانه . فنادوا به سلطانا على مصر سنة ٦٥٨هـ ، ولقب بالملك الظاهر . وحالما استقر له الأمر بعث في استقدام الأمير أحمد فجاءه في السنة التالية ، فبايعه خليفة ولقبه بالمستنصر بالله وصارت الخلافه العباسية بمصر منذ ذلك الحين .[4]

شوكار

هي الشخصية التي تلي ركن الدين بيبرس في الأهمية ، والسبب أنه عن

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٣٦

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥٩

(٣) وكانوا عائدين عقب انتصارهم على المغول في معركة عين جالوت .

(٤) جرجي زيدان ، شجرة الدر ، ص ١٦٥

طريقها استطعنا معرفة كثير من الشخصيات معرفة جيدة ، مثل شخصية شجرة الدر ، التي كانت تحبها وتفاتحها بأسرارها ، وسلافه التى كانت تكرهها وتود التخلص منها ، ليخلص لها ركن الدين ، وتنتقم من شجرة الدر ، والخليفة المستعصم بالله الذي كان مغرما بالتفتيش عن البارعات من المغنيات ، وأحمد بن الخليفة الذي كان يعصي والده لأسباب دنيوية وسحبان الطامع في السلطة ، والكاره للخلافة العباسية • فعن طريق ماحدث لشخصية شوكار استطعنا أن نكون صورة عن الحال في مصر والحال في بغداد معا •

لقد وهبك الله كل ما تتطلبه الغانيات من الجمال والذكاء ورخامة الصوت ولطف العشرة • وأنت في مقتبل العمر (1) •

هذه هي الصفات التى وصفتها بها شجرة الدر • إن شجرة الدر تحب شوكار لتلك الخصال • وتقربها إليها ، وتشعر معها بالراحة فتعاملها معاملة الابنه • وقد وضع المؤلف التنبوء بتقليد شجرة الدر منصب الملك على لسان شوكار :

وتأملت شوكار في سيدتها وهي جالسة على سرير الملك وضحكت ، فلحظت شجرة الدر ضحكتها وسألتها : مابالك تضحكين ياشوكار؟ قالت إني مسرورة ياسيدتي من جلوسك هنا ، وقد استبشرت به خيرا • إن هذا المجلس لائق بك (2) •

وكان هذا ، قبل أن يأتي عزالدين ببشرى إجماع الأمراء وقواد المماليك على تنصيب شجرة الدر ملكة للمسلمين في مصر •

وكانت شوكار ، فتاة طاهره ، سليمة الطويه ، ليس لها في الناس إلا الظن الحسن • وهي تمثل عنصر الخير في الرواية •

وكان لفرط حب شجرة الدر لمغنيتها ، أن جمعت بينها وركن الدين حين عرّضت له بالزواج منها • وهي تعرف أن ركن الدين من أشجع فرسان المماليك :

فقالت شجرة الدر : •• •• •• نظرت إلى مستقبلك ، فمن

---

(1) المصدر نفسه ، صـ ٤

(2) المصدر نفسه ، صـ ١٠

كانت في مثل ما أنت فيه من الجمال والعلم ورخامة الصوت يجب أن تنال نصيبا حسنا . وأنا على ثقة أن هذا الشاب الباسل من خيرة الشباب وله مستقبل مجيد . فاذا أخطأ ظني فيه ولم يكن الرجل الذي أرضاه لك لا أزوجك به . ولا تخافي إني شديدة الغيرة على مصلحتك لأنك بمنزله ولدي .(١)

وتعلم سلافه ـ كما يعلم غيرها ـ بهذا الرباط القوي الذي يربط بين شجرة الدر ومغنيتها . وتعلم ـ كذلك ـ بما حصل من خطبة ركن الدين لهذه المغنية . وكانت ـ كما أشرنا سابقا ـ مغرمة به . فتدبر المكائد للتخلص من شوكار ليخلو لها جو ركن الدين ولتنتقم من شجرة الدر . وكان ماكان من سفر شوكار إلى بغداد بأمر الخليفة . وبذا تصبح شوكار همزة وصل الأحداث بين مصر وبغداد . فتنتقل الأحداث إلى بغداد . وتكون شوكار سببا مباشرا في تعريف القاريء بالوضع السائد في بغداد . فها هو الخليفة المستعصم بالله ولاهم له سوى اقتناء المغنيات والجواري للاستمتاع بهن . وها هو ابنه أحمد وقد أخذ بطيشه وحماقته وغيه يرتكب الفواحش باسم الخليفة وليس من رادع . وهاهم الشيعة يقاسون ألوان العذاب والاضطهاد في عهد هذا الخليفة . وهاهم الناس وقد انقسموا على الخليفة يريدون خلعه لاستعادة الأمان فيهم . ويتفقون مع عدو غاشم وهو التتري هولاكو . كل هذه الأمور عرفناها بانتقال شوكار إلى بغداد. ولم يكن لشوكار دور مهم في القضية بقدر ماكانت تصادف من عقبات في مناطق متعددة من بغداد وعلى يد شخصيات متعددة في الرواية . فهاهي تختطف على يد جماعة لاتعرف هويتهم . ثم بعد ذلك تكتشف أنهم جماعة من جند الخليفة مكلفين باختطافها بأمر أحمد ابن أمير المؤمنين . وهاهي تهرب من قصر أحمد بمساعدة عابد البصري وتختبيء في الكرخ ويكون اختباؤها سببا في تصوير حالة البؤس الذي يعيشه سكان الكرخ الشيعة في ظل الخليفة المستعصم بالله . وتنتقل إلى الكاظمية ، ثم إلى الخليفة لتلتقي بسلافه فنعرف سر قوة سلافه في قصور الخليفه .

وكان ارتباط هذه الشخصية ، بشخصية ركن الدين من أدعى دواعي

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٥

أهميتها . وكانت هي سبب حضور سحبان وركن الدين إلى بغداد وبالتالي إحالة الأحداث إلى هناك .

وبعد أن كانت على وشك الغرق،ينقذها ـ بطريق الصدفه ـ الإمام الظاهر لتعيش حتى النهاية . وليعثر عليها ركن الدين ويفي بوعده فيأخذها إلى مصر حيث يتزوجان .

سحبان

هذه هي الشخصية الثالثة التي تلي شخصيتي ركن الدين وشوكار في الأهمية ، وهو يمثل الوضع البائس الذي يعانيه الشيعه في بغداد فى عصر المستعصم بالله .

> لا أقيم في بغداد لأني شيعي ، والخلفاء العباسيون يكرهون الشيعة ويطاردونهم ، ولاسيما في بغداد ، فإنه لاتمضي سنه لايقاسون فيها تحديا أو اضطهادا أو نهبا أو قتلا ، ففضلت الرحيل عن ذلك البلد ، وإن كنت في غنى عن حياة التجارة ، ولكنني جعلتها سبيلا للأسفار .(1)

لقد كان سحبان في غنى عن التجارة لأنه من أصحاب المطامع السياسية . فقد جعل من التجارة سبيلا ينتقل بواسطتها بين مصر وبغداد ، يدرس الحالة في كلا البلدين أملا في الحصول على فرصة تمكنه من فعل شيء لإعادة مجد الدولة الفاطمية . ورغبة في أن يكون له نصيب فى مركز مرموق . لهذا السبب كان ينتحل صفة تاجر الأقمشة والحلي الثمينة ليدخل بها بيوت الخلفاء والأمراء ورجال الدولة فيعرف خفايا القصور .

ولما غدرت سلافه بسحبان أراد الانتقام منها ، وتوجه لخدمة شجرة الدر ، لمسايستها . وكانت النتيجة أن كلفه ركن الدين بمتابعة أخبار خطيبته التي أمر الخليفة بإحضارها إلى بغداد . وكان سفر سحبان إلى بغداد هذه المرة طريقا لتعريف القاريء بالوضع الاجتماعي والسياسي في بغداد في عصر المستعصم بالله ، ولتوضيح نوايا سحبان الحقيقية من وراء

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٥

تنقلاته بين مصر وبغداد ، يقول المؤلف على لسانه :

أنا أعلم منك بحالها[١] لأني جئت من هناك أمس
وأنا لا أسافر وأجيء للتجاره ، لكنني أريد حياة
قومي ونصرة الأئمة المظلومين ، أنا في مصر منذ
أعوام ، وقد عرفت دخائلها ، وهي في يدي كما أشاء[٢].

وكان يعتقد ذلك ، لما أظهرته شجرة الدر من تصديقها لأقواله وما تظاهر به - كذلك - ركن الدين من إيمان بأفكاره في إحياء الخلافة الفاطمية في مصر وإقصاء المستعصم بالله عن الخلافة ، وإنهاء الخلافة العباسية ، فهو يقول لابن العلقمي إن :

ساعدناه[٣] على قتل هذا الخليفة وبايعناه سلطانا
على مصر أطاعنا في إعلان الخلافة الفاطمية بمصر ،
فنعود إلى عزنا ونتخلص من هؤلاء الظالمين[٤] .

فإلى أي مدى تنطبق هذه الأقوال على أفعال سحبان ؟!. إن سحبان رجل طموح إلى درجة بعيدة . وهو لايتورع عن فعل المستحيل من أجل الوصول إلى هدفه . ولكنه متسرع في أحكامه ، وفي أقواله ، وفي أفعاله . فها هو يرى حالة الاضطراب في مصر فيتسرع في الحكم على مستقبلها . وهو يتحدث إلى ركن الدين لأول مره فيتسرع في أقواله . ويجري بينه وبين ابن العلقمي كلام حول تنصيب الإمام أحمد الظاهر عقب القضاء على ابن أخيه المستعصم بالله ، فيتسرع ويأتي بالإمام الظاهر إلى دار ابن العلقمي ويكون ذلك سببا في تشديد الحراسة على الإمام أحمد الظاهر ثم نقله إلى سجن آخر .

وهذه الأحداث ماهي الا مقدمات لما سيحدث لسحبان في النهاية من خيبة أمل ، وضياع الأحلام .

بعد أن تأكد سحبان من نية هولاكو في القضاء على آل العباس ، فكر مليا في طموحاته السياسية ، ورأى أن من الأسلم لخطته أن يقضي على جذور

---

(١) مصر

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٠

(٣) ركن الدين بيبرس

(٤) جرجي زيدان ، شجرة الدر ، ص ٨٠

هذه الخلافة . وأن يعلم هولاكو بمقر الإمام الظاهر فيقضي عليه . عندها لن يبقى بديل سوى الخلافة الفاطمية الشيعية ولها أعوان كثر في بغداد فذهب بنفسه مع شرذمة من جند هولاكو إلى سجن الإمام الظاهر[1] وطلب منه القدوم إلى الفسطاط الذي نصب بجانب قصر كلواذي ليضم كافة آل العباس بأمر من هولاكو ليكون مع آله . ولم يذكر له نية هولاكو . وكان الإمام أحمد يثق في سحبان ، فعزم على المضي معه ولكن ركن الدين أدرك الإمام في آخر لحظة قائلا :

لو أن مولاي أطاع سحبان وذهب في الأمر الذي دعي إليه ، لأصبحت بغداد وليس فيها واحد من نسل العباس كرم الله وجهه . .. .. لأن ظاهر الاتفاق بين المستعصم بالله وهولاكو أن يجتمع هذا بالخليفة وأهله للتصافي والصلح ، وأما حقيقته فهي أن يغتنم هذا التتري الفرص ويفتك ببني العباس جميعا . فلما سمع الإمام أحمد ذلك ارتعدت فرائصه وقال : وهل كان سحبان يعرف ذلك؟ قال : نعم فقال : قبح من خائن وبارك الله فيك[2] .

وهكذا أفسد ركن الدين على سحبان خطته ، وضيع عليه آماله . وهرب الإمام أحمد والتجأ إلى إحدى القبائل العربية . وعاد سحبان بعد كل مابذله من جهد بخفي حنين . إذ انتقلت الخلافة العباسية بعد ذلك إلى مصر .

أما بقية شخصيات الرواية . فكلها تدور حول هؤلاء الثلاثة : فشجرة الدر ، منذ أن خلعت وأخذت منها شوكار ، تحرض ركن الدين على ضرورة الانتقام من الخليفة العباسي ، ومن عزالدين وتوقظ فيه طموحات إحراز السلطة في مصر ، وأحقيته بها دون عزالدين .

وسلافة ، أيضا ، تدور حول شخصية ركن الدين وشوكار ، تصنع المكائد وتضع العقبات فتدفع بالأحداث قدما ، ولم يكن لها دور سوى دفع هاتين الشخصيتين إلى الأمام .

---

(١) وكان خالي الذهن من خطة هولاكو ونيته .

(٢) جرجي زيدان ، شجرة الدر ، ص ٥٨ .

أما عزالدين أيبك ، ومؤيد الدين ابن العلقمي ، والخليفة المستعصم بالله وابنه أحمد (أبوبكر) وغيرهم من الشخصيات ، فكلها شخصيات تاريخية لها أدوار ثانوية في الرواية . فهذه الشخصيات تقوم بتقديم أنماط من الصور الاجتماعية والسياسية من الناحية التاريخية تدعم بها العمل الروائي .

٤ - الحقيقة التاريخية ومعالجتها :

(شجرة الدر) هي آخر رواية كتبها جرجي زيدان من رواياته التاريخية وفيها تعرض المؤلف لأحداث تاريخية عديدة أولها : مقتل طوران شاه وثانيها : تولي شجرة الدر السلطه في مصر وتلقيبها بأول ملكة للمسلمين . وثالثها : هجوم التتر على بغداد ، وسقوط الدولة العباسية . ويتخلل هذه الأحداث الرئيسة بعض الوقائع التاريخية التي حدثت في ذلك العصر مثل : هجوم الصليبيين على دمياط - وذكر محاربة التتر لطائفة الاسماعيليه . وأسباب هجومهم على بغداد .

وكما هي عادة زيدان ، فقد قام بربط هذه الأحداث التاريخية الحقيقه بقصة عاطفية مثيرة وهي قصة شوكار مغنية شجرة الدر وركن الدين بيبرس قائد المماليك .

وقد اقتضى وجود القصة العاطفية الخيالية ، وجود شخصيات خيالية من ابداع المؤلف . فانقسمت تبعا لذلك الشخصيات إلى قسمين : القسم الأول الذي يمثل (التاريخ) و (الحقيقة التي وقعت) وهم : شجرة الدر ، ركن الدين بيبرس ، عزالدين ايبك ، المستعصم بالله العباسي ، مؤيد الدين ابن العلقمي ، أحمد (أبوبكر) ابن الخليفة المستعصم . وهولاكو ثم الإمام أحمد الظاهر الذي لقب بالمستنصر بالله .

أما القسم الثاني فهو الشخصيات الخيالية التي ساعدت المؤلف على دفع الأحداث إلى الأمام بالربط بين المتباعدات وتقريب المسافات ، ورتق الشقوق (في الأحداث التاريخية) ، من أجل إبراز العمل الأدبي في صورة متكاملة ذات وحدة موضوعية ، وهذه الشخصيات هي : شوكار ، سحبان ، سلافه ، وعابد البصري ... هذه الشخصيات كانت وسائل اتصال بين أطراف الحدث التاريخي . فشوكار وسحبان كانا حلقتي اتصال بين مصر وبغداد

بواسطتهما ثم نقل القارئ من مصر إلى بغداد ، ليعيش الحدث التاريخي المقصود • أما سلافه فكانت وقودا أشعله المؤلف لانضاج العمل الفني • وقد كان اهتمام المؤلف بالحدث التاريخي وتغليبه أثره الواضح فى الرواية، مما جعل القصة العاطفية الخيالية مهلهلة ، تعتمد على الإثارة والصدفة كثيرا ، بعيدا عن عنصر الاقناع •

وقد جمع المؤلف شخصية شوكار الخيالية بشخصية ركن الدين بيبرس الحقيقية ونسج من هذا الجمع أحداثا قدمت التاريخ في ثوب تحبه نفس القارئ العادي •

وأبدع شخصية سحبان ، لإبراز واقع الوضع العام (الاجتماعي والعسكري والسياسي) في مصر وبغداد •

وبهذا النسيج قدم زيدان التاريخ ، وعرضه في روايته شجرة الدر •

٥ ـ اللغة :

الرواية من ناحية اللغة والأسلوب تعتبر أرقى درجة من مثيلاتها من روايات زيدان • إذ نجد زيدان أكثر اهتماما بهذا العنصر في هذه الرواية ، مما يجعلها متميزة بعض الشيء عن غيرها من رواياته • ولكن يظل الأسلوب الصحفي ملازما للمؤلف في كل رواياته ، يقول معلقا على أحد المواقف في الرواية :

والانسان تخدعه ميوله حتى تريه الأسود أبيض • والخرافة حقيقة • ومن فطرته أن يعتقد صدق مادحه وإخلاصه ويميل إليه بقلبه • وقد عرف هذه الطبيعة أصحاب التدبير الذين يحتاجون إلى مصانعة الناس في التجارة أو غيرها فاتخذوا مدح عملائهم وإطراء مناقبهم وسيلة للتقرب إليهم واكتساب ثقتهم • واتخذ هذه الخلة أيضا طلاب رضا النساء وجعلوا إطراء جمالهن وسجاياهن وسيلة لاكتساب قلوبهن ولذلك قال أمير الشعراء :

خدعوها بقولهم حسناء •°• والغواني يغرهن الثناء

والحقيقة أن الثناء لا يغر الغواني فقط ، بل هو يغر

كل انسان ويندر أن ينجو عاقل من الوقوع فيه[١] .

أين هذا الأسلوب من الأسلوب القصصي في الأدب الروائي؟! إن المؤلف كثير مايخلط بين الأساليب ، ويعجز عن انتقاء الألفاظ الأدبية الفصيحه ، ويصف مجتمع النساء فى ذلك العصر وفي دور الخلفاء بالذات فيقول :

فاجتمعن وتحدثن في أمرها[٢] .. وهذا طبيعي في الناس
وبخاصة في ذلك العصر . وبين نساء لاعمل لهن غير
أمثال هذه الأحاديث ، إذ لا يشغلهن عن ذلك كتاب
ولا جريدة ولا مجلة ولا مدرسة ولا خطاب ..[٣].

فهل يمكن اعتبار مثل هذا الأسلوب قصصيا في فن كتابة الرواية ؟ بالطبع ، لايمكن . ولكن ـ كما ذكرنا سابقا ـ أصبحت هذه وصمة في روايات زيدان ، لايمكن أن نتجاهلها . والسبب عائد إلى قصور في فهم الأسلوب السليم واللغة المناسبة لفن الرواية . بل هو قصور في فهم أصول الفن الروائي . بتعبير أصح .

ويتدخل المؤلف كثيرا ، بمناسبة وبغير مناسبة ، فيدلي برأيه تارة ، وينصح تارة ، ويوجه ويرشد تارة أخرى . يقول :

وكان هذا الشقاق سببا في سقوط بغداد ودخولها
في حوزة التتر على يد هولاكو ، وذلك طبيعي في
تاريخ الدول . وإذا تدبرت أسباب الانقلابات السياسية
التي تنتقل بها السيادة من دولة إلى دولة ، وجدت
معظمها يرجع إلى انقسام أبناء البلاد فيما بينهم
بالمشاحنات الدينية والأغراض السياسية .... الخ النص[٤] .

أضف إلى ذلك النزعة العاطفية ، وتساقط الدموع وحالات الإغماء في أبسط المواقف وأقلها مدعاة لذلك . ويتساوى الرجال بالنساء في ذلك .

كذلك نرى أن للأحلام دورا مهما في بعض الأحداث فقد تدفع البطل إلى القيام

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٤١

(٢) شوكار

(٣) جورجي زيدان ، شجرة الدر ، ص ١٦ أ

(٤) المصدر نفسه ص ٧٥ ، وانظر كذلك ص ٨٠-٨١ ، ص ٨٨ ، ص ١٠٣ ، ص١١٣ ، ص ١١٦ ، ص ١٤٧

ببعض الأعمال البطولية – يقول المؤلف متحدثا عن ركن الدين :

.. ولما نام رآها[1] في الحلم حزينة باكية تعاتبه لأنه شغل عنها بسلافه . فأثر هذا الحلم في خاطره تأثيرا شديدا . ولما أفاق من نومه وطن عزيمته على الأخذ بناصرها[2] .

زد على ذلك اهتمام الكاتب بتسجيل التواريخ الحقيقية مستخدما الأرقام الحسابية ، وحرصه على الالتزام بالصدق التاريخي .

وبتعاون تلك العناصر مجتمعة ، ممثلة في الحبكة ، والشخصيات وتصويرها واللغة ، ومعالجة الحقائق التاريخية ... استطعنا الوصول إلى الهيئة العامة للبناء الروائي في رواية شجرة الدر .

أثر سكوت على رواية (شجرة الدر) لزيدان

يبدو أن زيدان قد تأثر بسكوت في هذه الرواية أيضا . وقد بدا التأثر في بعض المواقف ، وفي رسم بعض من شخصيات الرواية .

أما المواقف فأولها موقف هولاكو التتري الذي جاء بغداد بنفسه ، متنكرا ، ليستطلع خبر هذه المدينة ، ويقيس مناعتها وحصانتها وموقف سكانها من الخلافة ، وفي ملخصه يقول المؤلف :

فأعاد مؤيد الدين قراءة تلك الورقة ، وقد تولته الدهشة وأوشك أن يكذب بصره وسمعه لغرابة ماشاهده ، وأطرق هنيهة وهو يخاطب نفسه قائلا : هولاكو نفسه خاقان التتر وفي خدمته مئات الألوف من الرجال ، لايثق بأحد منهم في مهماته فيأتي بنفسه متنكرا تحت هذا الخطر لكي يخاطبني ، وكان في إمكانه أن يبعث رسولا ، ولكن الهمة العالية والحرص على الملك يدعوانه إلى ذلك[3] .

---

(١) شوكار

(٢) جورجي زيدان ، شجرة الدر ، صـ ٧٤

(٣) المصدر نفسه ، صـ ٩٩

هذا الموقف يقابله موقف السلطان صلاح الدين الأيوبي ، الذي كان يجوب الصحراء متنكرا في ثوب أحد المجاهدين الأكراد ،(شيركوف)، وحده لاستطلاع حال العدو ، وإمكاناته[1] .

وكذلك موقفه وهو يجيء متنكرا إلى معسكر الملك ريتشارد في ثوب (الحكيم) طبيب صلاح الدين الخاص ، لكي يعالج الملك ريتشارد قلب الأسد من الحمى التي ألمت به ، وهو دليل كرم أصل وشهامة لا يتمتع بها الا الأبطال من الفرسان :

.. لقد وجدنا أنه لايليق ببطل في مكانتك وشجاعتك أن يموت موت العبد الذي أرهقه سيده بالعمل . ولا يليق ـ كذلك ـ بشهرتنا أن يختطف مرض كهذا ، عدوا شجاعا مثلك من بين أسلحتنا ...[2]

إن صلاح الدين يفتخر بأنه يقف ضد عدو شجاع قوي أكثر مما يفخر بأنه يقف أمام عدو أرهقه المرض . لذا نجده يعطي الملك الفرصة ويمنحه الهدنة التى طلبها . ويأتي متنكرا بنفسه لعلاجه[3] . وهي همة عالية وكرم أخلاق لا مثيل لها .

أما الشبه الثاني فهو في رسم شخصية سحبان البغدادي الشيعي : فهناك شبه بين هذه الشخصية وشخصية (راندال دولاسي) في رواية (المخطوبة) للسير ولتر سكوت . فكلا الشخصيتين اندست في صفوف من يكرهون من أجل قضاء مصلحة ذاتية .

ف (راندال دولاسي) عاد إلى ابن عمه (هوجو دولاسي) معتذرا إليه من خطاياه التي اقترفها في السابق ، وقد وسط لهذه المهمة خطيبة ابن عمه (افيلين) ـ ولم يكن في ذلك سليم الطويه . ثم بعد ذلك جاء إلى قلعة (ريموند بيرنجر) في يوم الاحتفال بمراسيم دفن صاحب القلعة ، وكان متخفيا في ثوب تاجر أقمشة وملبوسات نسائية وتكلم مع (مدام جيلان)ـ خليلة ريموند ، وزوجة (راول) العجوز ـ واتفق معها على كلمة سر يدخل بها القلعة وقت مايشاء . بعد ذلك نلتقي بـ (راندال دولاسي) الشرير الذي يطمح إلى السلطة والاستيلاء

---

(١) Scott., *The Talisman*, Ch.1-2.

(٢) *Ibid.*, P.76, (٣) *Ibid.*, PP.78-80.

على أملاك ابن عمه ، والتقرب من الملك ريتشارد ، نلتقي به هذه المرة تاجرا للصقور ، مخططا لاختطاف (افيلين) ورميها مع إبن عمه الثاني ، والوصي عليها (داميان دولاسي) ، في مكان نائٍ منفرد ، يتهمان على أثر ذلك بالخيانة . فتثور ثائرة ابن عمه (هوجو دولاسي) إذا كان حيا ، وتثور ثائرة سكان القلعة لتلك الفعلة الشنيعة ، ويفوز هو بالقلعة وبأملاك ابن عمه بعد حرمان (افيلين) و (داميان) منها .

هذه هي طموحات (راندال دو لاسي) وتلك هي مخططاته . ولكنه ما استطاع أن يحقق شيئا منها لانكشاف سره وظهور حقيقته . ونال جزاءه .

تلك كانت الخطوط الرئيسة في شخصية (راندال دولاسي) في رواية (المخطوبة) لسكوت .

ونجد هنا تشابها بين هذه الخطوط وبين شخصية سحبان التى ظهرت في رواية (شجرة الدر) :

> ومن بين الذين أتيح لهم رؤيتها[1]، تاجر بغدادي اسمه سحبان ، كان يتردد إلى مصر ومعه الأقمشة الفارسية والهندية ، وكان الملك الصالح يدعوه إليه ويبتاع منه مايختار لنسائه من الأنسجة الجميلة ... فاتفق له وهو يعرض عليه بعض المنسوجات النسائية وكانت سلافه حاضرة لتختار نوعا منها ، أن وقع بصره عليها .....
> فلما توفي الملك الصالح ضعف شأن جواريه فتوسم سحبان بابا للنظر إلى سلافه ... فاحتال يوما ببضاعة حملها إلى القصر كعادته[2] .

وفي الوقت نفسه نجد (راندال) المتنكر ، بعد أن ينادي إحدى وصيفات (افيلين) همسا ، وبلهجة أجنبية ، إمعانا في التنكر يقول :

> أنا تاجر متجول ، يا أختي الطيبه ، وقد جئت إلى هنا للربح . هل لك أن تدليني على زبون أجده في هذه القلعة[3]

---

(١) سلافه .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢١

(٣) *Scott., The Betrothed*, P.365.

وكما وفق (راندال دولاسي) إلى امرأة لها مكانة عند صاحب القلعة (بيرنجر) وهي مدام (جيلان) التي ساعدته في دخول القلعة وفي معرفة أسرارها ، مقابل بضع قطع من النقود ، ولتغيظ مدام جرجري[١]. كذلك نجد سحبان قد وفق إلى سلافه إحدى جواري الملك الصالح المقربات لديه ، التي ساعدت سحبان على معرفة كثير من أسرار القصر ، مقابل ما سيؤديه من خدمة . ولتنتقم من (شجرة الدر)[٢].

ونجد أن (راندال دولاسي) لا يتورع عن فعل أي شيء من أجل تحقيق طموحاته الدنيوية ، ولكي يصل إلى السلطه . فهو يوكل من يغدر بابن عمه (داميان) ويضربه ويرمي به في كهف مظلم ، ويختطف خطيبة ابن عمه الثاني (هوجو) ويرمي بها في الكهف نفسه ، ليلحق الأذى بهما ويؤذيهما في شرفهما ويغري بهما الملك هنري . كل ذلك من أجل أن يحقق مطامعه . ولكنه في النهاية ينال جزاء أعماله . ولم يحقق طموحاته جميعا .

كذلك نجد سحبان ، يقوم بعمل أي شيء في سبيل القضاء على الخلافة العباسية واعادة الخلافة الفاطمية إذ كان يحلم هو نفسه بالسلطه . فلا يهتم ، وقد وثق فيه الإمام الظاهر ، أن يخدعه ويقترح عليه الخروج إلى الفسطاط مع بقية آل العباس ، وهو يعلم بنية هولاكو .

ولكنه في النهاية لم يحقق طموحاته ، أبدا بالرغم من كل ماقام به من أعمال .

وهناك التقاء آخر بين رواية شجرة الدر ورواية المخطوبة لسكوت ، وهو تشابه في رسم الشخصيات وبعض المواقف أيضا . حيث نجد تشابها واضحا بين رسم شخصية ركن الدين بيبرس في رواية شجرة الدر ، وشخصية (داميان دو لاسي) في رواية المخطوبة ، فكلا الشابين فارسان من الأبطال الشجعان الأقوياء الذين يعتمد عليهم في الأمور الصعاب . وكلاهما متسمان بجمال الخلقة . وكلاهما ساهما في القضاء على (أمير) ممقوت ، وكانا مبعوثين من قبل أمراء الفرقة التي ينتسبان إليها لايصال خبر القتل والانتصار . وكلا الخبرين يحملان البشرى بالارتياح للمبلغ به . فشجرة الدر تفرح للقضاء على طوران شاه الملك

---

(١) *Ibid.*, P.366.

(٢) جرجي زيدان ، شجرة الدر ، ص ٢١

المعظم لأنه كان يحتقر المماليك البحرية والقضاء على طوران شاه يعني توليتها ملكة للمسلمين في مصر .

و (افيلين) تفرح لخبر القضاء على (جوين وين) الانجليزي لأن في القضاء عليه انتقام لوالدها ، وتخليصها من الأسر والعار .

يقول زيدان في وصف ركن الدين بيبرس وهو ماثل أمام شجرة الدر لينقل إليها خبر مقتل طوران شاه إنه :

شاب جميل الخلقة صبوح الوجه عليه هيبة الشيوخ ونضارة الشباب لم يتجاوز عمره يومئذ " ٢٣ سنة "[١]

ويقول سكوت في وصف (داميان دو لاسي) عندما دخل القلعة مبعوثا من قبل عمه (هوجو دو لاسي) إن :

ملامحه تضعه بين الأحداث ، فلا يرى فيه من ملامح الشباب سوى أسفل الشفة العليا الذي يعلن بشكل قاطع قربه من سن الرجوله[٢]

وفي مكان آخر يقول :

تدافع النساء إلى فناء القلعة لترى أول مبعوث من قبل منقذيهم ، وخلطن الثناء على جماله ووسامته بالاطراء على شجاعته وبسالته[٣] .

وبالرغم من الشبه الواضح في (رسم الشخصية) إلا أن هناك فارقا كبيرا بينهما . ففي حين نجد سكوت يصور لنا (داميان) تصويرا مفعما بالحيوية ، حتى ليكاد القارئ يرى (داميان) يتحرك أمامه ، نجد زيدان يقرر في (ركن الدين) صفات محددة بألفاظ . حيث يجعل كل لفظة تحمل معنى محددا ، ثم هو بالتالي يقرر سن (ركن الدين) ليكون (٢٣) عاما . وشتان بين أن يترك المؤلف القارئ يستنتج سن البطل من الموقف والرسم وبين أن يقدم له تقريرا جاهزا عن الحالة .

وهناك شبه آخر في موقف كل من (داميان دولاسي) و (ركن الدين) ورسم

---

(١) جرجي زيدان ، شجرة الدر ، ص ١١

(٢) Scott., Waverley Novels (The Betrothed), P.360.

(٣) Ibid., P.363.

شخصياتهـــــما .

يقول سكوت في تصوير موقف (داميـان دولاسي) وهو ماثل أمام (افيلين) :

وكان من الضروري أن تبدأ افيلين بالكلام :

ـ "نتقدم بأحر المشاعر لنحيَّ بالعرفان الرسول الذي جلب لنا حزام الأمان . وأعتقد أننا نتحدث ـ إذا لم نخطيء ـ إلى النبيل داميان دولاسي"

ـ بل أقل خدمك شأنا ..... يحظى بشرف المثول بين يديكم بالنيابة عن عمه النبيل هوجو دو لاسي أمين شرطة تشستر [١] .

ويقول زيدان في رواية شجرة الدر على لسان ركن الدين :

.. إن الملك المعظم طوران شاه ابن مولانا الملك الصالح قد لاقى أجله في هذا الصباح وبعثني مولاي عز الدين ايبك لأنقل هذا الخبر إليك [٢] .

وفي مكان آخر يقول زيدان في حوار بين شجرة الدر وركن الدين :

ـ لم تخبرني عن القواد الأبطال الذين فتكوا بالملك المعظم . هل أنت منهم ؟

ـ قال : نعم . إنى أصغرهم شأنا . وقد فعلت ذلك بأمر الأمير عزالدين [٣] .

وهناك شبه آخر بين الروايتين السابقتي الذكر في رسم الشخصيات وتصوير المواقف كذلك .

يقول سكوت في تصوير (افيلين) حين استقبلت (داميان) المبعوث الذي أرسله (هوجو دولاسي) قائد الفرقة التي تمكنت من القضاء على الأمير الويلزي (جوين وين) :

لقد استقبلته الآنسة افيلين في القاعة الكبرى بالقلعة . وكانت تجلس في صدرها في مكان أدنى درجة من منصة

---

(١) *Ibid.*, P.363.

(٢) جرجي زيدان ، <u>شجرة الدر</u> ، ص ١١

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٣

القاعة أو العرش[1] وبرفقتها (روز) وبعض الحضور من النساء وقد سمح للأولى منهن[2] بالجلوس على كرسي خاص في المجلس[3] .

ويقول زيدان وهو يصف شجرة الدر تستعد لاستقبال (ركن الدين) الذي جاء مبعوثا من قبل عزالدين ايبك يخبرها بمقتل طوران شاه :

.. قالت تعالي ياشوكار . لا ينبغي أن أخفي عليك شيئا . فدخلت وجلست شجرة الدر على سرير من الذهب في صدر الإيوان كان يجلس عليه الملك الصالح وأشارت إلى شوكار فجلست على كرسي مذهب بين يديها[4] .

وقد وضح مقدار تأثر زيدان بسكوت من النصوص المدونة آنفا . ووضح الفرق بين الأديبين في تصوير المواقف ورسم الشخصيات . ففي حين نجد سكوت يعمد إلى طرق فنية منطقية غير مفتعلة لكشف الأسرار كما هو الحال بالنسبة لحقيقة (شيركوف) أو (الحكيم) . فنجد الشخصية تتطور ، والأحداث تتفاعل حتى يتم كشف السر عن طريق الحدث الفني . أما زيدان فقد لجأ إلى أقصر الطرق في الكشف عن شخصية (هولاكو) وهو استخدام الرسالة . فخلّص نفسه من عناء الجهد في التفكير ، لإيجاد طرق فنية ، وتركيب أحداث ومواقف أدبية للكشف عن سر (الدرويش) ومعرفة حقيقته !! .

أما عن رسم الشخصيات فقد اكتفى بوصفها من وجهة نظره هو ولم يدعم قوله بحدث أو موقف أدبي في الرواية . ويعتبر الوصف "المباشر" للشخصية هو أقصر الطرق في رسمها ، إذ لا ينبيء عن أي مجهود بذله الأديب فى رسم الشخصيات وبلورتها .

---

(١) الذي كان يجلس عليه والدها (ريموند بيرنجر) .

(٢) وكانت (روز) التي لا تفارقها أبدا .

(٣) *Scott., Op.Cit., P.362.*

(٤) جرجي زيدان ، شجرة الدر ، ص ١٠

الفصل الرابع

أحمد بن طولون

بعد دراسة روايات زيدان التاريخية ، اتضح لنا أن هناك أكثر من رواية ظهر فيها تأثير سكوت ، ولكن في بعض الروايات مثل : صلاح الدين ومكائد الحشاشين ، ثم شجرة الدر كان الأثر يشمل أكثر من جانب في الرواية أو أكثر من موقف ، لذا خصصناهما بدراسة نقدية شاملة .

أما بقية الروايات فقد ظهر فيها أثر سكوت في موقف واحد ، مثلا ، فلم يكن هناك داع لدراسة هذه الروايات ـ نقديا ـ دراسة تفصيلية كما فعلنا مع الروايتين السابقتي الذكر ، خاصة وقد وجدنا أن دراستنا لهذه الروايات لن تضيف جديدا لما سبق أن أشرنا إليه في فصل (الفن الروائي عند زيدان) حيث وجدنا أن رواياته جميعا ذات صبغة واحدة . ويكفي دراسة هاتيك الروايتين للوقوف على طبيعة روايات زيدان التاريخية .
أما بقية الروايات التي ظهر فيها أثر سكوت على الوجه المشار إليه آنفا فهي :-

١ ـ رواية أحمد بن طولون .
٢ ـ رواية فتح الاندلس (طارق بن زياد) .
٣ ـ رواية أرمانوسه المصرية .
٤ ـ روايات أخرى فتاة غسان ، أبومسلم الخراساني ، غادة كربلاء ، العباسة أخت الرشيد

وسنكتفي في هذا المقام بتسطير حبكة كل روايه ، ثم نشير إلى مواطن التلاقي بين عمل سكوت وعمل زيدان .

أحمد بن طولون (١)

العمل الروائي :

يصور وضع مصر تحت حكم ابن طولون .

الحبكة :

تدور الحبكة حول فتاة قبطية هي دميانه ابنة مرقس التي تسكن قرية طاء النمل . لقد وقعت هذه الفتاة في غرام شاب يسكن بجوار منزلها هو سعيد الفرغاني . وكان سعيد هذا ربيب شيخ مسلم هو أبوالحسن . فاعتقدت دميانه أن سعيدا هذا من المسلمين ، ولكنها عندما ذهبت إلى القسيس لتعترف – كما هي عادة النصارى – اكتشفت أن سعيدا نصراني ، فاطمأن قلبها وزاد تعلقا به . وفي طريقها إلى المنزل التقت – صدفة – بسعيد الفرغاني وكشف لها الآخر عن مكنونات قلبه تجاهها وتعاهدا على الزواج .

أما والد الفتاة مرقس فكان عربيدا سكيرا ، الأمر الذي كدر حياة ابنته عقب وفاة والدتها الطيبة . وكانت دميانه قد اكتسبت صفات الطهارة والنقاء وحسن السريرة والالتزام بالتعاليم الدينية من والدتها ، أما والدها فلم يكن مثالا يحتذى لسوء سلوكه . وقد شاءت الظروف ومصلحة مرقس أن يتعرف على (اسطفانيوس) ابن يوحنا كاتب الخراج ، وكان (اسطفانيوس) هذا شابا عربيدا أيضا بعكس والده الطيب المتدين . ونتيجة لتلك الصداقة بين مرقس واسطفانيوس التي قامت على أساس تبادل المصالح ، فقد وعد مرقس اسطفانيوس بالزواج من دميانه مقابل مايلقاه منه من تسهيلات وتجاوزات عن دفع الخراج .

وشاءت الظروف أن يأتي أبوالحسن يخطب دميانه ابنة مرقس إلى ربيبه النصراني سعيد الفرغاني الذي يعمل مهندسا لدى ابن طولون . فقد كان هو الذي أجرى الماء إلى المقطم والقطائع حيث يقيم ابن طولون وجنده . فعلم اسطفانيوس بذلك وزاد تعلقه بدميانه وكرهه لغريمه سعيد .

وفي مناسبة الاحتفال السنوي الذي يحيه المصريون للنيل (إصبع الشهيد) التقى سعيد بدميانه في الكنيسة وأخذت تبثه شكواها لما سمعته من رغبة اسطفانيوس فيها ، فجاء اسطفانيوس مدفوعا بغيرته وحقده وأراد أن يخرج

---

(١) صدرت عام ١٩٠٨ – ١٩٠٩

دميانه من الكنيسة بالقوه فاعترضه سعيد وضربه أمام الجمع مما زاد في حقد اسطفانيوس عليه وعلى دميانة أيضا وبخاصة لأنه لحظ منها إقبالا على سعيد وإدبارا منه . وقرر الانتقام من سعيد ، وأسرها في نفسه واتفق مع والد دميانة على ذلك . وكانت دميانة قد أجبرت على قبول خطبة اسطفانيوس طاعة لوالدها واحتراما للقس ، ولكن العقد لم يتم بعد ، لذلك أعد والدها واسطفانيوس خطة محكمة تسفه سعيدا أمام الجميع فتيأس منه دميانه وتقبل اسطفانيوس طوع إرادتها . وفي يوم الاحتفال بجر المياه إلى القطائع رافق المهندس سعيد ، ابن طولون إلى مقر الاحتفال ، وكان جمع غفير من الشعب قد حضر للمشاركة في الاحتفال بهذا اليوم ، وكان من ضمن المتفرجين دميانه وزكريا خادمها المخلص . وفي هذا اليوم تحولت فرحة دميانه بترقي سعيد الفرغاني ومكافأته إلى حزن شديد ، عندما رأت الجنود وقد أخذوا في ضرب سعيد وتكبيله بالقيود وحبسه ، لأنه أتهم بوضع قصريه من الجير عمدا ، تعثر فيها حصان ابن طولون ، فسقط على الأرض وسقط الحاكم أيضا ، فاتهم سعيد بالتدبير لاغتيال ابن طولون . وزج به في السجن . وسر اسطفانيوس ومرقس بذلك وظنا أن هذا الحادث والتقليل من شأن سعيد أمام الجمهور سيزيل مافي قلب دميانه من محبة تجاهه .

أما دميانه فقد كانت هي وخادمها زكريا متأكدين أن في الأمر مكيدة لسعيد . وفي اليوم الذي حدد لاتمام الزواج ، اتفق زكريا خادم دميانه - بعد أن ضاعت سدى كل محاولاته في إقناع والدها ووالد اسطفانيوس بعدم اتمام العقد لعدم رغبة الفتاه - اتفق مع دميانه على الهرب وطلب منها أن تجهز نفسها ، ثم هربا حتى وصلا حلوان حيث يقيم أحد أصدقائه العرب الذين اشتهروا بكرم الخلق وحسن الضيافه . وأقامت دميانه هناك مع نساء العربي معززة مكرمة . أما زكريا فقد استأذن دميانه في الذهاب إلى مهمة ضرورية ، تاركا إياها مع (قعدان) العربي على أمل العودة سريعا . وذهب إلى طاء النمل ، ثم دخل بيت سيده مرقس وخرج منه وهو يحمل اسطوانه مختومه ، بدا أنه حريص عليها كل الحرص .

وفي طريق عودته إلى حلوان شاهد جماعات من الناس يسارعون الخطى ويركضون في اتجاه الفسطاط هربا من (البجه) وهم جماعة من القبائل المتوحشة تعودت غزو أطراف الحدود المصريه ونهب قراها . وكان لسوء حظ

دميانه - هدفهم هذه المره حلوان • وعندما وصل زكريا حلوان وجدها خاوية على عروشها ووجد (قعدان) مضرجا بدمائه بعد أن فتك به (البجه) وأخذوا أهل بيته ودميانه معهم سبايا • فاحتار زكريا ماذا يفعل تجاه هذه المشكلة ، وكان أثناء غيابه عن دميانه قد خلص سعيدا من السجن بعد أن تنكر في زي غير زيه الأصلي ودخل على ابن طولون وأقنعه ببراءة سعيد ، وقدرة سعيد على بناء جامع لا ترفعه أعمدة حيث عجز جميع المهندسين عن بنائه • وأخبر سعيدا بهروب دميانه معه وإقامتها في مأمن في حلوان •

فكر زكريا ماذا يفعل؟ وكيف يخلص تلك الفتاة الطاهرة من (البجة) وهم جماعة من اللصوص لاذمة لهم ولادين ولا يخافون من أحد ، وضاقت به الدنيا • وفي طريقه عرج على أحد معارفه الذي أشارَ عليه بالذهاب إلى ملك النوبة لأن (البجه) تحترمه وتقدره ولا تخاف من أحد سواه • ولكن كيف يدخل زكريا وهو خادم بسيط على ملك النوبه المشهور • ثم برقت للصديق فكرة وهي طلب القسيس ميخائيل - الذي يقيم في ديره بذي مقار - للتوسط عند ملك النوبة لكي يتدخل الأخير لإنقاذ دميانه من (البجه) خاصة وأن ملك النوبة نصراني ولا يتأخر عن خدمة أي نصراني يحتاج إليه • وكانت هذه الفكرة قد راقت لزكريا ، فهب من فوره لكي يعد نفسه لزيارة القسيس ميخائيل بذي مقار وهو مكان يقع وسط صحراء قاحلة جرداء • وسار زكريا بعد أن تنكر في زي الرهبان ورافق قافلة لرهبان يحملون الطعام وحوائج أخرى للكنيسة التي يقيم فيها ميخائيل • وكان زكريا حريصا كل الحرص على الاسطوانه التي أخذها من منزل مرقس لأهميتها • وبينما القافلة سائرة وعلى مقربة من الدير هاجمتها جماعة من الجنود وسلبت ماتحمله من موّن وقتلت الرهبان ولكن زكريا استطاع الهرب والإختباء إلى أن يئس المغيرون من حياته فذهبوا وتركوه في تلك الصحراء وحيدا فسار متجها نحو الدير حتى وصله • وعندما تقابل مع ميخائيل القس الأكبر ، اتضح له سر هذا السطو • حيث كان القس غاضبا وحزينا بسبب ما أثاره الوشاة من سوء بينه وبين ابن طولون ، جعل الأخير يطالبه بدفع الجزية مضاعفة وهو لايملك منها شيئا ولكن الوشاة أخبروا ابن طولون أن ميخائيل يملك أموالا وكنوزا في ديره • وعلى إثر ذلك ضيق ابن طولون الخناق على القس ميخائيل ، ومنع عنه الموّن •

بعد ذلك قص زكريا خبر دميانه على ميخائيل وطلب منه كتابا يوصله إلى

ملك النوبة يساعده في تخليص دميانه من أيدي (البجه) . وكان ملك النوبه قد أرسل إلى البطريق ميخائيل رسائل يدعوه فيها إلى الثورة ضد المسلمين ومناهضتهم ولكن الأخير لم يكن رأيه من ذلك . وقد انتهز البطريق ذهاب زكريا إلى ملك النوبه لتخليص دميانه من أيدي (البجه) ، انتهز هذه الفرصة لكي يرسل معه خطابا يبلّغ فيه ملك النوبة بعدم موافقته لرأيه في مناهضة المسلمين ونصح زكريا بأن يلبس لباسا غير لباس الرهبان وغادر زكريا المكان متجها إلى ملك النوبة مارا بالجيزة . وفي طريقه وجد رجلا مكبلا ملقى على الأرض يئن . واستنجد بزكريا فانقذه زكريا واتخذه رفيقا إلى أن وصلا الجيزه وكان زكريا يريد التوجه إلى ملك النوبه ولم يكن يريد إعلام رفيقه ، فاستأذنه في الفراق ولكن الرفيق أبى وألح على زكريا بضرورة مكافأته على حسن مرافقته . ووقف زكريا ينتظر عند الأهرامات ، ولكن الرفيق تأخر ثم عاد بعد زمن ولكنه عاد ومعه بعض الجنود للقبض على زكريا الذي اختبأ في إحدى فتحات الهرم ، ثم دس فيها الاسطوانه مع الكتاب الذي بعثه معه البطريق . وعندما أصاخ زكريا السمع عرف أن الرجل جاسوس يهودي تجسس عليه لحساب مرقس واسطفانيوس . واستطاع اليهودي مع الجنود القبض على زكريا بعد أن خبأ الأخير الاسطوانه والخطاب في إحدى الفوهات في الهرم ودسهما بحجر . وأودع زكريا السجن بتهمة التعدي على ممتلكات سيده مرقس وسرقة بعض الجواهر والحلي وأشياء خاصه . ولم يستطع مرقس ولا اسطفانيوس أن يأخذا منه الاسطوانه .

أما دميانه فقد أخذت سبية بواسطة لصوص البجه وكانت من نصيب قائدهم أبي حرمله ولكنها أظهرت تمنعا شديدا من أن تكون له . وبحيلة أنها قادرة على صنع دواء يحفظ الإنسان من القتل أو الإصابه - استطاعت أن تفلت من كبير البجه ، فقد أقنعته بقوة مفعول الدواء فأراد أبوحرمله أن يختبر صدقها فأخبرها أنه سيجرب الدواء عليها فوافقت وقامت بدهن رقبتها بذلك الدواء ورفع أبو حرملة السيف ليضرب به رقبتها ، وفي هذه اللحظة يدخل سمعان وهو العبد النوبي وكان قد تربى في بيت نصراني - ومنع أبا حرمله من أن ينزل سيفه على رقبة دميانه وقال له : إن دميانه النصرانيه الطاهرة كذبت عليه لأن هذا الدواء لايمنع من القتل وإنما هي حيلة دبرتها لكل تقتل نفسها فتخلص نفسها من العار . دهش أبو حرمله من فعلها ثم فضل أن يرسلها إلى ملك النوبه لأنه نصراني ينصر النصارى أمثاله ، وذلك مبالغة في إكرام دميانه.

وقد أرسل معها سمعان الذي أنقذها من القتل ، وأرسل معه رسالة إلى ملك النوبة ردا على رساله بعثها الأخير يحرضه فيها ضد المسلمين .

سار سمعان ودميانه برفقة خادم يريدان ملك النوبه . ولما بلغا مقر الملك قص سمعان عليه قصة دميانه فأكرمها وبالغ في ذلك وطلب من سمعان أن يحملها معززة مكرمة إلى أهلها في الفسطاط . وحمله رسالة خاصة إلى البطريق ميخائيل تخص موضوع مناهضة المسلمين يستفسرعن سر تأخره فى الرد على رسائله . وسارا معا . وفي طريقهما إلى البطريق ميخائيل قص سمعان قصته على دميانه وملخصها : إن له أخا يسمى إبراهيم يصغره في السن وكان عند ملك النوبة ،جد هذا الملك الحالي ، فقدمهما هديه من ضمن هدايا كثيرة للمأمون ، ومنذ ذلك اليوم فرق الزمان بينهما حيث تمكن سمعان من العوده إلى بلاد النوبه وظل إبراهيم في الفسطاط وبعدها لا يدري مامصيره . وفي طريقهما إلى الفسطاط شاهدا رجلا يتسلق الأهرام وكان يظهر عليه الحذر والحيطة . فأحب سمعان أن يتأكد من أن الرجل ليس بلص فوقف وسأله عن الطريق إلى الفسطاط ... عندها اكتشفت دميانه أن الرجل هو زكريا خادمها جاء ليأخذ الاسطوانه التى خبأها عند فوهة الهرم . وعرف سمعان فحوى رسالة البطريق وأنه ليس على رأي ملك النوبة في مناهضة المسلمين ، ولكنه فضل أن يذهب بنفسه ويوصل الرساله التي كلفه بها ملك النوبة إلى البطريق .

وعرفت دميانة من زكريا خادمها قصة سعيد الفرغاني وأنه أصبح من علية القوم والمقدمين لنجاحه في بناء المسجد الذي طلبه ابن طولون . وأخبرها أن سعيدا هو الذي دبر أمر خروجه من السجن لكي يسترجع الاسطوانة التي يبحث عنها والدها واسطفانيوس والتي تحوي على سر عظيم .

وذهبت دميانة برفقة سمعان لكي يوصلها إلى إحدى دور الراهبات قريبة من المكان .

وعندما عاد زكريا إلى سعيد أعطاه الاسطوانه وخطاب البطريق إلى ملك النوبه . وفي هذه الأثناء يدخل اسطفانيوس ومعه جنوده . ويحاول أن يأخذ الاسطوانه من يد سعيد ولكن الأخير لم يمكنه من ذلك . وطلب اسطفانيوس من الجنود القبض على زكريا وإيداعه السجن مرة أخرى ولكن سعيدا رفض تسليمه واحتفظ بزكريا في منزله فذهب اسطفانيوس ومرقس ليرفعا دعوى على سعيد

يتهمانه فيها بالتواطؤ مع زكريا الذي كان متواطئا مع البطريق على المسلمين وتهمة أخرى وهي اخراج زكريا وهو في سجن الدولة دون إذن ابن طولون ٠

ورفع الأمر إلى ابن طولون الذي جمع أطراف القضية وهم : سعيد ، وزكريا ، ومرقس ، ودميانه ، ثم البطريق ميخائيل ، وأخيرا اسطفانيوس وكشف سر الاسطوانه حيث كان فيها وصيه مارية القبطيه، والدة دميانة الروحية والتي تمنحها فيها قرية طاء النمل وقرى صغيرة مجاورة ، والتي حاول أبوها واسطفانيوس الاستيلاء عليها وحرمانها منها ٠ وكشف سر خطاب ميخائيل الذي أرسله إلى ملك النوبه ، يدعوه فيه إلى ضرورة الاذعان لحكم المسلمين ٠ وكشف فيها سر سمعان الذي حضر الجلسة وعرف أن زكريا هو أخوه إبراهيم ٠ وبرئت ساحة سعيد من تهمة محاولة قتل ابن طولون ، وزاد رفعة في نظر ابن طولون ٠ فقرر أن يعقد له على دميانه ويقيم له حفلا لعرسه يليق بمقامه ٠ وعفي عن مرقس واسطفانيوس بعد أن كاد ينزل بهما عقاب ابن طولون ٠

وهكذا انتهت رواية أحمد بن طولون بالنهاية التقليدية وهي : زواج الأحبه بعد كشف الأسرار ومعرفة كنه الغوامض ٠

وقد اعتمد زيدان في روايته هذه على عنصر الإثارة والتشويق كما هي عادته ٠ فمفتاح السر هو الاسطوانه التي اهتم بأمرها زكريا ورفض الكشف عن حقيقتها طوال الرواية ، وظل المؤلف يشد القارئ إلى الحدث ويثير تساؤله عن محتوى هذه الاسطوانه ٠ وباجتماع الشخصيات المتباغضة والمتنافرة يفتح زكريا الاسطوانة فيكشف السر ويفتضح الأمر وينتهي الحدث ٠

الحبكة بسيطة لعبت فيها الصدفة دورا كبيرا

أثر سكوت على رواية (أحمد بن طولون):

إن تأثير سكوت هنا واضح في موقف وفي رسم شخصية ، دميانه القبطيه ٠ فهناك شبه قائم بين شخصية دميانة القبطية بنت مرقس في رواية (أحمد بن طولون) وشخصية (ربيكا) اليهودية في رواية (ايفانهو) لسكوت ٠

لم يعد هناك شك في أن زيدان قد قرأ رواية (ايفانهو) وتأثر بما فيها من مواقف وشخصيات وموضوعات ٠

حيث نجد كلا من ربيكا اليهودية ودميانة القبطية شخصيتان تتميزان بنزعة دينية وتمسك بالعقيدة والشرف والعفه . وإن كلا منهما أهون عليها الموت من أن تعرض شرفها للدنس . ودميانة وقعت أسيرة في يد كبير رجال البجه ، وهو يريدها لنفسه – ولكنها فضلت الموت من أن تكون خظية لهذا القائد ، يقول سمعان النصراني لكبير البجه حين أراد تجربة الدواء فيها :

لا تصدقها ياسيدي ولا تطلق المهند من يمينك إلا إذا كنت تريد قتلها . إنها تعلم يقينا أن العقار لاينفع ، وأن الضربة من يدك تقضي عليها . فأجاب والدهشة ظاهرة في عينيه : تعرف ذلك وتعرض نفسها للقتل؟ لا . لا . هذا لايكون دعني أجرب

فصاحت دميانه : دعه يجرب . وسترى صدق قولي فأستريح من هذا الأسر ويرجعني إلى أهلي . قال : لا تفعل ياسيدي . إنها تريد الموت .

قال : كيف تسعى بنفسها إلى القتل ؟

قال : تفعل ذلك فرارا من أمر يحرمه دينها عليها وأنت تطلبه منها ، فلما لم تجد وسيلة للنجاة آثرت الموت على العار[1] .

هذا هو موقف (ربيكا) اليهودية فى رواية (ايفانهو) عندما أراد قائد فرسان المعبد أن يدنس شرفها ، فقد وقفت على حافة شرفة مرتفعة مطلة على مكان خطر ، مهددة بالقاء نفسها لو اقترب منها أو لمسها . تقول بعد أن هددها (بواجلبرت بريان) قائد فرسان المعبد ، وطلب إليها أن ترضخ وتستسلم لأن لا أحد سيسمع صوتها من ذلك المكان المرتفع في تلك القلعة (قلعة فرون دوبو) ، وكان قد طلب منها أن تعتنق دين النصارى حتى يتزوجها إذا أرادت حياة هانئة لأنه محرَّم على النصراني الزواج من يهودية ، وكذلك اليهودية أن تتزوج من نصراني :

أعتنق دينكم ، وأي دين هذا الذي يلجأ إليه أمثالك من المجرمين ، أنت يا أحسن راشق في فرسان المعبد ، أيها الفارس الجبان ، ويا أيها القس الخائن . إنني أبصق

---

(١) جرجي زيدان ، أحمد بن طولون ، صـ ١٢٩ – ١٣٠

في وجهك وأتحداك . إن إله ابراهيم قد فتح لابنته
مخرجا حتى من هاوية العار هذه .

وفي حين كانت تتحدث، قامت بدفع النافذة المتشابكة التي
تطل على برج ناتيء - ففتحتها ، وفى لمح البصر وقفت على
حافة الحاجز ولم يكن هناك أي ستار بينها وبين القاع
تحتها .

وعندما حاول قائد فرسان المعبد أن يقترب منها هددته قائلة :

ابق مكانك أيها الفارس المغرور ، ولو تقدمت خطوة واحدة
فسألقى بنفسي من هذا المرتفع . ولسوف يتمزق جسدي على
أحجار الفناء قبل أن يكون ضحية غدرك .

وفي الوقت الذي كانت تقول فيه هذا القول ، ضمت كفيها
ووجهتهما نحو السماء كما لو كانت تطلب الرحمة لروحها
قبل أن تقوم بآخر عمل لها .(1)

إضافة إلى ذلك فقد التقت شخصيتا (ربيكا) ودميانه في إتقان مهنة الطب ، حيث ورثتها كل منهما عن طريق إحدى القريبات المتقنات لمهنة الطب ، المعروفة عند اليهود والفراعنة . وهي مهنة تعتمد على معرفة أسرار الأعشاب وفوائدها ، إضافة إلى معرفة بعض العقاقير الأخرى . قالت دميانة لأبي حرمله :

تمهل أيها الأمير حتى النهاية . ألم يبلغك خبر العلوم
السرية التي ورثناها عن أجدادنا الفراعنه علما وصناعه .

.. .. ..

قالت : إسمح لي . أنا لا ألقي كلامي جزافا ولا أطلب منك
التسليم به ، إلا بعد تجربته . إن سر هذا الدواء مودع
في بعض الأديار بمصر وعرفته وتعلمته .

قال : وماهو؟

قالت : دهن اصطنعته وأقرأ عليه . فاذا دهن امرؤ
جلده به أمن القتل فلا يقطع فيه سيف ولا رمح ولا سكين .

.. .. ..

---

(1) Scott., Ivanhoe., Ch.24, P.252.

فلما خرج من عندها تنفست الصعداء وأخذت في إعداد العقار فجعلته مزيجا من الأطياب التي بين يديها وأضافت إليها أشياء أخرى[١]٠

وهذا بالضبط ماتعرفه (ربيكا) من علوم الطب ٠ فقد أفلحت في علاج (ايفانهو) بواسطة عقار ركبته وصنعت منه دواء أزال آثار الحمى التي كادت تفتك به نتيجة لذلك الجرح الذي أصيب به فى مبارزته مع فرسان المعبد والذي غار في صدره ٠

وأفلحت كذلك في علاج أحد الفلاحين السكسون (*Hugg.*) ٠

يحدثها والدها قائلا :

إنني أعرف جيدا بأن دروس مريم بنت رابي ماناسيس[٢] البيزنطي ، التي طارت روحها إلى الجنة ، قد جعلتك ماهرة في فن معالجة الأمراض ٠ وأنك تعرفين مهنة التطبيب بالأعشاب وبقوة الإكسير[٣]٠

وبهذه النصوص وتشابه مضمونها وتشابه المواقف ، نستطيع أن نثبت أن زيدان قرأ (ايفانهو) وأعجب بشخصية (ربيكا) واستغلها في رسم شخصية (دميانه) في رواية أحمد بن طولون ٠

---

(١) جرجي زيدان ، مصدر سابق ، صـ ١٢٦ – ١٢٧

(٢) *Rabbi Manasses of Byzantium,*

(٣) *Scott., Op.Cit., Ch.28. P.294.*

الفصـــــل الخـــــامس

فتـــح الأنـــــدلس
أو
طـــارق بـن زيـــاد

====================

العـمل الروائـي :

يحـكي وضـع أسـبانيا قبل الفتح الإسلامي ، ثم فتحهـا علـى يـد طـارق بن زيـاد .

الحـبكة :

تدور الحـبكة حول قصة عاطفية أبطالهـا (فلورنـدا) ابنة الكونت (يوليـان) حاكم سبته ، وبين (الفونـس) ابن ملك أسبانيا السابق (غيطشـه) .

فقد خطبت (فلورنـدا) لـ (الفونـس) ولي عهد أسبانيا منذ الصغر وتـم عقـد خطبتهمـا على يـد عم الفونـس - وهـو قس - اسمه (اوبـاس) حيث بـارك تلك الخطبه . ولكن انقلبت الأمـور في أسبانيا بعـد أن توفي والد الفونس الملك (غيطشـه)، حيث توج (رودريك) الرومـي ملكا على أسبانيا بإجماع القساوسـة ورجـال الدين ، وبذلك خرجت ولاية العهـد من يد (الفونس) وأصبح كأي مواطـن أسباني بل كان حالـه أشـد حرجا ذلك أن الملك (رودريك) ضيق عليـه الخنـاق بوضعـه تحت المراقبة المستمرة خوفا منه ، لخروج ولاية العهـد من يده .

وكعـادة أهـل أسبانيا من الملوك والوزراء والقـواد انتقلت (فلورنـدا) ابنـه (يوليـان) حاكم سبته لتكون تحت حماية الملك مع غيرها من فتيات الدولة في قصر خاص بموافقة والدها . ثم مالبثت (فلورندا) أن نقلت إلـى قصـر خاص بالملك (رودريك) وقريب من مقـر إقامته ، وكانت (فلورنـدا) فتـاة جـميلة ورقيقـة ، الأمـر الذي أثـار الشـكوك في نفسهـا ونفس وصيفتهـا وخالتها (بـاربـاره) ولكن لم يكن هناك عمل سوى الرضوخ لأوامر الملك (رودريك) .

وبعد غياب استمر شهورا بسبب نقلهـا إلى ذلك القصر استطاعت (فلورنـدا) أن تقابل خطيبهـا (الفونـس) ، الذي تغيب عن مراسيم حفل عيد الميلاد الكبير

صـدرت عــام ١٩٠٢ - ١٩٠٣

التي أقيمت على شرف الملك،من أجل مقابلة خطيبته بعيدا عن أعين الرقباء. فشرحت له وضعها وخوفها من إصرار الملك على نقلها إلى قصر بالقرب من مقره الخاص دون غيرها . مما أثار في نفس خطيبها الحمية والرغبة في الانتقام واسترداد ملك آبائه وأقسم لها على ذلك وعلى تخليصها وتخليص الدولة من شر (رودريك) .

وقد أدى غياب (الفونس) عن مراسيم حفل عيد الميلاد إلى إثارة شكوك الملك ومستشاره الخاص (مارتين) القس العجوز . وقد أشار (مارتين) -الذي كان يحقد على (الفونس وعائلته) - بطريق غير مباشر ، إلى غياب (الفونس) واجتماعه بخطيبته . مما أدى إلى توجيه اللوم والتقريع من قبل الملك إلى (الفونس) . غضب (الفونس) كثيرا لما حدث له ، ولموقفه الضعيف أمام مغتصب الحكم منه. وتوهجت في ذهنه فكرة استرداد الحكم من يد (رودريك) فطلب من خادمه الخاص (يعقوب) أن يستدعي عمه القس (أوباس) . وعندما حضر (اوباس) عرض عليه (الفونس) فكرة استرداد الحكم عن طريق مساعدة سكان أسبانيا الذين يرزحون تحت وطأة حكم (رودريك) الرومي المتعسف . ولكن عمه فطّنه إلى خطورة الإقدام على هذا الأمر ، وطلب منه أن يرفق بالطبقة الفقيرة من السكان (الفلاحين والعبيد) فهم يشكلون قوة لا يستهان بها ، وذلك لاستدراجهم لمساعدته في استعادة الحكم ، كذلك طلب منه توفير المال وبذله لأولئك ليضمن مساعدتهم . أعجبت (الفونس) الفكرة ولكنه خالي الوفاض لامال له بعد أن سحب من تحته عرش أسبانيا . وكان (يعقوب) الغامض، مستشار (الفونس) يسمع حديثهما دون أن ينبس ببنت شفه .

أما (رودريك) فعندما سمع كلام مستشاره (مارثين) وتلميحاته حول علاقة (الفونس) ب (فلورندا) قرر أن يذهب إلى (فلورندا) بنفسه ويطلعها على مكنونات قلبه تجاهها وسبب نقلها إلى مقرها الذي تقيم فيه ورغبته في الزواج منها . ولكن (فلورندا) عندما سمعت كلام الملك استشاطت غيظا ووبخته واتهمته بخيانة زوجه ودينه وأمانته . وتعففت فازداد تمسكا بها ، وخرج من عندها على أمل أن يعود إليها ثانية ، تكون هي قد أعادت التفكير في الموضوع الذي طرحه عليها . أما (فلورندا) فقد أرسلت إلى (الفونس) تستنجده وتخبره بورطتها مع ملك الدوله فاستشاط الآخر غيظا ، وكان عمه (أوباس) معه في تلك اللحظه فقررا معا تخليص (فلورندا) ، من فسق ذلك

الحاكم . ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟! .

وباستشارة (يعقوب) العجوز الغامض استطاع (الفونس) تدبير رجلين مخلصين يساهمان في إنقاذ (فلورندا) وهما (أجيلا) و (شانتيلا) بعد أن أغراهما بالمال والحريه . فأرسل (الفونس) جوابا على نجدة (فلورندا) بأنه قادم لإنقاذها موضحا لها خطته في ذلك .

أما (رودريك) فبعد أن رأى تمنع (فلورندا) الشديد وتعففها ، أدرك أنها معلقة القلب (بالفونس) كما لمح له (مارتين) فقرر التخلص منه بعد أن هددها بذلك إن هي تمنعت وازدادت إمعانا في ذلك . ومن ساعتها قرر إرسال (الفونس) على رأس فرقة من الجند إلى منطقة بعيدة اسمها (استجه) ولم يكن (الفونس) يستطيع الرفض وقد نصحه عمه بالإذعان لأوامر الملك حتى لايشك في إخلاصه وحتى يتمكنوا من استعادة ملك القوط . ووعده بتنفيذ خطته في تخليص (فلورندا) المسكينة من فسق الحاكم . وذهب كل إلى مهمته . أما (اوباس) فذهب مع (اجيلا) و (شانتيلا) لتنفيذ الخطة في موعدها بعد أن غادر (الفونس) إلى (استجه) .

وفي تلك الليلة يعود الملك (رودريك) إلى (فلورندا) العفيفة ويهددها ويطلب منها الرضوخ لطلبه وإلا فإن رفضها سيجر الويل والثبور عليها وعلى والدها وعلى خطيبها والقوط جميعا . ولكن (فلورندا) مازالت على موقفها . وفي تلك الأثناء حيث الملك يتجادل مع (فلورندا) حول حبه لها ورغبته في الزواج منها كان وقت تنفيذ الخطه قد حان ، ووقف الخادمان يعطيان الإشاره (لفلورنذا) وخالتها ، ولكن ما من مجيب . فعزم (أوباس) أن يخلصها بنفسه .

وهربت (فلورندا) مع (اجيلا) و (شانتيلا) بمساعدة (أوباس) . ويكتشف الملك خطة (أوباس) ولكن بعد فوات الأوان . ثم يرسل فرقة من الحرس إلى منزل (أوباس) بتهمه دبرها (مارتين) ظاهرها إلقاء القبض على (أوباس) بسبب تهديده للملك ولأمن الدوله ، وباطنها الانتقام منه ، بسبب مساعدة (فلورندا) على الهرب ، والقبض على (فلورندا) التي ظن الملك وجودها في منزل أوباس . وألقي القبض على (أوباس) وحكم عليه بالسجن .

أما (فلورندا) ومن ساعدها على الهرب فقد توجهوا بقاربهم إلى مكان آخر يحملهم خارج حدود طليطله . وقد أوصلتهم رحلتهم إلى مقر في وسط

الصحراء ، يتنسك فيه مجموعة من القساوسة الذين ارتأوا البعد عن حال المدن وفسادها . وهناك نزلوا معززين مكرمين ، خاصة وقد كان (سرجيوس) ، رئيس ذلك الدير من أصدقاء (أوباس) . وكانت (فلورندا) خالية الذهن عما حدث لخطيبها . ولكنها تعرف ماحدث لأوباس ، الذي كان قلقا عليها ، حيث لا يعرف لها مقرا ، فأخبرت (سرجيوس) بأمر سجنه وقرر رئيس الدير مساعدته في الخروج من سجنه بأي شكل من الأشكال . أما (فلورندا) فقد أرسلت خادمها (أجيلا) للبحث عن (الفونس) ومعرفة مقره .

ونجد (الفونس) عندما غادر طليطله إلى (استجه) برفقة (يعقوب) مستشاره - الذي أوصاه به (غيطشه) خيرا - تمكن من اكتشاف سره . فقد كان يعقوب يهوديا وعضوا في جمعية سرية من اليهود المضطهدين الذين قسى عليهم (رودريك) وأجبرهم على أن يرتدوا عن دينهم ، باعتناق النصرانية أو الطرد من البلاد أو القتل والتنكيل . وقد كان أفراد هذه الجمعية منتشرين في أنحاء أسبانيا - يخططون ويدبرون ويكيدون ويجمعون الذهب الأحمر من أجل بذله للإطاحة بالملك (رودريك) واسترداد حرياتهم . وسر (الفونس) بهذا الأمر واعتبره ممهدا لنجاحه في استرداد عرش أسبانيا .

في هذه الأثناء وصل جند طارق بن زياد أسبانيا عن طريق الممر الذي يقع عليه الجبل الذي أطلق عليه اسمه ودخلوا مدينة (بوتيكه).

وكانت (فلورندا) قد أرسلت (أجيلا) - كما ذكرنا - للاستفسار عن مصير (الفونس) ولإبلاغ والدها رسالة منها ، أطلعته فيها على ماجرى لها على يد الملك (رودريك) ، الأمر الذي أثار والدها وحرّقة غيرة على عرضه ورغبته في الانتقام لابنته من ذلك الملك الوغد . فأقسم أن ينضم إلى العرب ويدلهم على ماضعف من ثغرات في أرض أسبانيا لفتحها . فنزل مع العرب في (بوتيكه) وظل معهم يمهد لهم الطريق ويدلهم على أسهله لفتح أسبانيا . وكان الجميع يعرف مايتصف به العرب من تسامح وكرم في البلدان التي فتحوها . لذا كان الجميع يتوقع خيرا من وراء فتح العرب لهذه المنطقه ، وخاصة اليهود والمستضعفون من القوط . لذلك نجد (يعقوب) وجمعيته تبذل ماتملك لمساعدة هؤلاء القوم على فتح أسبانيا لتعود إليهم حرياتهم الدينية ، لقاء جزيه يدفعونها .

ووصل خبر دخول العرب أسبانيا إلى الملك (رودريك) ولكنه لم يعر النبأ

أي اهتمام وذلك بعد مشورته (لمرتين) العجوز • وظل (رودريك) على فسقه ومجونه • وعندما علم قائد قواته بنبأ دخول العرب جاء مستفسرا للملك الذي أكد له ماسمعه ، فاستشاط غيظا من هذا الإهمال وغضب من القس العجوز (مرتين) لمشورته • وخرج من مجلس الملك غاضبا متنازلا عن مهمته بعد أن أهانه (مرتين) أمام الملك واتهمه بالتعدي على (رودريك) بكلام لا يليق. ومن هنا بدأت الجفوه تظهر بين (رودريك) ومستشاره العجوز ، حيث اتهمه (رودريك) بالتسرع في إهانة قائد القوات في وقت هم في أمس الحاجة إليه ، فغضب القس (مرتين) لذلك التأنيب ، وتلك التهمة وهو الذي لم يسمع بمثلها من (رودريك) ، من قبل • وخرج من مجلس الملك تاركا إياه في حالة من القلق الشديد ، على وضع أسبانيا •

وفي تلك الليلة يصل (سرجيوس) رئيس الدير الذي تقيم فيه (فلورندا) إلى طليطله – وفي نيته إخراج (اوباس) من السجن بأي شكل – كما ذكرنا – فالتقى بالعجوز (مرتين) قبل أن يرى الملك فحكى له الأول ماجال بينه وبين الملك من خصام ، فانتهز (سرجيوس) هذه الفرصة وطلب روّية (أوباس) ، الذي منعت عنه الزيارة • فلم يمانع (مرتين) بل وجدها فرصة أن يشي بالملك أمام رئيس الدير وإعلامه أن (أوباس) قد سجن ظلما على يد (رودريك) •

ودخل (سرجيوس) على (أوباس) في سجنه فوجده مازال رابط الجأش قويا ماهزّه السجن ، ولا غير فيه شيئا ، وأخذ يحكي له ماوقع بين الملك و (مرتين) ، ثم ماحصل من أمر دخول العرب أسبانيا وترحيب الأسبان بهم ، وما وقع بين الملك وقائد قواته • وطلب منه أن يطلب استئناف الحكم – كما أشار عليه (مرتين)– لينال براءته ، وتظهر خيانة الملك للعامة والخاصه • ولكن (أوباس) لم يرض بذلك ، بل ثارت غيرته على أسبانيا من أن يحكمها أناس ليسوا من جنسهم ولا يتكلمون لغتهم ولا يدينون بدينهم • وظن أن الاتفاق على خذلان الملك في تلك الفترة ليس في مصلحة أسبانيا ، بل من الأفضل أن تجمع القوى جميعا للوقوف ضد العرب ، والحيلولة دون فتح أسبانيا على أيديهم • وطلب المثول بين يدي الملك لاطلاعه على رغبته تلك •

لم يصدق الملك ما أطلعه عليه (اوباس) من حسن نية ورغبة في إنقاذ أسبانيا ، ونسيان كل ماحصل له من ظلم ومماناله من عسف وقسوة على يد

الملك . وكانت رغبة (أوباس) ، فقط ، جمع الشمل ورتق الفتق . وعاد قائد القوات إلى رتبته وعزم الكل على مقاومة العرب . أما (مارتين) فقد زاد حقده على (أوباس) ولكنه أبطنه وظل يتربص به ليظهر للملك سوء نواياه .

وأرسل (أوباس) إلى (الفونس) يستحثه على قتال العرب . ويدعوه لذلك بالموعظة والإرشاد . وأخبره أن من الأفضل القضاء على العرب أولا من أجل القضاء على (رودريك) ، حتى لان (الفونس) ونسي ماوعد به اليهود من مساعدة العرب ، وقرر الإذعان لنصح عمه .

أما (فلورندا) فلما سمعت بذلك ، وأن خطيبها سوف يقف إلى جانب جند الملك ضد أبيها ، الذي يقف مع العرب ، خارت قواها وأيقنت أن نهايتها ونهاية أبيها أصبحت قريبة على يد الملك ، لو انتصر ، خاصة وهي تعرف شجاعة خطيبها . فماذا تفعل ؟ .

لقد جاءت جنود (رودريك) إلى منطقة (شريش) . وكانت جيوش العرب قد قربت من المنطقه ، وبرفقتهم والدها . أما هي فقد غادرت الدير ، للالتحاق بوالدها كما أراد . فقد أرسل لها والدها التاجر سليمان وطلب منه ، إحضار ابنته معه ، أما التاجر سليمان فلما شاهد جنود (رودريك) وجنود العرب خاف على (فلورندا) فذهب بها إلى كوخ لشيخ من القوط ، يسكن فيه مع أولاده وأحفاده . ثم خبأ (فلوراندا) في مستودع تابع للكوخ . ومن هناك حمَّلته (فلورندا) رساله إلى خطيبها تذكره فيها بوعده ، وحمايته لها . وتذكره بما سيؤول إليه مصيرها لو أنه ناصر جند الملك (رودريك) ، وأنها ستقتل نفسها لو أنه عزم على ماعزم عليه . ووصلت الرساله إلى (الفونس) وكانت جولة الحرب بين جند (رودريك) وطارق قد بدأت ، ولكن (الفونس) وتحت تأثير العاطفه قرر الانضمام إلى جند العرب . وخسر (رودريك) المعركة وألقى بنفسه في النهر فمات غرقا .

أما (أوباس) فقد سجن على يد (رودريك) بعد أن أوهمه (مرتين) بغدره وأنه هو الذي حث ابن أخيه على التخلي عن القتال . وقبل غرقه حصل (رودريك) على الرسالة التى أرسلتها (فلورندا) إلى (الفونس) . وعرف منها مقرها فذهب مسرعا إليها للانتقام منها ، ولكن ، وبعد أن كاد يفتك بها استطاع بدر رفيق طارق بن زياد أن ينقذها منه . ولكن ليحتفظ بها لنفسه .

وبعد أن انتهت المعركة ، وزعت الغنائم والسبايا ، وعُثر على (أوباس) مكبلا • وعندما رأى ابن أخيه وبخه على مافعله ضد أسبانيا • وذكر له أن التي خان أسبانيا من أجلها ضاعت منه • وعندما استفسر (الفونس) ذكر له (أوباس) أنه رأى فارسا من العرب يأسرها ووصفه فإذا هو بدر رفيق طارق •

وقد أصر بدر على الاحتفاظ (بفلورندا) والاقتران بها ، مما أثار حفيظة والدها • فأخذ الاثنان يتحدى أحدهما الآخر حتى وصل الأمر إلى أن طلبا المبارزه • ومن يفز تكن له (فلورندا) • وبعد أن كاد (يوليان) يقضي على (بدر) بضربة من سيفه تدخل سليمان التاجر - الذي كشف سره ليكون يهوديا - وكشف سر بدر الذي ظهر أنه ابن (يوليان) وشقيق (فلورندا)، وذلك عندما زاد اضطهاد حكام دولة أسبانيا لليهود فأراد أولئك أن ينتقموا بأي طريقة ، تعهد سليمان التاجر باختطاف ابن الكونت (يوليان) حاكم سبته وكان (طوماس) هو الضحية • فقد بيع إلى جماعة من البربر بأبخس ثمن وكان الذي اشتراه زياد والد طارق • فربي طارق وبدر كالأخوين •

أما (فلورندا) و (الفونس) فقد تم العقد لهما وتزويجهما بحضور (أوباس) الذي بارك الزواج من البدايه • وظلا فى حماية المسلمين معززين مكرمين ، كما ظل (الفونس) و (يوليان) عونا لطارق وجنده حتي أتم فتح أرض الأندلس كلها • أما يعقوب الذي أظهر حقيقته أمام الجميع فقد انقطع هو و (أوباس) ، كل في دير خاص بديانته للعباده والتنسك وترك امور الدوله الدنيوية لأهلها •

هكذا نجد أن حبكة هذه الروايه أكثر تماسكا[1] من بقية حبكات روايات زيدان لأسباب كثيرة أولها : عدم اعتماد الكاتب على الاستخدام

---

(١) إن هذا التماسك ليس وليد اهتمام أو وعي أو تجربه • وإنما هو وليد صدفه • بدليل أن ماصدر بعد هذه الرواية من روايات تاريخية كانت أقل تماسكا ومليئة بالثغرات التى تفاداها في هذه الروايه • حتى آخر روايه له (شجرة الدر) وهي التي يفترض أن تمثل زبدة تجربة زيدان الروائية إلا أنها كانت تعج بالثغرات •

الحرفي للنصوص التاريخية • ثانيها : جعل الحدث التاريخي حدثا من ضمن الأحداث التي يتعين على القارىء الاقتناع بها ، إذ أنه لم يسلط الضوء بشكل قوي على دقائق وتفاصيل الأمور • ثالثها : إن المؤلف في هذه الرواية ركز على ماعم من الأحداث على جميع المستويات الاجتماعية والدينية والسياسية والحربية

هذا لايعني خلو الرواية من الضعف ، الذي أصاب بقية روايات زيدان • فالمؤلف لا يفتأ يتدخل ويدس أنفه في كل موقف يعلل ويشرح ويفسر للقارىء الذي افترض فيه السذاجة والبساطه[1] •

وللأسف الشديد نجد هذا التدخل يؤثر على سير وتحرك الشخصيات ، فالمؤلف يفرض عليهم حصارا ، ويكبلهم بأفكاره وعباراته ، فلا يستطيعون اثبات وجودهم كشخصيات روائية قديرة وجديره بثقة القارىء واهتمامه • وتدخل المؤلف الدائم ليس له معنى سوى عدم الثقة في قدرة شخصياته الروائية لايصال مايريدون للقارىء • وفي هذا نزول بمستوى الشخصية والرواية وازدراء لشخصية القارىء ! •

أثر السير ولتر سكوت على رواية فتح الأندلس

تظهر للقارىء ، محاولة المؤلف الاستفادة من روايات سكوت وخاصة رواية (ايفانهو) في وصف وضع اليهود في العصور الوسطى مع النصارى والمسلمين آنذاك • وكيف أن اليهود كانوا يفضلون مجاورة المسلمين على مجاورة النصارى • هذه الحقيقة التاريخية نجدها في رواية (ايفانهو) جلية واضحة مفصلة • كذلك الأمر فى رواية (فتح الأندلس) • فقد أشار زيدان إلى ذلك الحال مرارا وتكرارا في أكثر من مكان في الروايه ، ولكن يظل الفارق بين المؤلفين عظيما • والسبب واضح ، فإذا كان سكوت يعبر عن تلك الحقيقة التاريخية من خلال مواقف درامية روائية حية ومتحركة ، فإن زيدان يشير إليها باشارات جامدة ونصوص واحدة متكررة لاترى غيرها • فيظل اليهودي المضطهد يردد العبارات نفسها ويشكو ذات الشكوى طوال الروايه • وهو فرق ليس من الممكن إغفاله •

---

(١) جرجي زيدان ، طارق بن زياد (فتح الاندلس) صـ ٢٥ ، صـ ٤٥ ، صـ ١٠٣ ـ وغيره

نضرب مثالا لذلك • عندما يريد المؤلف أن يعبر عن اضطهاد النصارى لليهود واحتقارهم لهم في العصور الوسطى - يقول على لسان اليهودي مانصه :

لا يخفى على مولاي الأسقف ما قاساه اليهود في أسبانيا من ظلم حكامهم القوط من صنوف الاضطهاد والجور حتى أجبروهم أخيرا على النصرانية أو يرحلوا من بلادهم • فكان منهم من رحل ومنهم من تظاهر بالنصرانية وبقي في البلاد يسعى إلى افساد أمرها على الحكومه[١] •

نعم ، هذه حقيقة تاريخية أشار إلى مثلها سكوت فى روايته (ايفانهو) ولكن ماذا فعل زيدان الروائي بهذه الحقيقة؟ كيف ترجمها لتصير موقفا روائيا حيا؟ الحقيقة ، أن زيدان ، لم يصنع شيئا ، كل مافي الأمر أنه نقلها بنصها وحقيقتها التاريخية الجافة الجامدة على لسان إحدى الشخصيات •

الفرق كبير - كما ذكرنا سابقا - بين زيدان وسكوت في هذا الصدد ، لأن سكوت ترجم تلك الحقائق التاريخية إلى مواقف حية كثيرة ومتنوعة • وكانت تلك المواقف المتنوعة المتحركة في مجموعها تمثل حقيقة تاريخية يستشفها القارئ ويعيها •

من ذلك موقف اسحاق اليهودي الذي جاء يطلب ملاذا-من ريح قوية ستهب على المنطقة -في قلعة (سيدريك) ، وقد وجد هناك فرسان المعبد الذين قدموا للسبب نفسه ، فما أن عرفوا أنه اليهودي ، حتى :

أشار الحضور بأيديهم إشارة التعوذ برسم الصليب على صدورهم ، وارتسمت على محياهم ملامح خوف ديني ..[٢] •

وعندما اعترض هؤلاء الضيوف على (سيدريك) السكسوني النصراني الذي لم يراع مشاعرهم الدينية ، قال لهم (سيدريك) :

لن أجبر أحدا على عدم التحدث معه أو مشاركته الطعام وسآمر له بطاولة ولقمة يأكلها بعيدا عن هنا[٣] •

وفى حلقة آشبي تعرض اسحاق اليهودي وابنته إلى جميع أنواع الازدراء

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٨٠ ، ص ٩٣

(٢) Scott., Ivanhoe., Ch.5. P.50.

(٣) Ibid., Ch.5, P.49.

والاحتقار من جميع طبقات المجتمع ، يشتمه أحد المتفرجين قائلا :

أيها[1] ~ الكافر ~ هل تتجرأ بلمس رجل نصراني نورماندي ينحدر من سلالة عريقة[2].

وإذا قرأنا الفصل السابع من الرواية وجدناه حافلا بأنواع من المواقف التى تظهر احتقار النصراني لليهودي واضطهاده إياه وإجباره في بعض الأحيان لاعتناق النصرانية . يقول قائد فرسان المعبد مهددا (ربيكا) اليهودية :

إن شيئا واحدا فقط سينقذك من يدي ، ياربيكا ، استسلمي لقدرك ، واعتنقي ديننا ، وسوف تنالين ما تتمتع به الكثير من الفتيات النورمانديات ..[3]

--- --- ---

وهناك حقيقة تاريخية أخرى أشار إليها المؤلفان (سكوت وزيدان) وهي تسامح الفاتحين العرب مع الأجناس الأخرى ومنح الحريات الدينية لكل طائفة من الطوائف الدينية . ولكن يظل الفرق واضحا - كما أشرنا سابقا - وهو أن سكوت يمنح الحقيقة الجامده قدرة تجعلها تتحرك في حرية ويلبسها ثوبا فضفاضا حتى تبدو أمام القارئ واقعا يعيشه ويتصوره . أما زيدان ، فلا يزيد عن أن ينقل الحقيقة التاريخية كما هي ويقدمها عارية ، وان ألبسها شيئا فهو انما يلبسها ثوبا ضيقا شفافا يشفعن هيكلها الأصلي المنقول من كتب التراث . وفرق بين أن يعيش القارئ الحقيقة ويستنتجها من المواقف التى يراها ، وبين أن يقرأها ويبلعها جامدة متحجرة كما وردت في كتب التراث !! .

يقول زيدان في هذا الصدد وهو يلقي بهذه الحقيقة على لسان رئيس الجمعية السرية اليهودية في استجه :

.... ومع كل ذلك فإن الرعايا من اليهود والنصارى أحسن حالا تحت سلطان العرب منهم تحت سواه[4].

لذلك نجد اليهود فى رواية (فتح الاندلس) يساعدون العرب على دخول الأندلس . ويساعدون أعداء (رودريك) على الوقوف ضده لتسهيل مهمة العرب .

---

(١) كلام لا يستحب ذكره (~)

(٢) *Ibid., Ch.9, P.79.*

(٣) *Ibid., Ch.24, P.251.*

(٤) جرجي زيدان ، فتح الأندلس ، صـ ٩٤

أما سكوت فهو يصور يهودية (ربيكا) تعاني الأمرين ممن يدعون أنهم نصارى . حتى أنها في النهاية وبعد أن ثبتت براءتها أمام الجميع - بعد طول معاناة عشناها مع (ربيكا) في الرواية - نجدها في النهاية تفضل الخروج - مع والدها - من انجلترا لتذهب إلى أسبانيا حيث يحكم المسلمون العرب الذين هم - على لسانها - أرحم مائة مرة من هؤلاء النصارى وأكثر رأفة منهم على اليهود وغيرهم ، وفي حوار بين (ربيكا) و (راوينا) زوجة (ايفانهو) حول هذا الموضوع تظهر هذه الحقيقة جلية :

- ستغادرين انجلترا ، إذن ؟
- ساغادرها ياسيدتي قبل أن يتغير شكل هذا القمر .
إن لوالدي أخا . له علاقة جد طيبه مع محمد بوعبدالله ملك غرناطة . وإلى هناك سنذهب . ونعيش آمنين مطمئنين ندفع مقابل ذلك ، الجزية التي يفرضها المسلمون على أمثالنا .
- وهل أنت غير آمنه في انجلترا؟ إن زوجي له علاقة طيبة بالملك[1] ، والملك نفسه رجل عادل وكريم .
- أنا لا أشك في ذلك ياسيدتي ، ولكن شعب انجلترا أناس قساة يتشاجرون مع جيرانهم أو حتى مع بعضهم البعض، وهم لا يتورعون عن غرس سيوفهم في بطون بعضهم البعض . مكان كهذا غير آمن لأبناء جلدتي ...[2].

وهناك حقيقة تاريخية ثالثة أثبتها التاريخ صفة من صفات هؤلاء اليهود التي كانت - ومازالت - وهي حقيقة حب المال وجمعه . أشار إليها كل من سكوت وزيدان ، ولكن سكوت أضاف إليها صفة البخل ليكوّنا معا حقيقة واقعية للشعب اليهودي،وترجمها في شخصية اسحاق فى رواية (ايفانهو) ، وفي مواقف وأحداث كانت شخصية اسحاق جزءً مهما فيها ، حتى بدت تلك الحقيقة حية مثيرة ملموسة .

ففى موقف يقوم فيه اسحاق اليهودي بعد النقود التي أحضرها (جورث) خادم

---

(١) ريتشارد قلب الأسد

(٢) Scott., Ivanhoe. Ch. XIIV, P.516.

(ايفانهو) ، مقابل الفرس والدروع ، التي وفرها له اسحاق ، وكان (جورث) ينتظر مكافأة على احضاره النقود :

واحد وسبعون ، اثنان وسبعون ، إن سيدك شاب طيب ، ثلاث وسبعون ، شاب ممتاز ، أربع وسبعون لقد التصقت تلك القطعه بالخاتم ، خمس وسبعون ، وهذا يبدو خفيف الوزن ست وسبعون ، عندما يريد سيدك نقودا دعه يأتي إلى اسحاق يورك ، سبع وسبعون ، نعم وعليه الأمان . وهنا توقف للحظات وقد ظن (جورث) بأن الثلاث قطع الأخيرة ستكون من نصيبه ولكن العد استمر ثمان وسبعون . إنك فتى طيب ، تسع وسبعون ، وتستحق شيئا لنفسك ..(١) .

ولكن في النهاية ، لم يحظ (جورث) بشيء مطلقا . لقد كان اسحاق بخيلا إلى درجة كبيرة .

وفي مكان آخر من الرواية نفسها ، نجده يقول لابنته التي صممت على مغادرة انجلترا لما لحقها فيها من إهانة واحتقار :

دعينا نقيم هنا يا ابنتي ، دعينا . إنه(٢) سيحتاج إلى المال ، فهو عائد لتوه من فلسطين ـ وكما يقولون من السجن ، وسينزع إلى أخذه ، وقد يحتاج إلى شيء منه فتنمو تجارتي ...(٣) .

والرواية مليئة بالمواقف والصور التي تظهر حب اليهود للمال وبخلهم في إنفاقه .

وفي المقابل نجد زيدان قد اكتفى ـ كعادته ـ بموقف واحد متكرر على لسان شخصية ما . وفي كلام سليمان التاجر اليهودي نجد هذه الحقيقة جافة جامدة كجمودها في كتب التراث :

وكنت أنا في أثناء ذلك الحصار في قصر يوليان أجالسه كثيرا وهو يركن إلي ويقربني منه لغناي ولسعة تجارتي لعله يحتاج إلى مال أو مؤونه في أثناء الحصار ..(٤) .

هذا ما نجده في روايات زيدان ، نصوص وعبارات وألفاظ بعيدة عن المواقف والأحداث الحية المتحركة .

---

(١) Scott., Ivanhoe. Ch.10, P.120.

(٢) الملك ريتشارد العائد من فلسطين والخارج من سجن دون النمسا

(٣) Scott., Ivanhoe, Ch.XLIII, P.210.

(٤) جرجي زيدان ، فتح الأندلس ، ص ٩٥ ، وانظر ص ٨٨ ـ ٨٩ أيضا .

الفصل السادس

أرمانوسة المصريه (١)

العمل الروائي :

يحكي قصة فتح مصر والاسكندرية على يد عمرو بن العاص في عهد عمر بن الخطاب .

الحبكة :

تدور الحبكة حول فتح عمرو بن العاص لمصر . يلفُّها قصة عاطفية خيالية من وحي المؤلف . وهي قصة (أرمانوسه) بنت (المقوقس) حاكم مصر . وقد كانت مخطوبة لـ (قسطنطين بن هرقل) ملك الروم . ولكنها كانت معلقة القلب بـ (اركاديوس) بن الأعيرج أحد كبار قواد الروم .

وتدور أحداث الربع الأول من الرواية حول هذا الموضوع وكدر أرمانوسه عند التفكير في الارتباط بابن ملك الروم الذي وافق والدها على اقترانها به ولم يبق سوى تجهيزها . وإرسالها لخطيبها قسطنطين بن هرقل .

وفي الربع الثاني من الرواية تكتشف أرمانوسه بواسطة خادمتها ومربيتها (بارباره) أن (أركاديوس) يبادلها المشاعر نفسها، فتزداد تعلقا به ورفضا لابن هرقل . ولكن هناك عقبة أمام هذه العواطف : إنها العداء المستحكم بين الأقباط ويمثلهم والد أرمانوسه ، والروم ممثلين في والد اركاديوس . ومن هنا تبدأ أحداث النصف الثاني من الرواية ، وهو جوهر الرواية .

فالمقوقس والد أرمانوسه يكره الروم ، الذين دخلوا مصر منتصرين فهدموا الكنائس القبطية ، وأذلوا رجال الدين من الأقباط ، وخربوا ونهبوا وسلبوا وعاثوا في مصر فسادا . فكان شديد الحزن على ماحل بالأقباط من اضطهاد الروم . ولكن لا سبيل إلى المقاومة والروم أشداء أقوياء وملوك زمانهم . فكان عليه أن يتحين الفرصة للتخلص من هذا الحكم الجائر ، إلى أن علم برغبة المسلمين في فتح مصر ، رحب بهم وراسلهم في السر من أجل تذليل الصعاب لدخول مصر ، خاصة ، وقد علم فيهم أهل مروءة وشهامة وكرم . وكان الأعيرج قائد الروم وابنه على علم بما يفعله المقوقس ، ولكن لم يكن لديهم الدليل

---

(١) صدرت عام ١٨٩٥ - ١٨٩٦

لإثبات التهمة عليه ، لذلك ظل الكره مستحكما في نفوس الروم ضد المقوقس . فكيف السبيل إلى ارتباط ارمانوسه ابنة المقوقس باركاديوس ابن الأعيرج ، وقد أقسم كل منهما أن لايكون إلا للآخر . وهذه أرمانوسه قد خطبت لابن هرقل ؟! إذن على أركاديوس أن يتحرك دفاعا عن حبه . وهكذا يبدأ صراعه بين عاطفته وواجبه ، حبه لأرمانوسه وواجبه تجاه القسطنطينية بكشف خيانة والدها وإيقافه عند حده .

ويتولى (اركاديوس) الدفاع عن حصن بابليون ، ويتخذ من بيت الراهبات القبطيات مركزا الدفاع عنه بعد أن يطردهن من مقر إقامتهن . وهنا يتدخل شقيق أرمانوسه من أجل تأمين مقر آخر للراهبات القبطيات . ويوافق (اركاديوس) وذلك تقربا من (أرسطوليس) شقيق أرمانوسه . وهنا تستطيع (باربارة) خادمة (أرمانوسه) أن تقوم بمهمة البريد في توصيل رسائل الطرفين ، فعندما أمر والد (أرمانوسه) بذهابها إلى عين شمس ومن ثم إلى بلبيس ليتم زفافها إلى ابن هرقل ، أرسلت (أرمانوسه) (باربارة) إلى (أركاديوس) لتخبره بما سيحصل كي يفعل شيئا لإنقاذها . أما (أركاديوس) فقد كان يعاني الأمرين . فهو قائد الحامية في بابليون للدفاع عنها ، وفي الوقت نفسه هو يحب أرمانوسه . والعرب قادمون نحو مصر . فماذا يفعل وقد أقسم على تخليص (أرمانوسه) حتى من يد ابن الأمبراطور ؟! .

في هذه الأثناء قدم العرب إلى بلبيس وفتحوها كما فتحوا الفرما من قبل وتوجهوا إلى عين شمس . وكان (اركاديوس) في حالة من القلق على (أرمانوسه) شديدة ، خاصة ، بعد أن أرسلت إليه خادمها (مرقس) يخبره بقدوم البطريق (يوقنا) صاحب حلب بأمر من (قسطنطين بن هرقل) بنقل عروسه إليه . ما أن سمع بهذا حتى خرج في ليلته تلك من الحصن متوجها إلى بلبيس لإنقاذ (أرمانوسه) . وفي الطريق عرف أن (قسطنطين بن هرقل) قد مات وأن البطريق (يوقنا) صاحب حلب أراد أن تكون (أرمانوسه) له ، فزور خطابا من ابن هرقل من أجل اصطحابها . وعرف أن الذي أنقذ (أرمانوسه) ماهو إلا عمرو بن العاص ، الأمير العربي ، بعد أن أخبره (مرقس) بما يعرف عن خيانة صاحب حلب. واجتمع بارمانوسه لأول مره . وتعاهدا على الوفاء ، وفي أثناء إقامته عند ارمانوسه ، كان العرب قد دخلوا بلبيس فاتحين . فوقع هو أسيرا لديهم . ولم يبق أمامهم ، سوى حصن بابليون والاسكندرية . وكان (أركاديوس) قد تأكد من مساعدة والد أرمانوسه للعرب فى دخولهم الفرما وبلبيس . فحقد عليه كما

كما كان والده كذلك . وقد استطاع (اركاديوس) بمساعدة أحد الأشخاص (زياد العربي) من أن يفلت من الأسر . ويسرع إلى حصن بابليون ، حيث ، وجد والده في أشد حالات القلق عليه وعلى الوضع . فلفق له (اركاديوس) سببا لغيابه ، وأقنعه به . وظل فكره مشغولا بخيانة المقوقس للروم وصلته بابنته . وكانت (ارمانوسه) قد اتفقت مع (مرقس) خادمها على حماية (اركاديوس) من فتك العرب به ، خاصة وهي تعلم بخطط والدها في تسهيل أمر دخول العرب مصر . ففي الليلة التي علمت بأن العرب سيدخلون بابليون عنوة ، أرسلت (مرقس) إلى (اركاديوس) برسالة تستنجده فيها . فلم يتردد (اركاديوس) ، بل خرج مسرعا إليها . ولكنه فوجيء بان العرب اقتحمت المدينة . ودخلوا الحصن فغضب (اركاديوس) أشد الغضب ، خاصة عندما اكتشف أن الرسالة تلك كانت خدعة من (ارمانوسه) ، من أجل أن تراه فقط . ولام نفسه أشد اللوم لتخلّيه عن واجبه تجاه وطنه . وفي هذه الظروف تمَّ زواج (اركاديوس) بأرمانوسه في الخفاء . دون علم والدها ، أو أيّ من أهلها . يفاجئها والدها بطلب مرافقته إلى الاسكندرية ، حيث سيضمن لها مكانا آمنا تقيم فيه ريثما ينتهي العرب من فتح الاسكندرية . ويذهب الجميع إلى الاسكندريه ، دون أن تخبر والدها بما أقدمت عليه . وحاصر العرب الاسكندرية لفترة طويلة وكان (اركاديوس) من ضمن المدافعين عنها بعلم (أرمانوسه) . وفي أثناء الحصار وقع الأمير عمرو بن العاص في الأسر بيد قائد منطقة الاسكندرية الرومي . وكان (اركاديوس) قد عرفه فأبت عليه مروءته إفشاء أمره ، خاصة ، وأنه كان متنكرا . فأسرها ابن العاص في نفسه . واعتبر ذلك الموقف جميلا لابد من مكافأة (اركاديوس) عليه . وفي الليلة التي عرفت (ارمانوسه) أن العرب سيهجمون على أسوار الاسكندرية ، ويدخلونها فاتحين ، أرسلت إلى (اركاديوس) تطلب ضرورة القدوم لأداء الصلاة معا . ولكنه أبى هذه المره محتجا بتمسكه بأداء واجبه . ولكن العرب دخلوا الاسكندرية وفر منها جميع من بداخلها من جنود وقواد ولم يبق سواه . فدخل عليه عمرو بن العاص وأمَّنه وذكر له الجميل الذي قدمه إليه سابقا ، ثم جمعه بأرمانوسه وهناك تصافت القلوب . وطابت نفسه للإقامة في الاسكندرية مع زوجته (ارمانوسه) واقتنع بأسباب خيانة المقوقس للروم ومساعدته للعرب .

فى رواية أرمانوسه المصرية تكلّف الكاتب أيّما تكلُّف من أجل طرح أحداث فتح عمرو بن العاص لمصر في عهد عمر بن الخطاب . فقد اختلق قصة أرمانوسه

المصرية العاطفية مع أركاديوس الروماني ليبين كثيرا من أوجه العداء بين الأقباط والروم وأسباب ذلك العداء . وتكلف أيضا في اختلاق قصة مرقس المصري العاطفية مع ماريه في مدينة بلبيس ليشير إلى بعض عادات المصريين في ذلك الوقت مثل عادة فتاة النيل وهي العادة التي تلقى فيها فتاة في ريعان شبابها وفي أجمل حليها لتكون أضحية لنهر النيل ليتم رضاه ويفيض الماء ليسقي الأرض .

وتعتبر رواية (أرمانوسة المصرية) من أكثر روايات جرجي زيدان ميلا إلى الخيال ، وأقلها تسجيلا للحوادث التاريخية . فكثير من الأحداث ـ كما ذكرنا سابقا ـ كانت من خيال الكاتب كذلك النصوص : فلم يعتمد الكاتب على تسجيلها كما وردت في كتب التراث ، كما هي عادته في بقية الروايات .

ولقد كان يتمتع بدرجة من الذكاء جعلته يصف العرب بصفات حميده جعلتهم أهلا لثقة المقوقس ورجال الدين الأقباط ، وذلك لكي يصل إلى نقطة مهمة وهي : أن عمرو بن العاص ماكان ليفتح مصر لولا مساعدة المقوقس له . فالمقوقس مهد للعرب دخول الفرما وبلبيس ، والمقوقس تقدم جنود العرب لكي يمهد لهم السبيل للوصول إلى الاسكندرية !!

أثر السير ولتر سكوت على رواية (أرمانوسه المصرية)

هناك نقطتا التقاء بين روايات سكوت (ايفانهو) ورواية زيدان هذه . فهناك وجه شبه بين موقف اليهودي اسحاق من الحاج (ايفانهو) وبين موقف وردان خادم عمرو بن العاص من اركاديوس ابن الأعيرج في رواية (أرمانوسه المصريه). فاسحاق اليهودي يكتشف أصل الحاج ، وحقيقته وأنه بطل من الأبطال ونبيل من النبلاء بواسطة سلسلة ذهبية لمحهاتتدلي من عنقه تحت ثيابه . كذلك (وردان) خادم عمرو بن العاص ، فقد اكتشف حقيقة (اركاديوس) بواسطة سلسلة ثمينة تدلت من عنقه .

وفي حوار في رواية (ارمانوسه المصرية) بين (اركاديوس) و (وردان) ، يقول اركاديوس :

... لاحاجة بي إلى رحمتكم فاصنعوا ماشئتم وكفى .

فازداد وردان إعجابا به ، وأيقن أنه من خاصة الروم ، وجعل ينظر في لباسه ويتأمله ، فرأى فى عنقه سلسلة ثمينة من الذهب لا يتأتى لمن كان في مثل لباسه أن يتقلدها . وقام في نفسه أنه من كبار القواد.. الخ النص[(١)]

وفي رواية (ايفانهو) يسأل الحاج أو (ايفانهو) اسحاق :

كيف عرفت أني من النبلاء وذوي الشأن؟ أجاب اليهودي : أعذرني ياسيدي ، اندفعت في الحديث ، ولكن تساقطت منك كلمات الليلة الماضية ، وهذا الصباح ، كانت كالشرر من القداحه أرتني معدنك . وفي صدر عباءة الحاج تلك اختفت سلسلة الفارس وجذع من ذهبَ . تدليا عندما انحنيت على سريري هذا الصباح .[(٢)]

وهناك نقطة التقاء أخرى بين هذه الرواية ورواية (الطلسم) لسكوت . حيث نجد زيدان يصف طعام مرقس المكون من تمر وخبز ، ونجد ـ قبله ـ سكوت يصف طعام (شيركوف) المكون من حفنة من تمر وقطع من الخبز . يصف زيدان طعام مرقس فيقول:

بات مرقس تلك الليلة في مكان بالقرب من بلبيس استعدادا للسفر باكرا ، فلما طلع الفجر نهض وسار حاملا ثياب البدو وبعض الزاد ليتغذى به إذا جاع وفيه تمر جاف وبعض الخبز... فجلس تحت نخلة يتناول بعض التمر من جرابه ، فلاحت منه التفاته في عرض تلك الصحراء فإذا بنار تضيء ...[(٣)]

ويصف سكوت ، طعام العربي المجاهد في عرض الصحراء قائلا :

... ولكن وجبة المسلم كانت تميل إلى الاعتدال ، حيث كانت حفنة من التمر ، ولقمة من خبز جاف كافية لاشباع جوعه .. ثم جرعات قليلة من ذلك النبع الصافي ، الذي استراحا بجانبه أكمل بها وجبته .[(٤)]

لاشك أن زيدان تأثر بهذا الوصف فاقتبسه ليصف به مرقس وهو في عرض الصحراء.

---

(١) جرجي زيدان ، أرمانوسة المصرية ، صـ ١٢١

(٢) Scott., Ivanhoe., Ch.6, P.72.

(٣) جرجي زيدان ، ارمانوسة المصرية ، صـ ٥٨

(٤) Scott., The Talisman., Ch.2, P.18.

الفصل السابع

روايات أخرى

أثر سكوت العام على روايات زيدان

هناك أثر عام تركه سكوت على بعض روايات زيدان . من ذلك وصف النساك. يقول زيدان في رواية (فتاة غسان) وهو يصف ناسكا من النسّاك المنقطعين للعباده في مناطق نائية بعيدة :

فهم حماد يشد الجواد إلى صخر والدخول إلى المغارة بنفسه . وفيما هو يهم بذلك ظهر له شبح خارجا من ظلمة ذلك الكهف لا يسمع لأقدامه وقع فثبت حماد قدمه وتحفز للدفاع إذا اقتضت الحال . فلم يكد يفعل حتى وصل ذلك الشبح إليه فإذا هو رجل يكسوه شعر رأسه المسترسل إلى قدميه وقد علاه الشيب ، على أن الكبر لم يغير شيئا من اعتدال قامة الرجل ورشاقة حركته وحدة بصره وإن يكن جلد وجهه قد تجعد وشعر حاجبيه وشاربيه قد طال وشعر صدره أصبح لغضه وبياضه كأنه زبد الصابون ، وطالت أظافر يديه ورجليه .

فلم يكد نظر حماد يقع عليه حتى هاب منظره ، ولو لم ير في يده صليبا كبيرا لخيل إليه أنه من مردة الجان . ولكنه أدرك لأول وهلة أن الرجل ناسك من نساك تلك الأيام انقطع عن العالم وآوى إلى الكهوف التماسا للعبادة [1] .

وفي حوار جرى بين (شيركوف) المجاهد المسلم وبين السير (كينيث) الليوباردي الذي جاء للبحث عن معبد ناسك انجادي . فظهر له الناسك في صورة لم يكن يتوقعها :

- استحلفك بالشرف أن تصارحني ، إني أعتقد أن هذا الشخص الغريب الذي رأيناه شيطان . وينحدر من سلالتك [2] لا أدري أي

---

(١) جرجي زيدان ، فتاة غسان ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠

(٢) وكان سكوت قد ذكر في روايته أن (شيركوف) ينحدر من أصل الجان .

سر عائلي تتبادلانه عندما كنتما تتدحرجان سويا على الرمال .

– ... ... اعلم أن الذي رأيت من شناعة ووحشية هاماكو ، ينحدر من سلالتكم أكثر من سلالتي .
إن هذا الـ (هاماكو) هو الناسك الذي تبحث عنه لزيارته .

– هذا ! هذا ! إنك تمزح أيها المسلم – هذا لايمكن أن يكون المبجل شيودريك .(١)

وفي مكان لاحق ، عقب تمكن السير (كينيث) ورفيقه من الوصول إلى الكهف ، وظهر لهم الناسك في صورته العادية ، يتابع المؤلف وصفه قائلا :

ومازلنا نسلم بأن حجمه الضخم ، وطول شعر رأسه ولحيته واتقاد النار من حدقتي عينيه المتوحشتين كانت صفات تناسب جنديا أكثر من ناسك .(٢)

___ ___ ___

وفي رواية أخرى لسكوت وهي (ايفانهو) يظهر الناسك في وضع كوميدي . حيث يُظهر انقطاعه للعبادة وابتعاده عن ملذات الحياة ، ويدس في كوخه مالذ وطاب من الأطعمة والأشربه .

كذلك نجد الضحاك الذي تخفى في شخصية صالح ثم في شخصية ناسك من النساك وأولياء الله المنقطعين للعبادة ، يُظهر ذلك ويخفي حبه للدنيا .

يقول زيدان وهو يصف الناسك مدعي التنسك :-

... فلما فرغ(٣) من العشاء . قعد في حجرته يتوقع أن يأتيه بعض أهل الإمام للاستشاره بعد أن تحققوا صدق نبوّته ، وإذا بخادمه سليمان قد دخل يقول : إن بالباب رجلا شريفا يود أن يراك . فتظاهر بعدم رغبته في لقاء أحد في تلك الساعة لاشتغاله بالصلاه .(٤)

---

(١) Scott., The Talisman., Ch.3, P.43.
(٢) Ibid., Ch.3, P.37.
(٣) الناسك .
(٤) جرجي زيدان ، أبومسلم الخرساني ، ص ١٣٦

ويقول سكوت في الفصل السادس عشر من رواية (ايفانهو) وهو يصف حال ناسك يدعي التنسك ، وقد كان الفارس الأسود يبحث عن ملجأ يقيه من غوائل الليل المقبل ، في تلك المنطقة المنقطعة فلم يجد سوى كوخ هذا الناسك ، فلما طرق بابه ، لم يفتح له الناسك وزعم أنه مشغول بالعبادة والصلاه :

- ولكن كيف ، مستحيل أن أستطيع العثور على طريقي في غابة كهذه ، والليل مقبل؟ أتوسل إليك أيها الأب المبجل ، بدينك النصراني أن تفتح لي ، وأرشدني على الأقل إلى الطريق الصحيح •

- وأنا أتوسل إليك أيها الأخ النصراني الطيب أن لاتزعجني أكثر • فقد قطعت علي صلاة كنت قد نذرتها قبل أن يطلع القمر • ••[1]

وفي النهاية وبعد أن دخل الفارس الأسود عنوة برغم إرادة الناسك وجدنا أن ناسك (كومبان هورست) هذا ، كان من أنصار (روبن هود) أو (لوكسلي) السكسوني • وهو مدع للتنسك لأنه يظهر غير مايبطن •

ومن مظاهر الأثر العام الذي تركه سكوت على روايات زيدان : محاولة الإشارة إلى بعض أنواع الرياضه والألعاب الشائعة في كل عصر ووصفها •

فنجد مثلا السير ولتر سكوت يشير في روايته (ايفانهو) إلى فنون رياضية عرفت في انجلترا في العصور الوسطى • وهي فن المبارزة ، ورمي السهام • فوصف هذه الفنون وصفا حيا في أكثر من فصل[2] في احتفالات حلقة (اشبي) • وقدم صورة شاملة متكاملة عن هذه الفنون •

كذلك نجده يشير إلى رياضة أخرى من أنواع فنون الرياضه المعروفة في العصور الوسطى وهي : الصيد بالصقور • وكان ذلك فى رواية (المخطوبة) حيث أخذنا في رحلة منذ الصباح الباكر برفقة : تاجر الصقور ، و (افيلين) ، ومدام (جيلان) وزوجها (راول) • وشغل المؤلف فصلا كاملا[3] يصف هذه الرياضه

---

(١) Scott., Ivanhoe. Ch.16. P.175.

(٢) استمر الوصف من الفصل السابع إلى الفصل الثالث عشر في الرواية •

(٣) الفصل الثالث والعشرون •

في مواقف حسية متحركة .

وبالمقابل نجد زيدان يحاول المحاولة نفسها في تسجيل أنواع فنون الرياضه المعروفة في عصر من العصور . فمثلا نجده في رواية (غادة كربلاء) يحاول أن يسجل فنا من فنون الرياضه الذي عرف في عهد خلفاء بني أميه وهو : الصيد بالفهود والصقور والبزاة والعقبان[1].

ولكنه فشل في الوصول إلى مهارة سكوت في تصوير هذه الفنون تصويرا حيا . وإنما اكتفى بتسجيل ماعرفه وقرأه في كتب التراث فقط .

كذلك نجد زيدان يحاول أن يسجل نوعا من أنواع فنون الرياضه في عصر الرشيد وهو اللعب بالكرة الذهبية والصولجان ، في رواية (العباسه أخت الرشيد)[2] . محاكاة للسير ولتر سكوت فى رواياته ، ولكنه فشل أيضا ، وجاءت الصور باهته غير حيه .

---

(١) جرجي زيدان ، غادة كربلاء ، صـ ٢٨ – ٢٩

(٢) جرجي زيدان ، العباسة اخت الرشيد ، صـ ٣٤ – ٣٥

الخـــــــــــــاتمة

... وبعد ذلك العرض المفصّل الذي اقتضته الدراسة في موضوع : (الرواية التاريخية عند السير ولتر سكوت وجرجي زيدان - دراسة مقارنة) ، وبعد ذلك التحليل النقدي الذي شمل روايات (ايفانهو والطلسم والمخطوبة) . ثم روايات زيدان التي ظهر عليها بصمات سكوت ، وبالبحث والمقارنة وجدنا :

أولا : أن كلا المؤلفين يعتبران من السبّاقين في كتابة الرواية التاريخية في أدبه . ولكن سكوت - بالطبع - كان له السبق الزمني الفني . وجاء زيدان بعده بقرن من الزمان ويزيد ، فقرأ له وتأثر به ، ولكن - للأسف - لم يستطع أن يستفيد من تجربة سكوت الروائية ، لأن ، اقتناعه التام بالهدف التعليمي الذي يريد الوصول إليه بأي طريقة وبأي ثمن اعماه عن إدراك ماهية الفن الروائي عند سكوت ، وشده بعيدا عن الأصول الفنية التي وجدناها متمثلة في روايات الأول .

ثانيا : أنه بعد الدراسة والمقارنه وجدنا - أيضا - أن كلا من المؤلفين اشتركا في اصدار عدد كبير من الروايات التاريخية . فقد أصدر سكوت سبعا وعشرين رواية خلال خمسة عشر عاما . وأصدر زيدان اثنتين وعشرين رواية (منها ثمان عشرة رواية تاريخية) خلال اثنتين وعشرين سنة .

ثالثا : توصلنا إلى أن سكوت صور الشرق في رواية الطلسم دون أن يراه أو يحتك بأهله وكذلك فعل زيدان .

رابعا : وجدنا أن سكوت كان قد استفاد من تجارب الذين سبقوه في كتابة الرواية في انجلترا . أما زيدان فقد افتقد النموذج العربي الجاد الذي يحاكى .

خامسا : وجدنا أن زيدان تعمّد اختيار فترات تاريخية ضعف فيها المسلمون لانشغال ولاة أمورهم بأمور الدنيا .

سادسا : وجدنا أن اهتمام زيدان بعنصر الحقائق التاريخية والدقة في تدوينها قد فاق كثيرا اهتمامه بالعناصر الفنية في كتابة الرواية ، بدليل تصدير رواياته التاريخية بقائمة من المصادر

والمراجع التاريخية التي اعتمد عليها في كتابة الرواية .

سابعا : توصلنا - بعد الدراسة - إلى أوجه الالتقاء التي شملت بعض المواقف الروائية ورسم بعض الشخصيات . وسجلت مواطن الإلتقاء بين روايات سكوت (ايفانهو والطلسم والمخطوبة) وروايات زيدان التي شملت : (صلاح الدين ومكائد الحشاشين ، وشجرة الدر ، وأحمد بن طولون ، وفتح الأندلس أو طارق بن زياد ، وأرمانوسه المصريه ، وفتاة غسان ، وأبومسلم الخرساني ، وغادة كربلاء ، والعباسة أخت الرشيد) ، سجلت مواطن الإلتقاء مصوّرة بصمات سكوت بالاستشهاد بالنصوص من الأعمال الروائية .

ثامنا : وصلنا إلى نتيجة عامة وهي أن هناك إختلافا شاسعا بين المؤلفين : ف (سكوت) كتب روايات تاريخية ، و (زيدان) كان يكتب تاريخا قصصيا . لأن الأول اهتم بالأصول الفنية للرواية ، وطوع التاريخ لتغذية تلك الأصول ، فولدت رواياته جميعا قوية البنية ، صحيحة الجسد . أما الثاني فقد اهتم بالتاريخ وطوع الرواية لتخدمه ولتكون عبدا له ، فولدت رواياته جميعا وهي تعاني من ضعف شديد في الأصول الفنية لكتابة الروايه .

وقد فصلنا القول في هذه النتائج في فصول البحث .

انتهى

بحمد الله رب العالمين

****
****
****
****
*****
***
*


ثبت المصادر والمراجع

ثبت المراجع العربية

- إبن الأثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٩ ، ثلاثة عشر مجلدا .
- جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، بيروت ، منشورات دار مكتبة الحياه ، ١٩٨٣ ، أربعة أجزاء في مجلدين .
- جرجي زيدان ، أبومسلم الخرساني ، المجلد الثالث ، بيروت ، دار الهدى الوطنية ، ثمانية مجلدات ، سلسلة روايات تاريخ الاسلام .
- جرجي زيدان ، أحمد بن طولون ، المجلد الثاني ، بيروت ، دار الهدى الوطنية ، ثمانية مجلدات ، سلسلة روايات تاريخ الاسلام .
- جرجي زيدان ، أرمانوسه المصرية ، المجلد السادس ، بيروت ، دار الهدى الوطنية ، ثمانية مجلدات ، سلسلة روايات تاريخ الاسلام .
- جرجي زيدان ، استبداد المماليك ، القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٨٥ .
- جرجي زيدان ، الأمين والمأمون ، المجلد السابع ، بيروت ، دار الهدى الوطنية ، ثمانية مجلدات ، سلسلة روايات تاريخ الاسلام .
- جرجي زيدان ، العباسة أخت الرشيد ، المجلد الثالث ، بيروت ، دار الهدى الوطنية ، ثمانية مجلدات ، سلسلة روايات تاريخ الاسلام .
- جرجي زيدان ، شجرة الدر ، المجلد الثالث ، بيروت ، دار الهدى الوطنية ، ثمانية مجلدات ، سلسلة روايات تاريخ الاسلام .
- جرجي زيدان ، صلاح الدين ومكائد الحشاشين ، المجلد الرابع ، بيروت ، دار الهدى الوطنية ، ثمانية مجلدات ، سلسلة روايات تاريخ الاسلام .
- جرجي زيدان ، غادة كربلاء ، المجلد الأول ، بيروت ، دار الهدى الوطنية ، ثمانية مجلدات ، سلسلة روايات تاريخ الاسلام .
- جرجي زيدان ، فتاة غسان ، المجلد الثامن (جزءان) بيروت ، دار الهدى الوطنية ، ثمانية مجلدات ، سلسلة روايات تاريخ الاسلام .
- جرجي زيدان ، المملوك الشارد ، القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٨٥ .
- سيد حامد النساج ، بانوراما الرواية العربية الحديثة ، الطبعة الأولى بيروت ، المركز العربي للثقافة والعلوم ، ١٩٨٢ .

- عبدالمحسن طه بدر ، تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ١٨٧٠ – ١٩٣٨ ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٣ .

- قاسم عبده قاسم ، أحمد إبراهيم الهواري ، الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٩.

- لوكاش ، جورج ، الرواية التاريخية ، جورج لوكاش ترجمة الدكتور صالح جواد كاظم ، بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٧٨ ، سلسلة الكتب المترجمة (٤٩) ، الجمهورية العراقية ، منشورات وزارة الثقافة والفنون .

- محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ، الطبعة الخامسة ، بيروت ، دار دار العوده ودار الثقافه .

- محمد يوسف نجم ، القصة في الأدب العربي (١٨٧٠ – ١٩١٤) ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٦ .

- غير مسمى ، ألف ليلة وليله . إعداد : رشدي صالح ، لوحات : حسين بيكار ، دار مطابع الشعب ، مجلدان ، كتاب الشعب .

BIBLIOGRAPHY.

- Allen, Walter, The English Novel, England, Penguin Books, 1975.
- Anderson, James, (Sir Walter Scott as Historical Novelist) Studies in Scottish Literature, 4, Colombia, Sc. 1967.
- Baugh, Albert C. & Thomas Cable, A History of The English Language, Third Edition, England, Routledge & Kegan Paul, 1973.
- Evans, Ifor, A Short History of English Literature, England, Penguin Books, 1973.
- French, Richard, (Sir Walter Scott as Historian), 47, Dalhouse Review, Halifax, Nova Scottia, Canada, 1967.
- Milligan, Ian, The Novel in English, An Introduction, London, Macmillan Publisher's Ltd, 1985.
- Noyes, Russell, English Romantic Poetry and Prose, New York, Oxford-University Press, 1956.
- Perkins, David, English Romantic Writers, U.S.A, Harcourt Brace, Jovanovich, Inc., 1967.
- Scott, Sir Walter, Ivanhoe, England, Penguin Books, 1984, Penguin Cla1sics.
- Scott, Sir Walter, The Talisman, New york, J.M Dent and Sons Ltd, 1980.
- Scott, Sir Walter, The Talisman, London, Blackie and Son, Limited, Blackie's Library of Famous Books.
- Scott, Sir Walter, Waverley Novels (The Betrothed), Vol.IX, Edenburgh: Robert Cadell, London: Houlston & Stonemaa, MDCCCXIVL.
- Wilson, John Burgess, English Literature, England, Longman, 1970.

الفهـــــــــــرست

الروايــة التــاريخـيه عند السـير ولـتر سكــوت
وجـرجـي زيـــدان ـ دراســة مقــارنـــــــه

الباب الثالث

أثر روايات سكوت على روايات زيدان التاريخية

(١٩٨ – ٢٩١)

الفصل الأول

علاقة جرجي زيدان بالسير ولتر سكوت

(١٩٩ – ٢٠٠)

الفصل الثاني

صلاح الدين ومكائد الحشاشين

(٢٠١ – ٢٣٠)

الفصل الثالث

شجرة الدر

(٢٣١ – ٢٦٠)

الفصـــل الرابـــع

أحـمد بــن طـــــولون

(٢٦١ – ٢٧٠)

الفصـــل الخـــامس

فتـــح الأنـــــدلس

أو

طـــارق بن زيـــــــاد

(٢٧١ – ٢٨٢)

الفصـــل الســـادس

أرمـانوســـة المصـــــريه

(٢٨٣ – ٢٨٧)

الفصـــل الســـابع

روايـــــات آخـــــرى

(٢٨٨ – ٢٩١)